كتابات نوبة الحراسة

«رسائل: عبد الحكيم قاسم»

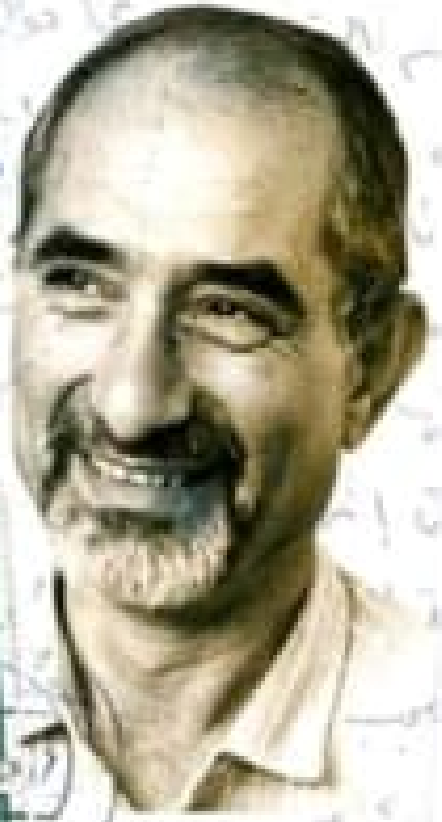

إعداد وتقديم: محمد شعير

ميريت

كتابات نوبة الحراسة

رسائل عبد الحكيم قاسم

كتابات نوبة الحراسة
رسائل
محمد شعير

الطبعة الأولى ٢٠١٠
(C) دار ميريت
٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة
تليفون / فاكس: ٢٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)
www.darmerit.net
merit56@hotmail.com

الغلاف: أحمد اللباد
المدير العام: محمد هاشم
رقم الإيداع: ٢٠١٠/٢٢٣٦١
الترقيم الدولي: 978-977-351-556-5

محمد شعير

كتابات نوبة الحراسة

رسائل عبد الحكيم قاسم

دار ميريت
القاهرة ٢٠١٠

الكتابة بدون مكياج

-١-

لم تكن حياة عبد الحكيم قاسم فى بيت جده فى ميت غمر سعيدة، فكتب وهو فى سن العاشرة خطابا لأبيه يشكو له من بؤس الحياة التى يحياها، لكن خاله ضبط الخطاب وصادره. كانت "جواباته" لأبيه تحمل حساً أدبياً، كما قال، وربما كانت هذه الرسائل محاولته الأولى للدخول إلى عالم الكتابة.
أما آخر رسالة كتبها، قبل شهور من رحيله، فكانت إلى الدكتور سمير سرحان رئيس هيئة الكتاب. كتبها بخط مرتعش كأنه يتدرب على الكتابة لأول مرة:

الصديق العزيز الأستاذ الدكتور سمير سرحان رئيس الهيئة..أكتب لك عشمانا فيك بأن ترفع أجرى عن «أيام الإنسان السبعة» المترجمة إلى ألف جنيه وأن يتم الصرف بسرعة.... إننى محتاج وأنت زميلى وقاضى الحاجات لى!

بين الرسالة الأولى والأخيرة مسافة كبيرة، عمر من الكتابة والتمرد، وسيرة حياة لمبدع كبير اسمه عبد الحكيم قاسم.

-٢-

كان أندريه جيد يتوقع العثور على "إله" فى رسائل دوستويفسكى، ولكنه

اكتشف أنه أمام إنسان بائس، متعب، مريض، محروم من هذه الصفة التى يعيبها هو نفسه على الفرنسيين وهى البلاغة!

أما كافكا فقد بدا فى رسائله العاطفية إلى ميلينا: "إنسانا عذبا، يتبدى عاشقا قد استرخى، فى غير انتباه، إلى حين، لآلهات النقمة اللائى يطاردنه" كما يقول أحد نقاده تشارلز أوسبورن. وكانت «رسالة إلى الوالد» بمثابة محاكمة رهيبة لأبيه يستحضر فيها جميع عذابات الطفولة التى لم يكن بالإمكان تجاوزها. الأمر ذاته بالنسبة لرسائل رامبو كانت – كما يقول مترجمها شربل داغر- "محاولة للبحث عن الجذور بعيدا عن إلزامية الوطن، وعن الحياة بعيداً عن طمأنينة الإقامة فيها، أى البحث عن أجوبة جديدة لأسئلة قديمة". أما رسائل ريلكه وبارجاس يوسا فقد تضمنت وصاياهم الأدبية. تلك الرسائل وغيرها مما تركه الأدباء والشعراء إلى جانب إرثهم الإبداعي تبدو للوهلة الأولى وكأنها إرث هامشى قد لا يلفت انتباه القارئ غير المتخصص، ولكنها فى الوقت ذاته تمثل جوهر الإبداع حين تكشف عن خبايا حالة المبدع النفسية وآلامه، انكساراته، أحزانه وحتى أحلامه.

ولكن ماذا عن الثقافة العربية؟

ربما لم تعرف الثقافة العربية كتابة الاعترافات كما عرفتها الثقافة الغربية، المناخ الثقافي لا يسمح دائما أن يقول الإنسان ما يريد، ويضطر إلى أن يفصح عن رأيه فى حديث مجالس يختلف كثيراً عما يكتبه ويعلنه، يصبح للمثقف العربي "كلامان": كلام للورق وكلام عليه. ولكن لماذا غابت ثقافة الاعترافات فى الثقافة العربية، بأشكالها المختلفة (سيرة ذاتية، رسائل..) ؟

هل يتعلق الأمر بطقس الاعتراف فى الكنيسة/الغرب وغيابه عن الثقافة الإسلامية؟

الاعتراف سر من أسرار الكنيسة السبعة، لا توبة أو غفران إلا به، ظل هذا الطقس مسيطراً حتى فى المجتمعات العلمانية. بينما الثقافة العربية هى ثقافة "الستر والحجب". قد لا يكون ذلك هو السبب الوحيد لغياب "الاعترافات" إذ يرصد تينتز رووكي في كتابه «فى طفولتي..دراسة في السيرة الذاتية العربية»الذى ترجمه طلعت الشايب وصدر عن المشروع القومي للترجمة:«إن حرية التعبير مكبلة في دول العالم العربي كلها، والسلطة والمؤسسات شديدة

الحساسية بالنسبة للنقد الصريح وللتمثلات الأخلاقية للواقع. من هنا أصبحت السرية والرقابة الذاتية استراتيجية طبيعية للبقاء بالنسبة للكتاب على اختلافهم».
وربما لا تزال الثقافة العربية أسيرة النظرة التقليدية لمفهوم الكتابة بأشكالها المحدودة (رواية، وقصة.. وقصيدة) بينما لا تعطى مساحة للأعمال الأخرى، مثل الرسائل وتعتبرها هامشية.
المرات القليلة التى كتب فيها البعض اعترافاتهم بصراحة وجرأة، أو حاولوا أن يمسوا ذلك الثالوث المحرم: الدين والجنس والسياسة تعرضوا لعواصف من الانتقادات الحادة. لم يغفر الأزهر حتى الآن لطه حسين نقده اللاذع لشيوخ الأزهر، وللتعليم الأزهرى فى سيرته «الأيام» كما لم يغفر بعض المشتغلين بالسياسة ما قاله نجيب محفوظ لرجاء النقاش عن حرب الاستنزاف، ولم يغفر له الأخلاقيون حديثه عن حياة الصعلكة التى عاشها فى شبابه، كما لم تغفر العائلة ما كتبه لويس عوض عنها فى مذاكراته «أوراق العمر». لم تكن اعترافاتهم "تبريرا" أو "تفسيرا".. كانت اقترابا من الحقيقة وتعبيرا عن "قلق" ونقد للذات لا يكترث بتصورات الآخرين أو ردود افعالهم.
كتابة الرسائل، باعتبارها شكلا آخر من أشكال البوح والاعتراف، أمر نادر أيضا فى الثقافة العربية، مهمل، وقد رصد لويس عوض منذ الستينيات هذا الإهمال فى كتابه «مقالات فى النقد والأدب» معتبرا أننا فى الأدب العربي:

> لا نحفل إلا بالأبحاث المنظمة فى النقد الأدبي، أو فلسفة الفن، ولا نقيم وزنا كبيرا لخطابات الأدباء والفنانين أو مذكراتهم أو خواطرهم المتفرقة فى الأدب والفن، وقلما نبذل مجهودا لجمع رسائل أديب أو فنان ونشرها بعد تحقيقها، رغم أهمية ما يرد فى هذه الرسائل من آراء تلقى أضواء على الأدب والحياة. ولعل سبب ذلك أننا لا نسمي شيئا نقدا إلا إذا قال صاحبه فى عنوانه، هذا نقد فاقرأوه، أو لعل سببه نظرتنا إلى الرسائل والمذكرات على أنها أوراق شخصية لا يجوز هتك حرمتها.

ويضيف عوض لو أننا استطعنا جمع خطابات شوقى أو ناجى أو حافظ إبراهيم أو أى عظيم من عظمائنا الراحلين "لاستطعنا أن ندرس عصره وعلاقاته وفنه وفكره من خلال خطاباته كما ندرسها من خلال إنتاجه الرسمي".
الرسائل أيضا كما السيرة الذاتية استثناء الثقافة العربية، أعنى الرسائل التى يمكن

اعتبارها:"الأرض المثالية التى يركض الكاتب عليها، كطفل حافى القدمين، ويمارس فيها طفولته بكل ما فيها من براءة وحرارة وصدق، إنها اللحظات الصافية التي يشعر فيها الكاتب أنه غير مراقب وغير خاضع للإقامة الجبرية" حسب وصف الشاعر نزار قباني فى كتابه «١٠٠ رسالة حب». استثناءات قليلة تركت رسائل للنشر مثل جبران لمى زيادة، أنور المعداوي لفدوي طوقان، محمود درويش وسميح القاسم، محمد برادة ومحمد شكرى، غسان كنفاني لغادة السمان، والطيب صالح لتوفيق صايغ، وهناك أيضا محاولة الناشر رياض الريس لجمع رسائل جبرا إبراهيم جبرا وتوفيق صايغ ويوسف الخال له فى كتابه «ثلاثة شعراء وصحفى».

-٣-

عبد الحكيم قاسم من الاستثناءات النادرة فى الثقافة العربية.

تسأله المحاورة: أين وجدت نفسك أكثر... فى القصة أم فى الرواية؟

فيجيب:"فى الكتابة، حتى إذا كانت الكتابة رسالة أو نص نقدى، أنا أستمتع بالكتابة وأتذوق الكلمة وحينما أكتب أنتشى ولا أستقر على مكتبى أبدا، أتمشى وأهتف بالكلمات وأرقص".

فى رسائله إذن، يتجرد عبد الحكيم قاسم "أمام الأشباح" حسب تعبير كافكا الذى كتب إلى ميلينا "كتابة الرسائل تعني أن يتعري المرء أمام الأشباح". تؤالف هذه الرسائل بين السيرة الذاتية والشهادة. "شهادة" على الزمن والحياة والناس، كما أنها تحمل إضاءة مكثفة لنصوصه، تفك شفرتها، وفى الوقت ذاته تكشف عن طبيعة ثقافة حقبة أدبية وفنية بعينها، وتسرب لنا بعض الضوء حول الكثير من أرائه فى الفن، الدين، السياسة، الجنس، المرأة، الموت والحياة. هى أقرب لأن تكون كتابة بلا مكياج خاصة وأن قاسم اشتهر بعنفه وصدقه الجارح فى أوقات كثيرة. ولأنه كان يكتب كل كلمة فى هذه الرسائل من أجل متعته الشخصية، ما يقرّبها لأن تكون إبداعا أو كتابة أدبية موازية. ربما يمكن أن نعتبرها روايته فى حالتها الخام، الأقل تكلفا والأكثر عفوية، قبل أن تمتد لها يد الفنان حذفا وتزيينا.

-٤-

كانت البداية ملفا صحفيا صغيرا عن الروائى والقاص الراحل يحي الطاهر عبد الله (١٩٣٨-١٩٨١)، نشر الملف فى «أخبار الأدب» فى عام ٢٠٠٤.. متضمنا حوارات مع أصدقائه، وعائلته، وبعضا من الأوراق الخاصة التي تركها مثل رسائل لأمل دنقل، إهداءات لمجموعاته القصصية، نصوصا غير مكتملة. اقترح الصديق الناقد محمد بدوي أن أعدّ بالمثل ملفاً عن عبد الحكيم قاسم، وبالفعل شرعت في التنفيذ، اتصلت بشقيقه عبد المنعم قاسم الذي أطلعني على الكثير من الأوراق بعضها رسائل أرسلها عبد الحكيم من ألمانيا له، ولبعض من أصدقائه، وقصائد كتبها وهو أمر لم يكن معروفا عنه، وقصص البدايات، ومشروعات روائية غير مكتملة، ورسالته للدكتوراه التي كتبها بالألمانية...«ويوميات برلين» حيث كان يكتب يوميا عن المدينة التي سكنها لأكثر من ١٢ عاما. حصلت على صور من هذه الأوراق، ووجدت أن الرسائل يمكن أن تشكل نصاً موازيا وكاشفا لأعماله، وتكوينه الثقافي واختياراته. وبدأت في الاتصال بأصدقائه أسأل إن كان لديهم رسائل من عبد الحكيم.. وحصلت بالفعل منهم على الكثير من هذه المراسلات.

كان مدهشا أن يكتب عبد الحكيم وعينه على "التاريخ"، يصف هذه المراسلات التى كانت تتم بينه وبين أصدقائه بأنها "جديرة بأن تسجل وأن يحفظها تاريخنا" كما يقول فى رسالة لصديقه محمد روميش، حتى أنه طلب من روميش أن يعيد له رسالة كان قد أرسلها له يوما أو ينسخ له صورة منها. ورغم أمنية قاسم بأن تنشر هذه الرسائل يوما ما، إلا أن هذا لم يمنعه عن ممارسة حريته أثناء الكتابة، لم يتخل عن "الضعف الإنساني" الذى يعتبره محمود درويش فى «الرسائل» كتابه المشترك مع سميح القاسم أحد "جماليات" كتابة الرسائل.

لم تكن الرسائل عادية، أو تقليدية يحكى فيها أحواله بشكل روتينى مثلا، كانت قطعا أدبية عالية، وكاشفة فى الوقت ذاته للجيل الذى انتمى إليه قاسم. الرسائل إذن هى "سيرة جيل" بقدر ما هى "سيرة فرد"، خاصة أن الأحداث

السياسية التى كثيرا ما يشير إليها قاسم فى الرسائل واجهها كل أفراد الجيل. وكل الأسئلة التى طرحها كانوا يطرحونها أيضا: كيف واجه هذا الجيل هزيمة ٦٧؟ كيف كان تعاملهم مع عبد الناصر نفسه وتمزقهم تجاهه: هل هو ديكتاتور؟ هل هو أب يمكن أن يسامحوه على ديكتاتوريته؟. النكسة أو الهزيمة أثرت في الجيل تأثيرا كبيرا، ولكن التأثير الأكبر ما جرى بعدها من أحداث، امتدت الهزيمة حتى بعد الانتصار ربما لأن الاعتراف بالهزيمة لم يحدث، فاستمرت المرارة. قد تكون سنوات السادات هي الأكثر قسوة على الجميع، في هذه السنوات حدثت "التغريبة الكبرى" للمثقفين المصريين، خرج الكثيرون إلى المنافي المتعددة ما بين باريس ولندن وبلاد الخليج. أسماء مثل محمود أمين العالم، غالي شكري، محمد روميش، إبراهيم فتحي، أبوالمعاطي أبو النجا، أحمد عبد المعطي حجازي، وعشرات آخرين ومن لم يستطع الخروج عاني مرارة التهميش والنفي في الداخل. الرسائل تلقي الضوء على تلك الفترة، التي شهدت السلام المنقوص في كامب ديفيد، ثم الاجتياح الإسرائيلى لبيروت، والحرب العراقية الإيرانية... وغيرها من الأحداث التي ربما كسرت أفراد هذا الجيل وملأته بالأحزان، هى إذن رسائل تتخطى الخاص إلى العام، وتعكس تقلبات المناخ السياسي ما بين الستينيات والسبعينيات.

احتفظ قاسم بكثير مما أرسله من خطابات، كتبها على أوراق شفافة، كان يبدو أن الكثير منها ليست أصولا وإنما صورا كربونية (لم يكن قد انتشرت فى ذلك الوقت آلات التصوير). تمتد الرسائل طوال فترة إقامة عبد الحكيم فى ألمانيا (١٩٧٤- ١٩٨٥)، وهناك رسالتان فقط أرسلهما قبل سفره إلى الناقد ناجى نجيب الذى كان مقيما في ألمانيا فى تلك الفترة، وفيهما يتحدث بتفصيل عن روايته الأولى «أيام الإنسان السبعة» وعن حياته الشخصية، أما الرسائل الأخري فتبدو وكأنه يقاوم بها غربته، وآلامه النفسية بعد الرحيل. فقد سافر بدعوة من معهد العلوم الإسلامية بجامعة برلين الحرة، كان من المفترض أن يظل هناك وقتا محدودا، مجرد أيام معدودة للمشاركة فى إحدى الندوات، ولكنه قرر أن يخوض المغامرة لنهايتها:

سافرت بعزم البقاء فى أوروبا مدة طويلة،فنحن جيل من الكتاب لم تتوفر لنا الفرص التى توفرت للأجيال السابقة، أقصد البعثات المدعمة ماليا

من الجامعة أو من الدولة. قررت أن أبقى فى برلين كنوع من المغامرة الشخصية تحملت تبعاتها فيما بعد كاملة.

بعد النجاح الذى حققته روايته الأولى «أيام الإنسان السبعة» التى صدرت عام ١٩٦٨، شعر قاسم كما يوضح فى أحد حواراته:

لم أحدث شيئا عبقريا فى شبابى أفرضه على المجتمع، لكنني لا أريد أن أتحول إلى نموذج متكرر مصبوب فى قالب معروف سلفا وعليه سافرت. هنا — فى ألمانيا - لا يعرفني أحد. بدأت أعمل و أتعلم. استعدت شبابى وقدرتي على القلق. وبدأت أرى مصر من بعيد وأرى ألمانيا من قريب تجربة خارقة. بقيت مدة طويلة لا أكتب. لكنني حين بدأت أكتب أدركت أنني ولدت من جديد.

فى ألمانيا تنقل قاسم بين عدة مهن كان أكثرها استقراراً حارساً ليلياً فى قصر شارليتنبورج ببرلين الغربية، وأثناء نوبات الحراسة كان يسجى وقته- كما يقول - فى الكتابة. مقاومة الغربة، والرغبة فى البوح دفعته أن يكتب محاورا أصدقاءه فى رسائل طويلة. لم يكن أمامه سوى أن يكتب، كلما اتسعت فجوة الغربة بينه وبين أصدقائه عبرها بالكتابة، الكتابة الصادقة الشرط الأساسي لكى يهزم الغربة ففى "الحكى لذاذة ونجاة" كما يقول لمحمد صالح... شارحا فى رسالة إليه:

فإننى إن سكتُّ أغرق، أبقى وحدى مع هذه التصورات الغريبة في أعماقى السحيقة، وما أنا بالقادر على امتلاكها وسبرها حتى أفك طلاسمها، إنها تعمى عيني، تحيرنى، أنجو منها إلى أنس الصحاب، أقول حاكيا أو كاتبا، أقول بإلحاح وعصاب، فإن من ورائى الصمت.

فى ألمانيا حاول أن يعيد اكتشاف نفسه من جديد.

-٥-

حياة عبد الحكيم قاسم رحلة بحث دائمة عن الذات فى الشىء ونقيضه. بحث

عن التناقض الكامن فينا كبشر. لم يخجل من التناقضات يوما ما، بل كان يتعامل معها ويذهب بها إلى حدودها القصوى. حياته أشبه برحلة "خروج" دائمة كلما وصل إلى يقين ما تركه، إلى نقيضه، وساهم ذلك أيضا سمات قاسم الشخصية: توتره الدائم الذي يصل إلى العنف أحيانا.

لم تكن ظروف ولادته عادية، كانت أمه الزوجة الثالثة لوالده، فتاة جميلة، صموته، فشلت خطبتها من ابن عمها، فتزوجت والد عبد الحكيم الذى ظل محبا لزوجته الأولي التى أنجبت له أبناء يفقن زوجته الثالثة عمرا. عندما جاء عبد الحكيم إلى الدنيا كان لأبيه "دار وأرض وبهيمة وعيال" غير أن عبدالحكيم ولد "عليلا وهزيلا". هذه العلة كانت لها عميق الأثر فى تشكل بداياته الأولي وعلاقاته مع أقرانه وأبيه..يقول:"تنفيني علتى عن صحبة أقراني من العيال، وتلزمني كُن أبي ومجالس أصحابه في الأصائل الرقيقة والأماسى الندية في ردهة دوارنا". الأب كان محدثا رائعا، قادرا على السيطرة التامة على مستمعيه، وكانت تجربته الحياتية هائلة، فهو رجل كثير الأسفار في البلاد، كثير الأصحاب مشغول بالأولياء والمزارات والموالد والأسواق. لكنه قبل كل شيء وبعد كل شيء مفتون بالكلمة يجيد قولها ويجيد الإنصات إليها وهو يدرك سرها ويطوعها لحكايته ويصنع منها عالما مغايرا للواقع اليومي المترب المنضوح للشمس.. وكانت البداية: "لقد فتح أبى هذا العالم لي لأهرب إليه، أنا الطفل العليل غير القادر على ممارسة الحياة العادية لأقرانى من العيال، هربت إلى عالم أبى هذا وأحببته ولزمته". ولكن لم تكن العلة وحدها سببا فى قربه من عوالم والده، كان هناك أيضا عالم الذكورة فى تقاليد قريته، عالم صارم "مجبول على تقاليد أبوية شديدة العمق فى نفوسهم، كانوا يستهجنون أن يتعلق الذكور من أبنائهم بالأمهات". وهكذا كانت عوالمه صوفية، حيث الموالد والحضرات الدينية، عشق المرحلة التى عبر عنها فى روايته الأولي «أيام الإنسان السبعة» ولكن قرب قاسم من أبيه لم يدم طويلا، اضطر فى عامه الثامن أن يهجر قريته «البندرة» إلى قرية أمه فى ميت غمر بالغربية لكى يدرس فى مدرستها. خمس سنوات كاملة قضاها فى بيت الجد، لم يكن يشعر فيها بسعادة: "لم تحبنى جدتى أبدا، ولم يلاحظ جدي وجودى تقريبا، وخالى عصف بى فى كثير من الأحيان". زادت غربته إذن فى هذه المدينة عمقا:"أنا

الطفل النحيل الشاحب الريفى اللسان، ولم يكن ثمة حضن أبى لألبد فيه، في بيت جدى عرفت الكتاب، وقمت برحلتى في عالم الكتب وحدى، وربما بقيت سنين طويلة أعرف أشكال بعض الكلمات ومعانيها دون أن أعرف كيف تنطلق نطقا سليما". لم تكن الكتب كثيرة "كان الكتاب فى بيوت الفقراء تديّن أو طرفة أو صدفة".. ولكنه كان يحلم أن يكون مثل هؤلاء الصغار الريفيين الآتين إلى ميت غمر من القرى القريبة لكنهم يعيشون بأنفسهم دون رقيب في غرفة مستأجرة، يحيون فيها حياة فقيرة، لكنها بسيطة وطليقة. بدأ حلمه يتخذ شكل البدايات القصصية فكتب مثلا عن شاب يعيش وحده في غرفة على السطوح ويقع في حب جارته: "كان حلما رائعا، وكأننى لم أصدقه فأنهيته نهاية فاجعة، انتحرت الفتاة وجن الفتى". ضاعت صفحات القصة ونسيها ولكنّ شيئا هاما جدا بقى له:"أن القراءة والكتابة هما عالمى، هما مهربى من عالم لا أستطيع التواؤم معه". وفى تلك المرحلة بدأ الشوق إلى القراءة كما يقول:"شوق نابع من احتياجات كانت تسوطنا لنجري ونلهث نبحث عن الكتاب فى مظانه التى هى ليست سوي بيوت أمثالنا". ولكن فى تلك الفترة كان مستغرقا تماما في محبة صوفية للتجربة الإنسانية العظيمة التي خاضتها ثورة النبي محمد وأصحابه الفقراء العظام، سيرة النبي وفقه القرآن والسنة هما معظم قراءات قاسم في المرحلة. والتى جرب فيها ككل أبناء الريف الانتماء إلى جماعة الإخوان المسلمين.

-٦-

فى أيام الصبا كان عبد الحكيم صديقا للصحفى الراحل جمال بدوي، فتيان ريفيان قادمان إلى المدينة للدراسة فى مدرسة طنطا الثانوية، صدمة المدينة كانت كبيرة على استيعابهما، فى السنة الخامسة اختار عبد الحكيم أن يلتحق بشعبة الرياضيات ليكون مهندسا، واختار بدوي شعبة العلوم لكى يصبح طبيبا. ولكن القدر رسم لكل منهما طريقا آخر. جمال بدوي حكى فى مقال له نشره عقب رحيل قاسم مباشرة فى جريدة الوفد:" كان عبد الحكيم يصغرني، وكان يميل إلى استخدام العنف مع خصومنا السياسيين داخل المدرسة، وكان

عبد الحكيم شديد الوطأة بصفة خاصة على إخواننا الشيوعيين ويري أنه لا سبيل للتفاهم معهم إلا بالضرب، وكانت مهمتى أن أقوم بالفرملة لتهدئه نفسه الثائرة وكانت مهمة صعبة للغاية". الفرملة التى كان يقوم بها بدوى لم يكن يتحملها قاسم الذى كان يري أن الخلاف بين التيارين الدينى والشيوعي من المستحيل أن يضيق أو يتوافق على حد أدني. كانت المفارقة عندما تم اعتقال بدوي عام ١٩٥٤ واقتيد للسجن الحربي، وظل قاسم خارج الأسوار، وفى أحد الأيام بعد أن انتهى التحقيق معه فى (بلوكات النظام التى تحولت إلى فرق الأمن المركزي فيما بعد)، انتقل بدوي إلى قسم أول طنطا استعداداً لترحيله إلى السجن الحربي بالعباسية.. فى مساء ذلك اليوم جاء أحد العساكر ليخبر بدوى أن ابن خالته فى انتظاره يريد أن يراه، وعندما خرج وجد أمامه شبحا ألقى بنفسه على صدره وهو يجهش بالبكاء..كان «الشبح» هو عبد الحكيم قاسم الذى أطلق لحيته "حتى يثير الأمن ليلقى القبض عليه" كما قال، ولكنهم لم يفعلوا. يعلق بدوي على ذلك:"لم أندهش لمعرفتى باندفاعاته وقدرته على ارتكاب أعمال تتسم بالجسارة وأحسست بخوف شديد عليه وطلبت منه أن ينصرف حالا قبل أن ينكشف أمره..وهو لا يريد الانصراف ويتمنى لو أنهم استجابوا لرغبته واعتقلوه.."

بعد عدة أعوام فوجئ جمال بدوى وهو جالس فى مكتبه بأخبار اليوم بصديقه القديم يزوره فى الجريدة.. وبعد تبادل الأخبار بينهما أخبره قاسم أنه خرج لتوه من المعتقل. ظن بدوى أن عبد الحكيم كان معتقلا ضمن من تم اعتقالهم من جماعة الإخوان المسلمين..ولكن أخبره بأنه كان فى الواحات مع الشيوعيين!

كانت مرحلة الإخوان فى حياة عبد الحكيم امتدادا لمرحلة «عالم الكلمات».. قبل أن يغادرها على يد أصدقاء آخرين دخل من خلالهم إلى مرحلة « الحياة الحقيقية».

-٧-

كان لقاء عبد الحكيم بصديقه الكاتب المسرحي شوقى خميس نقطة تحول كبيرة

فى حياته. التقاه فى طنطا فى ١٩٥١، وكان لكل منهما عالمه المختلف:

لم يكن شوقى مفتونا بعالم الأولياء وكراماتهم، بل لم يكن يعرف عنهم شيئا ولا عن مناقب الصالحين وسير الأبطال وحكايات ألف ليلة، كان يعيش فى عالم الروايات البوليسية، والأفلام الأمريكية، ولم يكن السفر بالنسبة له حجا إلى المزارات أو زيارة للأقارب فى قرى أخرى، بل كان رحلة إلى المصايف والشواطئ والإقامة فى الفنادق.

كان هذا العالم غريبا وجديدا بالنسبة لقاسم ولذا وقف على حافته ينظر ويتأمل ويندهش... ولم يكن صعبا أن يأخذه شوقى إلى عالمه بسهولة. وعندما انتقل شوقى إلى القاهرة بعد التحاقه بكلية الحقوق، ظل عبد الحكيم قاسم فى طنطا، وكانت فرصة له لكى يذهب وحده لأول مرة إلى القاهرة لكى يزور صديقه. فى الوقت نفسه جاء انتقال قاسم إلى الإسكندرية لدراسة الحقوق حيث بدأ يقترب حثيثا من بعض أفكار اليسار، وخاصة المتعلقة بالولاء للشعب وبالحركة الوطنية والقومية:

كنا جماعات من أبناء الريف في غرف مأجورة ونعيش حياة مغلقة بعيدة عن حياة المجتمع السكندرى ندير غربتنا بيننا، غربتنا في الإسكندرية، غربتنا في مصر كلها. كنا نناقش كل شيء العلم والفن والفلسفة والسياسة والتاريخ، نناقش بانفعال وحنين وسخط، إن كل مسلماتنا وثقافتنا مأزومة إزاء فداحة مشاكلنا، كان علينا أن نكسر شرنقة فكرنا المثالى وننطلق إلى رحابة الفهم العلمي للعالم والفهم الجدلى للفلسفة لصراع الطبقات عبر التاريخ، ولم يكن ذلك أمرا سهلا كان غرما فادحا أديناه ببسالة الشباب وجسارته.

فى زياراته للقاهرة بدأ قاسم يحتك بالمثقفين، ويتعرف عليهم، ويتردد على ندواتهم، ومن ندوة حسين القبانى فى كازينو المنيل وندوة رابطة الأدب الحديث فى شارع إبراهيم باشا أصبح الأدب بالنسبة له: "فرحة ودروشة وطريقة". وفى أغسطس١٩٥٩ اضطر قاسم أن ينتقل للإقامة الدائمة فى القاهرة ليعمل فى هيئة البريد بعد تدهور الأحوال المادية لعائلته بسبب مرض أبيه. فى تلك الفترة كتب أول قصة قصيرة فى حياته، وعندما قرأ قصته الأولي على شوقى خميس انتقده

بشده، وأعطاه الدرس الأول فى الكتابة: "يخيل إلىّ إنك لا تحب الناس الذين تكتب عنهم بالقدر الكافى إنك لا يمكن أن تفهم إنسانا فهما يمكنك من الكتابة عنه إلا إذا أحببته، إذا لم تحب الإنسان فلن تستطيع فهمه ولا الكتابة عنه". استمع عبد الحكيم إلى الدرس جيدا وأعاد كتابة القصة مرة أخرى وقرأها فى ندوة القبانى بحضور شوقى الذى فرح فرحا شديداً باستيعاب قاسم الدرس.
وهكذا انتقل قاسم من عالم الحكايات المكتوبة بعد أن ظل سنوات يمارس الحكايات المحكية..فتن بالأولى منهما كما يقول: "فيها كمية هائلة من الصمت والصخب. كمية خارقة من الانصياع والتمرد. من أجل هذه وغيره فتنتنى. وإذ أحاول التذكر أجد أننى كتبت حكايات صغيرة فى رقع صغيرة ربما هى خطابات لأقارب ولأصدقاء". وكانت هذه هى البداية لدخوله عالم الكتابة. لكن الأمر لم يتم كما خطط له عبد الحكيم، أن يعمل فى الصباح، ويدرس فى الوقت ذاته فى كلية الحقوق.. فقد كانت المفاجأة فى انتظاره!

-٨-

السجن... تجربة أخرى، تركت تأثيرها الكبير على عبد الحكيم قاسم.. ربما على كل أبناء جيله ممن قدر لهم أن يمروا بها. لا ينسى قاسم تاريخ دخوله المعتقل ٢٦ ديسمبر ١٩٥٩، وكان خروجه منه فى ٢٤ مايو ١٩٦٤متنقلا بين سجون القلعة والقناطر ومصر والإسكندرية والواحات وأسيوط، وكانت التهمة الانتماء إلى تنظيم شيوعى. ورغم أن قاسم ينفى فى كثير من حواراته أنه كان منضما إلى أى من التنظيمات الشيوعية فى تلك الفترة، ولم يكن يعرف – كما يقول- ما هوالتنظيم الحزبى الماركسى، إلا أن صديقه الناقد سامى خشبة وقد تزاملا لفترة فى زنزانة واحدة يؤكد انضمام قاسم إلى الحزب الشيوعى المصرى، ثم تركه لينضم إلى «حدتو»، وإن كانت عواطفه مع الماركسيين بشكل شخصى أكثر مما هو بشكل سياسى حيث كان أكثرهم من أصدقائه. ويحكى الروائى صنع الله إبراهيم فى كتابه «يوميات الواحات» أنه التقى بعبد الحكيم فى مستشفى سجن أسيوط وكان قادما إليها من سجن الواحات، وكانا شبه متخاصمين بسبب انتمائهما إلى تنظيمين

مختلفين، ولم تنشأ بينما علاقة إلا بعد أن انضم عبد الحكيم إلى حدتو. ويضيف صنع الله:

تكونت شبة مجموعة بين أربعتنا: هو وكمال القلش، ورؤوف مسعد، وأنا، لم يكن لها شأن بالسياسة، وإنما كانت العلاقة تقوم بيننا على أساس المناقشات المستمرة حول الكتابة والمحاولات التى يقوم بها كل منا، وكنا نعبر عن معارضتنا للمفاهيم الجامدة لمدرسة الواقعية الاشتراكية فى الأدب والفن ونسخر من تصريحات خروشوف حول الفن التجريدى، وهذا ما خلق حساسية فى علاقتنا بمحمود أمين العالم.

ويروى صنع الله أن عبد الحكيم قرأ عليهم أول قصصه القصيرة وكانت بعنوان «الصندوق» واحتفلوا بها. وهذه الرواية تتعارض مع ما حكاه عبد الحكيم عن نفسه أنه كتب قصته الأولى قبل دخوله المعتقل، ولم تعجب صديقه شوقى خميس، فأعاد كتابتها مرة أخرى!

وكما لا ينسى عبد الحكيم تاريخ دخول المعتقل، لا ينسى أيضا عربة المباحث عندما جاءت لتأخذه من عمله فى «البوستة»، إصراره على ألا يشتم الماركسية أو أن يقوم بأى من الأدوار الصغيرة التى تتيح له أن يخرج من السجن. هناك التقى مع صديقيه الحميمين حسنى عبد الفضيل و شوقى خميس الذى برأته المحكمة العسكرية من تهمة الانتماء إلى تنظيم شيوعى فيما بعد ورغم قصر الفترة التى قضاها خميس فى المعتقل إلا أن التجربة تركت أثرها الشديد عليه. تماما كما تركت أثرها على قاسم نفسه: "لقد أصبحنا أكثر إحساساً بنفوسنا وأقل إنكارا لذواتنا وأكثر حبا للمتعة وأقل استعداد لتحمل الألم".

وفى السجن، اقترب عبد الحكيم من نموذجين من البشر استفاد منهما، وربما بسبب التناقض بينهما أدرك أنه لا يمكن أن يستمر فى العمل بالسياسة، وأن يكون همه الأساسى الأدب والكتابة فقط. النموذج الأول: إسماعيل المهدوى ذو "المقدرة العقلانية الفذة" حسب تعبير عبد الحكيم نفسه، أما الثانى فأحمد سالم عامل النسيج.

لفت نظره المهدوى – الذى ترجم كتاب جورج بوليتزر المبادئ الأساسية للفلسفة والمادية والمثالية - إلى أن الماركسية ليست بدلة العمال الزرقاء

وإنما هى علم، ومن لا يعرف المادية الجدلية جيدا فليس من حقه أن يزعم أنه ماركسى. هذه الرؤية تتعارض مع رؤية أحمد سالم أيضا - زميل الزنزانة -المتواضع المعرفة، شديد الوعى بمصالح طبقته شديدة الحساسية ضد المثقفين وتصوراتهم. اقترب عبد الحكيم من التجربتين ورصدهما جيدا، ليصل إلى أنه لا يمكن المصالحة بينهما ومن داخلهما.

فيما بعد وصف قاسم هذه السنوات بأنها: "توشك أن تكون من أعظم ما شهدته فى حياتى... تعلمت فيه كيف يقترب الواحد من ظاهرة اقترابا علميا حتى يفهمها". حتى عندما هجر الماركسية بقيت من آثارها معه تلك النظرة العلمية لتفسير الأشياء التى تعلمها من أصدقاء الزنزانة. ورغم الإفادات التى تحدث عنها كثيرا فى حواراته، ظلّت مرارة التجربة تلاحقه ولم يستطع أن ينساها، وعانى بسببها كثيرا: "أنا مازلت شخصا مداناً فى مصر لأننى كنت شيوعيا ذات يوم. عندما كنت صغيرا... ورغم أن هذا ليس فى كتبى" كما قال لمارينا ستاج فى حوراه معها نشرته فى كتابها «حدود حرية التعبير». لكن المدهش أن عبد الحكيم فيما بعد أعلن بعد عودته من ألمانيا "فى صخب وغير مناسبة" حسب عبارة الناقد إبراهيم فتحي، أنه ضد اليسار، وأنه كنس الواقعية من على مكتبه. فماذا فعلت برلين بالعاشق القديم لموالد الشيوخ؟

-٩-

فى روايته «محاولة للخروج» تسأل البطلة السويسرية إلزبث (هكذا كتب الاسم) بطل الرواية «حكيم»: لماذا تبقى هنا؟ يرد حكيم: "علىّ أن أبقى، لا أدرى لماذا..ولكن علىّ أن أبقى؟"... عندما تلح فى السؤال..يجيبها: "هل أحكى لك حكاية أخيرة. عن ناس فى قريتى، مرضى، فى بطونهم جزء تالف، يظل يفرز الماء بلا انقطاع حتى تمتلي بطونهم.. يفرغون هذا الماء لكن بطونهم تمتلئ مرة أخرى. عندى شيء مثل هذا، فى روحى جزء تالف يفرز الماء بلا انقطاع".

ترحل بطلة الرواية..ويصر حكيم على البقاء رغم أنه يعلن فى بداية الرواية: "أصبحت فى الثلاثين ولم أنجز بعد شيئاً مع أننى كنت دائما مفعماً بالرغبات

العظيمة". ولكن عبد الحكيم قاسم يقرر السفر عندما تتاح له الفرصة لذلك لكن لماذا سافر؟ هو نفسه يصف السؤال بأنه "أعقد الاسئلة التى واجهتني فى حياتي"

يقول لشقيقه عبد المنعم:

أريد أن أقول لك إننى وصلت إلى عشرات الأجوبة وكلها صحيحة، أو قد تكون كلها خاطئة، لكن الشيء المؤكد أننى لو رجع بى الزمان إلى الوراء حتى يوم شم النسيم من عاما ٧٣ حينما دعيت من الإسكندرية للقاهرة لمقابلة تسلر ودعانى ووافقت على الحضور، أقول لو حدث هذا ألف مرة فإننى فى كل مرة سوف أوافق رغم كل ما رأيته هنا من ظروف صعبة.

سافر ليس فقط بحثا عن نجاح أو وضعية اجتماعية أفضل، بل لأنه كما أعلن أكثر من مرة بحثا عن "لقاء الحضارة الأوروبية على أرضها ومعايشتها ومعاناتها وتجربتها بالحواس الخمس لا فقط بالقراءة والنظر العقلى". وضعيته الاجتماعية الحالية تهدد القراءة بالتشوه، ومن ثم وجب السعي إلى هذه الثقافة فى عقر دارها، "كأن ثقافة الواقع تهدد الموهبة وعلى حين تصقلها ثقافة الغرب" كما يقول محمد بدوي فى كتابه «الرواية الحديثة فى مصر». وكان يريد أيضا أن يضع أفكاره النظرية حول «الأنا» والآخر فى اختبار حقيقى. فقد شغلته هذه القضية طويلا. كان يسميها ثنائية "الريفى والخواجاية".

يحكى لمحمود الورداني فى رسالة له:

كان فى بلدنا عمدة والعمدة له ابن والابن تزوج من عيلة سالم من الدقهلية وأنجب صبيانا وبنات عماليق بيضاً شقراً لم يكونوا يأتون البلد إلا فى عربات، ويأتون نادراً ولا يخرجون من بيتهم ذى الحديقة الشاسعة إلا لماماً. لكن مرة جاءت«توتو» اسمها هكذا، جاءت بالقطار لأول مرة فى حياتها. نزلت فى محطة سابقة، بلد اسمها القرشية.. المهم نزلت توتو تسأل عن البندرة وتاهت فى الحقول وخرجت من وسط أعواد الذرة وعلى جماعة من العيال وهى طويلة شقراء على رأسها أجمة من الشعر الذهبى.. طار العيال ذعرا يقولون: عفريتة

الثنائية هنا هى تعبير عن «الأنا والآخر» والتى احتلت فى أعماله الروائية مساحة

كبيرة، منذ «أيام الإنسان السبعة» كان الآخر فيها هو صاحب الثقافة الثابتة المتكلسة، وهو الأمر الذى يلاحظه الناقد على عفيفى فى دراسته «الروای والمروى له فى روايات عبد الحكيم قاسم» حيث: "يبدأ عبد العزيز – بطل الرواية – يقرأ كتبا أخرى غير التى يقرأها أهله، و عندما يمتلك عبد العزيز كتبه الخاصة التى تختلف عن كتب الدراويش يبدأ فى الانفصال عنهم مكانيا وعقليا فيستقل بغرفة له على السطوح ويبدأ وعيه فى التغيير، بينما يظل فكر الجماعة على حاله، ملتصقة بعاداتها التى تتكرر حتى النهاية".

المحاولة تكررت فيما بعد فى «محاولة للخروج» كان الآخر الذى يقصده قاسم هو الغرب هذه المرة... وإذا كان أبطال طه حسين وتوفيق الحكيم ويحيى حقى والطيب صالح قد ذهبوا بأنفسهم إلى هناك وعادوا ليحكوا عن تجربتهم، فإن قاسم يعكس الوضع، فتأتى إلزبث الفتاة السويسرية إلى الشرق نفسه، ويبدأ التصادم بينها وبين عالم حكيم الشرقى منذ اللحظة الأولى.

الراوى كما يلاحظ عفيفى مشغول طوال الوقت بما يعتمل داخله وكيف يراه الآخر، إلى الدرجة التى تجعله ينطق بما يظن أن الآخر الأجنبى يريد النطق به "نحن فقراء... ومتخلفون.. فى حين لم يطلب إليه أحد أن يقيّم المصريين، ولكن شعوره بوجود نموذج متحضر من وجهه نظره، وإلى أن هذا النموذج يرى الأشياء عارية الآن ربما دفعه إلى هذا الاعتراف الذى تشى به المرئيات...".

لكن قاسم فى رسائله يصف الرواية بأنها غير منتحلة وأنها تتناول أزمته الشخصية:"إن ثنائية الريفى والخواجاية شديدة التعقيد، لذلك فإن «محاولة للخروج» تضم قطبا صامتا هو البنت وقطبا متحركا هو الولد الريفى. لذلك فهى قصته هو وليس القطب الآخر سوى المثير والمحرك"... قاسم هنا ينفى أسطورة التناقض المطلق بين الشرق والغرب "اللذين لا يلتقيان" وينفى كذلك "المصالحة الرومانسية" بينهما، إذا ينجح الحب فى التأليف بين العالمين المتناقضين؟

عندما يسافر قاسم إلى برلين يصبح فى مواجهة الغرب ذاته. فهل حدثت المصالحة؟ أم زادت المواجهة؟

انبهر بالغرب عند وصوله إلى هناك: "عشت فى برلين الحياة الأوروبية نظيفة،

لامعة أنيقة، مرتبة، فعالة، متفوقة، متدفقة، متقدمة ". سافر بحثا عن "اللاانتماء الذى يخلص القلب من عبودية الأماكن". كما يقول فى رسالة لمحمد صالح:

ترسل وثاقي قباب الشيوخ، والطرق الريفية وغرز الشاى تحت أشجار الجميز، ومقاهي النرد، وتجاعيد المحنة على وجوه الصحاب، تعيد إلىّ حريتى بلا عتاب، بلا أسى، آكل لحم الخنزير وأشرب البيرة مع عمال البناء عند العجوز الألمانية المطلية الجفون بالخَضار.

ظن إذن أنه برحيله سيجتاز «جحيم الغرف المقبضة».. لكن يبدو أنه حمل قدره معه..تفترسه الحجرات الخانقة فضلا عن الشعور بالغربة والشتات والبحث عن هوية. بمرور الأيام يكتشف:

غربة هؤلاء العرب المريرة هنا، وهذه الحقيقة هي التفسير الوحيد وراء كل مظاهر حياة هؤلاء العرب هنا إننى هنا جربت شيئا غريبا لم أكن أتصور أنه ممكن أن يتحقق فى أي مجتمع إنساني، المجتمع الألماني مجتمع مقفل، مقفل بإحكام لا يتيح بأى حال أن يدخل أجنبى وخاصة أجنبى من العالم الثالث الذين يتصورونه هنا ناس من الهمج وهذه صورة لا يمكن تغييرها فى عقلية الأوروبي

هذا المجتمع من وجهة نظره يحكمه الرعب. يكتب: "الرعب بلا أدنى مبالغة يتحكم فى الناس من أكبر مليونير إلى أصغر عامل، ثمة مجهول متوحش خرافى يقلب المصائر ليلا ونهارا وكل يوم يفوت عليك يعتبر قاسيا".

ربما أدت هذه المعادلة فى تفسير عبد الحكيم قاسم للمجتمع الأوروبي فى ألمانيا إلى أن يخلق سلوكا موازيا يعبر فيه عن حالة من التوازن، أو ربما حالة من النقد للسلوك العام تجاه المهاجرين. هكذا يضيق بالبذلة الإفرنجية التى كان يرتديها فى برلين، ليخلعها على باب داره مرتديا جلبابه وطاقية رأسه. وهكذا يعلن بعد وصوله إلى مصر منهيا اغترابه الطويل الذى قارب ١٢ عاما فى ألمانيا: "إننى غير مستعد للتصالح مع النموذج الأوروبى على أى مستوى من المستويات". عاد قاسم من برلين، مطالبا باحترام مجمع اللغة العربية واتباع قراراته حتى وإن بدت غريبة وغير معتادة وكان ذلك ردا على من هاجموه لأنه استخدم كلمة «مرنأة» بدلا من «تلفزيون». كما قرر أن يعيد كتابة «أيام

الإنسان السبعة» بعد أن يخلصها من العامية، كما صرح لبعض أصدقائه هكذا أيضا يظل يبحث عن "نظرية جمالية عربية" بعد أن ظل العالم العربي معتمدا على "نظرية أوروبية"..فالثقافة العربية من وجهة نظره: "فى حالة دفاع عن ذاتها وبينما الغربية فى حالة محاولة للسيطرة على العالم..ومن المستحيل أن نفسر الكتب العربية والأعمال الفنية العربية بثقافة مختلفة جوهريا فى الموقف التاريخي".

تحيلنا تجربة قاسم إلى نماذج أخرى ومساهمات فكرية متعددة فى مجال الهوية لكثير من المثقفين العرب وعلاقاتهم بالغرب لعل أبرزها سيد قطب الذى بدا ناقدا أدبيا واعدا بشهادة نجيب محفوظ، ولكن تحول بعد رحلته الأمريكية لدراسة الماجستير إلى أصولية فكرية تستمد أصولها من تجربة الإخوان المسلمين وكتابات حسن البنا وأبو الأعلي المودودى. قطب يمثل تجربة هامة للانتقال من الانفتاح الفكري إلى التغيير الراديكالى..الذى لم يصل إليه قاسم، ولكنه أصبح بعد عودته مدافعا عن الثقافة القومية وداعيا إليها رغم أنه سافر بحثا عن ثقافة غربية تصقل موهبته. لم يتحرر من «عبودية الأماكن» كما أراد. ربما المحبة الخالصة والكراهية المطلقة هنا هما وجهان لعملة واحدة، كلاهما انسحاق قد يحجب الحقيقة. ولذا اعتبر الكثيرون أن هجوم عبد الحكيم على الحضارة الأوربية جزء من الدفاع عن هوية مهتزة.. هوية جريحة.

-١٠-

بعد عودته، قرر قاسم أن يخوض انتخابات البرلمان. لم يكن موقفه مدهشا لمن عرفوه. عندما سمع إبراهيم منصور بأن قاسم سوف يخوض الانتخابات ضحك قائلا: "يعملها عبد الحكيم". فى إحدى رسائله إلى الناقد محمود عبد الوهاب قال قاسم:

إن ما أنجزته ككاتب وكإنسان قليل جداً. لكنني راض. فقد جهدت جهدي وما كان لبشر أن يتجاوز ما وهبه الله من إمكانيات العقل والجسد.. كل ما كنت أتمناه هو أن يكون ثمة نظام اجتماعي وسياسي في بلدنا يتيح للفرد أكبر توظيف ممكن لكفاءته وقدراته. لا أريد لإنسان

أن يقفز علي ظله، لكنني أكره أن يكون ثمة ما يعوقه عن أن يحقق ذاته. لست نجما من نجوم الكتابة المصرية..إنني كاتب موجود في زاوية مبهمة من ضمير القارئ المصري. وأنا راض بهذا الوضع إنه يمنحني القدرة علي أن أهمس باضطرار وبنغمتي.

حلم عبد الحكيم بهذا النظام الذى يشير إليه فى رسالته، وربما أيضا رغبة فى نجومية أكبر خاض الانتخابات على قائمة حزب التجمع باعتباره الأرض التى "أشعر بالانتماء عليها لا بحكم تكوينى النفسى والعقلي والتاريخي" كما قال. ولكن كيف فكر قاسم فى خوض الانتخابات؟

عندما عاد من رحلته الألمانية ذهب لزيارة الحزب من أجل الانضمام إليه، كانت صدمته كبري فى المقر: "هالني ما رأيت من قذارة وقبح وعناكب على السقف وتمثال عبد الناصر ردىء جدا من الناحية الفنية، وقد رأيت شباب التجمع يشربون الشاى فى بلادة ولاتؤذى عيونهم مناظر القبح المحيط بهم ". كان من المفترض أن يلتقي رفعت السعيد ليحدثه عن أمر انضمامه للحزب "كان السعيد يصيح ويلوح بيديه ويصرخ غاضبا ثم يضحك دون أن أدرى سببا لصراخه ولا سببا لضحكه، طلب منى الانتظار لمدة دقيقة وعندما جاء دورى قال لى أرجوك أن توجز ما تريد قوله وتتحدث بسرعة لأن وقتى مزدحم بالمهام العاجلة". شعر قاسم بالاستياء من هذه المعاملة ومن طريقة الكلام..وقرر أن ينصرف بدون أن يشرح سبب زيارته. هذا الموقف وغيره من المواقف التى قابلها بعد عودته اسهمت فى إبعاده عما ظن أنه "أرض الحقيقة" كما قال. وقد نشر وقتها مقالا حادا وعنيفا فى جريدة الشعب يهاجم «التجمع» وقد بدأت حملة هجوم شديدة عليه.. وتصويره بأنه تخلي عن موقعه وانضم إلى التيارات الدينية.. فكتب "بدلا من أن تهاجمونى بلا مبرر اقرأوا المقال وناقشوني فيه". بالفعل قرأ رئيس حزب التجمع بمحافظة الغربية المقال، واتصل بعبد الحكيم طالبا منه أن يترشح فى الانتخابات على قائمة الحزب يقول قاسم: "صادفت دعوته نزوعا فى نفسى للالتقاء بالناس والتحاور معهم وفهمهم والإفصاح عن فكري لهم". وقد اختار الحزب مرشحا آخر ليكون على رأس القائمة، على أن يأتى قاسم فى المرتبة الثانية، وقد اعترض قاسم على هذا الإجراء واتصل بإسماعيل صبري عبد الله وخالد محيي الدين

وفؤاد مرسي الذين وافقوا على أن يأتي على رأس قائمة الحزب، ولكن رفعت السعيد رفض باصرار وقال لقاسم: "إما أن تقبل الوضع أو تنسحب". صمم عبد الحكيم على الاستمرار وقد خصص له الحزب عربة لتنقلاته، و٢٥٠ جنيها للمصروفات وثوبين من القماش لعمل لافتات الدعاية.

لم يكن هناك أمل فى الفوز، كما قال قاسم فيما بعد، ولكنه اعتبر الأمر "تجربة نتعلم منها ونستفيد ونتهيأ لجولة قادمة". وقد أضاف إلى منشورات الحزب التى يتم توزيعها على الناخبين عبارة "بسم الله الرحمن الرحيم" حتى يزيل الجفوة بين الحزب وبين جمهور "تحرص الدعاية المضادة على تقديمى له باعتبارى شيوعيا".. وكانت خطته فى الدعاية تقوم على صياغة منشورات لا تتضمن هجوماً على أحد من الأحزاب الأخرى، وظل يدور فى المقاهى ويجلس مع الناس محاورا إياهم، إذ كان مؤمنا: "إننا لو استطعنا أن نؤثر فى هذا القطاع العريض من الأغلبية الصامتة فقد أنجزنا فعلا خطوة هامة على الطريق". كما طلب أن يتم عمل مناظرة بينه وبين مرشحى الإخوان، وحضر فى الموعد ولم يحضر الآخرون..وفى الانتخابات لم يحقق نجاحا كبيرا، أنهكته التجربة التى لم يكن مستعدا لها استعدادا كاملا، لم يكن يمتلك القدرة على منافسة نماذج من البشر لا يملك شطارتها ونفوذها. لم يحقق النجاح، وكان الأمر بداية لهزيمة الجسد الذى سقط مصابا بالشلل!

-١١-

عبد الحكيم قاسم هو خارج دائما، لم يكن «محاولة للخروج» عنوانا لرواية كتبها، بقدر ما كان تلخيصا لمسيرة حياته، لأزمته الشخصية فى البحث الدائم عن ذاته، فى الشيء ونقيضه معا. فى التصوف أحيانا، وفى الماركسية أحيانا أخرى. كان دائما يحاول التحرر من أسر المكان ووطأة جدرانه فى السفر الذى أراد أن يحرره من «عبودية الأماكن» ولكنه عاد إلى قريته، مدافعا عن قيم اجتماعية، وتقاليد فنية كثيرا ما كان يهاجمها. حتى زملاء جيله الذين تفيض رسائله حبا لهم، وكانت أطروحته للدكتوراه التى لم يستكملها عنهم، لم يسلموا من هجومه. يسأله أحد الصحفيين: لماذا تخسر أصدقاء والخلاف

بينكما غير جوهرى، لقد عرفت قلبك أخضر يحب ويكره. فيجيبه: "أليس من حق هذا القلب الأخضر أن يغضب مرة أو يثور".

«القلب الأخضر» ليس هو المبرر الوحيد لهجوم قاسم على زملائه من الكتاب، ولكن ربما لأن الهجرة "تُحدث تغيرات ذات طابع كارثى"، كما أن "المنفى يسحق المرء ويطحنه ولذا فلابد أن يتم إسقاط اللوم والذنب على أحد ما ويكون عادة على أقرب المقربين للإنسان المنفي"..وهو الأمر الذى يرصده ليون وربيكا غرينبرغ فى كتابهما «التحليل النفسى للمهجر والمنفى». العودة دائما ما تكون "هجرة جديدة" ..ولذا لا يعود الإنسان من منفاه..يوضح غرينبرج:

> المهاجر الذى يطأ أرض وطنه، يأمل أن يحظى بكل ما كان يفتقده ويتوق إليه فى الغربة، حتى لو كان يدرك استحالة ذلك، لكنه يظل متأملا فى أن يجد كل الأشياء كما تركها وكل الذين عرفهم، وكأنهم – كما فى حكاية الأميرة النائمة- يغطون فى سبات طويل بانتظار الأمير ليوقظهم. إلا أن الواقع غير ذلك تماما. والدليل الدامغ على أن البشر والأشياء والشوارع والعلاقات والعادات والروابط المتغيرة التى يواجهها المهاجر العائد، تجعله يشعر بالغربة والابتعاد. حتى اللغة نفسها لم تعد تلك اللغة التى يعزفها. (...)ولا شك أن التأزم العاطفى سيطرأ بين العائدين للوطن وأيضا الذين تبقوا فيه.

ربما هذا ما جرى فى حالة قاسم، الذى لم يستطع التوافق بعد عودته مع التغيرات الاجتماعية والسياسية التي حدثت فى فترة غيابه، كل الأشياء لم تعد كما كانت في السابق، والمكان لم يعد نفسه بعدما غادره، لقد تغير كل شيء، لذا لم يستطع العودة مرة أخري. وربما كان هجومه مجرد «فعل» يؤكد به وجوده.

-١٢-

هذه الرسائل ليست كل ما ترك عبد الحكيم، هناك عشرات أخرى، بعضها لزوجته وصفتها ابنته إيزيس بأنها رسائل شخصية، وهناك رسائل أخرى لها إشارات فيما هو منشور ولم نستطع العثور عليها، وهناك رسائل ربما مخبأة

لدى أصحابها. وقد تعاملت مع الرسائل باعتبارها نصا لا يجوز العبث به، من هنا كان الحرص على نشرها بأخطائها اللغوية والنحوية. هناك بعض الكلمات قمت بحذفها، وقد تركت مكانها نقاطا، حرصا على عدم التعرض لأحد فالهدف من هذا الكتاب إلقاء الضوء على إنتاج عبد الحكيم قاسم الإبداعى من خلال نصوصه ورسائله.

أخيرا هذه القراءة مجرد محاولة بسيطة لإعادة اكتشاف الإرث الهائل الذى شيده قاسم فى إبداعه. وأتمنى أن تلهم هذه الرسائل آخرين قراءات أخري متعددة.

محمد شعير

القاهرة

الرسائل

إلى ناجى نجيب

القاهرة في ١٩٧٣/٢/٢٦
عزيزى الدكتور/ ناجى نجيب

تحية واحتراما

منذ مدة طويلة وأنا أعلم باهتمامك بكتاباتى، وهذا يسعدني إلى أقصى حد، وحينما سلمنى الأستاذ يوسف الشارونى نسخة من مقالك عن روايتى الأولى «أيام الإنسان السبعة». وقرأت المقال أدركت إلى أى مدى كان إخلاصك في قراءة عملي هذا، ومدى نفاذك إلى أدق جزيئاته، وقد أعجلت لك، كلمات قليلة فى رقعة من الورق أسلمتها إلى الأستاذ يوسف الشارونى ليرسلها لك، وقد كنت أتمنى أن تكون كلماتى لك بداية لمراسلة بيننا، وانتظرت طويلا أن تكتب لي على العنوان الذي أثبته في هذه الورقة، وطال انتظارى دون جدوى.

ثم قابلنى الأخ جميل عطية وطلب إلى أن أوافيك بمعلومات عن شخصى، وفي الحقيقة لم أعرف على وجه الدقة أى نوع من المعلومات وأى قدر منها ولماذا، واتصلت بشقيقكم الأستاذ سامح نجيب وقرأ على الكلمات التى وردت في خطابكم بهذا الصدد، ولم تكن هذه الكلمات شافية في وضوحها.

وطلبت أنا من الأخ جميل عطية أن يرسل لك عنوانى لتكتب لى شخصيا بما تريده عنى، أليس غريبا أن نظل إلى الآن وليست بيننا علاقة مباشرة.

إننى سأكتب لك الآن عن نفسى ما أتصوره وأرجو أن تكتب لى فورا بما قد تريده من تفصيلات أو من إجابات لأسئلة تكون ما تزال قائمة في ذهنك دون إجابة وسوف أبادر بالرد عليك فور تسليم خطابك.

ولدت في قرية صغيرة اسمها «البندرة» تبعد حوالى عشرين كيلومترا عن مدينة طنطا عاصمة محافظة الغربية في اليوم الأول من عام ١٩٣٥.

وكنت طفلا عليلا تنفينى علتى عن صحبة أقرانى من العيال، وتلزمني كُن أبي ومجالس أصحابه في الأصائل الرقيقة والأماسى الندية في ردهة دوارنا.

ولقد كان أبى محدثا رائعا، قادرا على السيطرة التامة على مستمعيه، وكانت تجربته الحياتية هائلة، فهو رجل كثير الأسفار في البلاد، كثير الأصحاب

مشغول بالأولياء والمزارات والموالد والأسواق.

لكنه قبل كل شيء وبعد كل شيء مفتون بالكلمة يجيد قولها ويجيد الانصات إليها وهو يدرك سرها ويطوعها لحكايته ويصنع منها عالما مغايرا للواقع اليومي المترب المنضوح للشمس.

لقد فتح أبى هذا العالم لي لأهرب إليه، أنا الطفل العليل غير القادر على ممارسة الحياة العادية لأقرانى من العيال، هربت إلى عالم أبى هذا وأحببته ولزمته.

وفي عام ١٩٤٣ رحلت إلى بيت جدى لأمى في مدينة (ميت غمر) لألحق بالمدرسة الابتدائية وفي هذه المدينة ازدادت غربتى عما حولى عمقا، أنا الطفل النحيل الشاحب الريفى اللسان، ولم يكن ثمة حضن أبى لألبد فيه، في بيت جدى عرفت الكتاب، وقمت برحلتى في عالم الكتب وحدى، وربما بقيت سنين طويلة أعرف أشكال بعض الكلمات ومعانيها دون أن أعرف كيف تنطلق نطقا سليما.

وكم كنت أحلم أن أكون أحد هؤلاء الصغار الريفيين الآتين إلى ميت غمر مثلى من القرى القريبة لكنهم يعيشون بأنفهسم دون رقيب في غرفة مأجورة، يحيون فيها حياة فقيرة، لكنها بسيطة وطليقة، وقد حولت حلمى هذا إلى صفحات كثيرة تحكى عن شاب يعيش وحده في غرفة على السطوح ويقع في حب جارته، كان حلما رائعا، وكأننى لم أصدقه فأنهيته نهاية فاجعة، انتحرت الفتاة وجن الفتى.

وبعد ذلك ضاعت صفحات القصة وأنا نسيتها، ولكن شيئا هاما جدا بقى لي، أن القراءة والكتابة هما عالمى، هما مهربى من عالم لا أستطيع التواؤم معه.

وفي عام ١٩٤٨ انتقلت إلى المدرسة الثانوية في مدينة طنطا، أقيم فيها أحيانا في غرفة مأجورة في حى فقير أو أسافر إليها يوميا في قطار الصباح الباكر وأعود في المساء إلى قريتى.

في هذه المرحلة أستفحل إحساسي بالغربة، لكنه اتخذ معنى جديد، لم يعد سببه كامنا في ذاتي بل في كونى أنتمى إلى عالم الفقراء، ذلك العالم المنفى، المعزوب على مستوى الواقع والقيم، ولم يكن بوسعي أن أكسر غربتى بتغير

انتمائى، وإنما بأن أعمق هذا الانتماء، ومن هنا أصبح مدار حياتى هو إعادة اكتشاف قريتى، وبدأ حب قريتى يشرق في نفسى، وأصبح هذا الحب التزاما يكبل روحى بالقهر والكآبة.

وفي المرحلة الثانوية كنت مستغرقا تماما في محبة صوفية للتجربة الإنسانية العظيمة التي خاضتها ثورة النبي محمد وأصحابه الفقراء العظام، وكانت سيرة النبى وأصحابه ونضالهم المجيد وفقه القرآن والسنة هما معظم قراءتى في المرحلة.

وفي عام ١٩٥٥ التحقت بكلية الحقوق جامعة الإسكندرية، وقد كنا جماعات من أبناء الريف في غرف مأجورة ونعيش حياة مغلقة بعيدة عن حياة المجتمع السكندرى ندير غربتنا بيننا، غربتنا في الإسكندرية، غربتنا في مصر كلها. كنا نناقش كل شيء العلم والفن والفلسفة والسياسة والتاريخ، نناقش بانفعال وحنين وسخط، إن كل مسلماتنا وثقافتنا مأزومة إزاء فداحة مشاكلنا، كان علينا أن نكسر شرفة فكرنا المثالى وننطلق إلى رحابة الفهم العلمي للعالم والفهم الجدلى للفلسفة لصراع الطبقات عبر التاريخ، ولم يكن ذلك أمرا سهلا كان غرما فادحا أديناه ببسالة الشباب وجسارته.

وربما كانت هذه المناقشات دائرة في أماكن كثيرة أخرى بين شباب جيلنا كله، ذلك الجيل الذى أعطى مصر جيلنا من الكتاب الشبان. ونحن متفقون مع الأجيال التي سبقتنا من الكتاب المصريين الحقيقيين في أننا ننتمي إلى شعب متخلف يحيا ظروفا غير إنسانية فرضتها عليه سنون طويلة من الاستعمار والاستغلال الأسود أفقرته صحيا وفكريا وألغت دوره تقريبا من الحياة السياسية والفكرية والحضارية للعالم. ولكننا نختلف عنهم في أننا متخلصون تماما من أسلوب حياتنا وتفكيرنا وكتابتنا والتزامنا السياسي من أي انتماء برجوازى، ومن أى تصورات مثالية للفلسفة أو التاريخ أو حركة المجتمع، ونحن منعزلون تماما حياتيا وفكريا عن القيم السائدة في الحياة والثقافة والفن، ولذلك فإن حركتنا تأخذ طابعا معارضا وتحاط بالريبة والحذر، ومن هنا فإن إنتاجنا يتسم أحيانا بالإغراب والألغاز والإغراق في الرمزية، ويكبله من أعماقه إحساس لا علاج له بالخوف أو الحصار.

هذا وأنا في انتظار ردك على العنوان التالي: منزل رقم ٦ شارع رقم ٨ خلف نادى الترسانة الرياضى بريد امبابه، القاهرة. وتقبل شكرى واحترامى،

المخلص
عبد الحكيم قاسم

الإسكندرية في ٧٣/٧/١٨
عزيزى الدكتور ناجى نجيب

أبعث إليك بتحيتى وإعزازى
وبعد،

فإنني أعتذر لك عن تأخرى فى الرد عليك، وآسف لهذا شديد الأسف، وقد حاشنى عن سرعة الإجابة إنشغالي بأمور عائلية معقدة، هذا إلى جانب تأخر خطابك في الوصول إلى.

وفي هذا الخطاب الأخير تسألنى عن إتجاهات القراء في مصر، وعن المتلقى المصرى بصفة عامة، وعما إذا كان ثمة دراسات ميدانية في هذا الموضوع، اعدت عن موقف المجتمع من الأدباء والكتاب.

وقد حملت تساؤلاتك هذه إلى كثير من الناس، كلمت الأخ إدوار الخراط، والأستاذ رجاء النقاش، والأستاذ يحى حقى والدكتور سيد عويس وكثيرين غيرهم أجمعوا جميعا على أن ليس ثمة دراسة تجيب على هذه الأسئلة، والسبيل الباقية أمامى أن ألجأ إلى دار الكتب وفروعها والمكتبات الأخرى المفتوحة للجمهور القارئ، وأن أراجع إحصائيات البيع لدى دور النشر العامة والخاصة، وأقف على كميات المبيعات من الأنواع المختلفة من الكتب في فروع المعرفة.. فماذا ترى..؟ ألا تبين لي ما يعن لك من تصور يحدد بالضبط نوع الإجابة التي تريد أن تصل إليها، إنها ستكون المرة الأولى التي أتصدى فيها لدراسة من هذا النوع، لكننى سأفعل لو كانت النتيجة مهمة لدراساتك.

وفي انتظار ردك أحكى لك ما كان بيني وبين الأستاذ نجيب محفوظ، إذ عَنّ لأحد مخرجى التليفزيون المصرى أن يجمع بيننا في حوار على الشاشة الصغيرة، باعتباره علم الرواية المصرية وباعتبارى متبدئا في هذا الفن، واجتمعنا ذات ضحى شتوى مشمس في كازينو قصر النيل لنناقش الموضوعات التي سوف تطرح للحوار بيننا في هذا البرنامج، وإذا كان هذا البرنامج لم ير النور، إلا أن حوارنا في هذه الجلسة كان ممتعا.

وكان الاجتماع يضم معنا مخرج البرنامج والشخص الذى سوف يقوم بإعداده، وبادئ ذى بدء كان الأستاذ نجيب محفوظ يرى أن ثمة مشاكل

في النشر تواجه الكاتبين الشبان تحول بينهم وبين قارئيهم، وأنه يتوجب أن يتجه الجهد إلى حل هذه المشاكل، من جانب الدولة ومن جانب المشاريع الخاصة.

وكنت أرى أن المسألة أكبر من ذلك، وأن ثمة هنيهه صمت في تاريخ الثقافة المصرية، تنعقد في جانبى العملية الفنية، الكاتبون الشبان لا يكتبون، وجمهورهم لا يقرأ لهم، وأن مسافة الركود الكئيب بين الجانبين هي الجديرة بالنظر، وهي مسئوليتنا وأن علينا أن نقول فيها بأعلى أصواتنا حتى لا نتحمل جرم هذا الصمت.

وكان معد البرنامج يرى أن هذه مسئولية الكتاب الشبان، لماذا لا يكتبون، تلك هى الحياة والكتب، وهذه هى الأقلام والورق.. لماذا لا يكتبون، ذلك تقصيرهم ولهوهم عن واجبهم بالترهات والكسل.

وكنت أرى أن هذا فهم أخلاقى للمسألة، وهو بهذا قاصر عن تعميق الظاهرة والقول الواعى فيها.

ولكنه يرفض مدللا على وجهة نظره بالأستاذ نجيب نفسه، الذي لم يكف عن الكتابة وهو يعايش ذات الظروف التي يعيش فيها جيلنا من الكتاب، وكذلك بالأستاذ إحسان عبد القدوس ويوسف السباعى وأنيس منصور ومصطفى محمود، وهؤلاء لهم جمهور ضخم من القراء، وهم يواصلون انتاجا ضخما كذلك.

وكان يجب أولا أن ننحى الأستاذ أنيس منصور والأستاذ مصطفى محمود عن اعتبارنا، فالثانى منهما يعتبر بحق دجالا (.....)، يسخر لفائدته الشخصية تلك الأزمة الآخذة بخناق الوجدان المصرى الآن والتي تدفعه – وخاصة الفئات الشابة منه – إلى البحث عن مهرب في الدهاليز المظلمة للأحلام الدينية والتجارب الرومانسية في التاريخ القديم. إنه يستغل هذا ويزعم أنه يستخرج من النصوص الدينية القديمة مفهومات حديثة، بل إنه يزعم أن هذه النصوص تتضمن حلولا معجزة لمشاكلنا التي تستعصى على كل التنظيرات الاجتماعية المحدثة، بل إنها تتضمن علما بكل الظواهر الفيزيقية، وفيها الغناء عن البحث والتجريب، يكفى التأمل فيها واستكناه غوامضها، وعليه فإنه وضع

للقرآن تفسيرا[1] باع إلى الآن أكثر من مائتى ألف نسخة.

والأول منهما وهو الأستاذ أنيس منصور لا يقل (....) عن سابقة، غير أنه يغرق هذه العقول الشابة في تيه من الخرافات ذات الأسماء العلمية الغريبة في خليط مثير من التشويق والإثارة والإغراب، يكتب عن الأسرار الغريبة والإمكانات الخرافية داخل العقل الإنساني التي تجعله قادراً على معرفة الماضى والآتى، وعلي القيام من القبر والطيران عبر الأثير في الفضاء، كل هذا — للحذر — في أوعية قصصية بالغة الإثارة.هذان — إذن — كاتبان — يبيعان المخدر للناس ولا مجال لهما في الظاهرة الثقافية، إنهما وغيرهما خفافيش تهرب إذ يمتلأ المكان بالضوء.

وعلينا أن نستبعد الأستاذين يوسف السباعى وإحسان عبدالقدوس أيضا، فهما كاتبان يتجنبان المسائل الصعبة، ويحكيان الحكى السهل اللذيذ عن الأشياء التي تثير الدهشة اللذيذة أو الضحكة القلبية، أو الدمعة الرقيقة الدافئة، ويقدمان الصياغة الشيقة الفطنة للمسلمات السائدة من خلال ثورات موهومة عليها تستفرغ إيجابية القارئ ثم تعيده إلى صف الطيعين مرة أخرى بعد أن تخدر أو تلغى المناطق الفاعلة المبدعة من وعيه وتنمي نرجسيته وإحساسه الأناني بذاته وتحوله إلى شخص ناجح بالمعنى المبتذل السائد، لكنه في ذات الوقت أجوف ردئ موحش فى داخله محروم من الصدق والصداقة.

أما الأستاذ نجيب محفوظ فلا يعنى كون صوته العظيم بمنأى عن الأزمة إنها موهومة، فهو ظاهرة تمت في غير وقتنا، بعيدة عن الماضى ترى حاجزنا هذا، لقد نضج الكاتب الكبير فى الأربعينات من هذا القرن، في وقت له عناصر تكوينه ومزاجه المختلف، ليس هذا تقليلا من قدر الأستاذ، إنما هو تحديد لنوع وطبقات الأصوات التي تعزف في العمل الثقافى المصرى فى اللحظة الراهنة، فهو إذن كاتب تحددت موهبته وإتجاهاته في وقت سابق وتحدد جمهور قارئيه كذلك، ولا يعنى هذا أن الكاتب منفصل عن واقع عصرنا، أو أن قارئيه من كبار السن، إنما يعنى أن له صورة محدده ومستقرة في الأذهان تنتقل إلى أجيال القارئين دون إدخال تعديل عليها، وأن له رؤية للواقع لا تنفى الاحتياج الشديد لرؤية الشباب الجديد لهذا الواقع نفسه، وإذا كان فن الأستاذ

[1] التفسير العصرى للقرآن

يتطور مع الزمن فإنه تطوير لا يتناول جوهر الموقف أو الرؤيا أو مكونات الحس والاستجابة.

وعليه فإنه إذا كان ثمة كتاب يكتبون وأعداد ضخمة من القراء يقرأون لهم فإن هذا الصخب غير قادر على نفى الصمت المخيم على واقع الثقافة المصرية.

إن الكتاب الشبان، أو جيل الستينيات هم حقيقة الأدب المصرى في الستينات، وهذه الكآبة المخيمة عليهم، وتلك المسافة الصامتة التي تفصلهم عن جمهورهم هى الحقيقة الأليمة البارزة في وقتنا هذا، وهي الحقيقة الجديرة بالنظر.

وأنا أعتقد – وقد أيدنى الأستاذ نجيب محفوظ في اعتقادى هذا – أن هذا الجيل – بدءا بحافظ رجب وانتهاءا بجار النبى الحلو – هم ثلة من شباب واضح الموهبة، رائع الإخلاص لواقعه وفنيته، وفي النماذج القليلة التي قدمها قد أثبت تفوقا وتجاوزا كبيرا للأجيال التي سبقته وتبشيرا بمستقبل كبير.

وأنا أعتقد أيضا أن هذا طبيعى، فهم أبناء حقيقيين لهذه الحقبة الفادحة الوقع على وجدان الناس المصريين، وكان يجب أن تكون استجابتها مرهفة وحادة، بل ومتطرفة وشاذة ومأساوية الايقاع.

إذن فماذا..؟ إن النظرة الأولى إلى الوضع الراهن تفجؤها شبكة بالغة التعقيد من العوالم المثبطة والمعوقة والهادمة التي تعدوا على فنية الكاتب، بل وتكاد تمتد إلى وجوده المادى ذاته، ولا يمكن أن تتناول هذه العوامل تناولا منطقيا مرتبا فإنها مشتبكة متراكبة متداخله يتولد واحداها من الآخر حتى لا تدرى البدء من الختام، لكنك مطالب بأن تقول وتفصل القول ما وسعك الإدراك حتى ترسم للواقع مخططا يقربه للفهم.

ولعله لا يجرى لهذا الجيل ذكر إلا وسبقت إلى ذهن السائل والمسئول تلك الغربة الموحشة التي يعيشها هذا الجيل منفيا في المقاهى مبعدا تمام عن كل مجالات الثقافة، عن كل المسئوليات والقدرة على التأثير.

وتحضرنى الآن مخافتهم الغريبة، وإخفاءهم هويتهم الحقيقية وانتحالهم الأسماء والمهن، هروبا بصفة الأديب من نظرات الزراية والتحقير، فإن مجتمعنا الآن يحتقر الأدب والأدباء، وإذا كان ثمة يتنسمون المجد الاجتماعي

كأدباء وكتاب فذلك بأنهم نجوم نجاح اجتماعى ومادى تحقق لهم من موهبة أخرى إلى جوار موهبة الأدب، ربما تكون موهبة إدارة الأعمال، وبيعهم — كالصيارفة — أسماءهم الحقيقية ببدائل زائفة لامعة تقدم على الشاشة الصغيرة والكبيرة وفي المذياع، ولا يكون هذا إلا مواصلة لسياسة تحقير الأدب بإفراغ الكتب من مضمونها وتحويلها إلي قصص جوفاء تقدم عبر وسائل الإعلام الحكومية.

وقد يعزى ذلك العصاب الذي يسيطر على هؤلاء الكتاب فى سلوكهم الحياتى اليومى وفي خلقهم الفنى إلى تلك الوحشة التى يدفعهم إليها ذلك التجاهل الاجتماعى، وأنا أعنى بالتجاهل الاجتماعى تجاهل الفئة التي تشكل البيئة الاجتماعية حول هؤلاء الشبان، تجاهل المسئولين والمتاجرين باسم الفكر والثقافة، وأعنى به أيضا ذلك الصمت الذي يواجههم به قراءهم الحقيقيين، وأقول أن هذا التجاهل الاجتماعي ليس السبب الوحيد الذي يعزى إليه ذلك العصاب الذي يطبع هؤلاء الكتاب بطابعه.

إنما ثمة حقيقة كامنة في داخلهم وهي أنهم تكوينات مصابة بالأنيميا الفكرية، متخلفة ثقافيا إلى حد كبير، وأنا لا أعنى بالثقافة تلك المعرفة الموسوعية الشمولية، ولا الكم الهائل من العلم بفرع من الفروع، إنما أعنى القدر من الاحاطة بالعالم في حاضره وماضيه والقدر من التدريب على الإحساس بالأشياء الجميلة، ذلك القدر الذي يؤهل الكاتب لتملك المنهج القريب من الصواب في الرؤية والحكم والتصور.

وربما هذا النقص لأن هؤلاء الكتاب — كلهم تقريبا — انحدروا من أصول اجتماعية فقيرة، ومعظمهم لم يتم دراسته الثانوية، فالبيئة الفقيرة المتخلفة ثقافيا، والدراسة الناقصة والغربة والمنفى جعلتهم هكذا.

وأنا أضيف أنه — في اعتبارى — في ظروف مجتمع كمجتمعنا تفرض فيه وجهة نظر واحدة وتجرم كل وجهة نظر مخالفة، بل يجرم كل اجتهاد حول وجهة النظر هذه بما يعد لها بالانتقاص أو الاضافة، في ظروف مجتمع كهذا يكون صعب على الفرد أن يُحصل من الكتب ثقافة ناضجة ومتوازنة.

إن الفكر في مجتمع كهذا يكون عصابيا سواء بالموافقة على القيم السائدة أو بالخروج عليها، إنه مجتمع لا يفكر بل يتشنج وهو يطبع العقليات الطامحة

للمعرفة بالعصاب ويجعل علاقتها بالمعرفة علاقة غير صحية ومتسمة دائما بالتطرف.

إذن فثمة عاملان أحدهما ذاتى والآخر اجتماعى طَبعا هذا الجيل بطابع عدم النضج الثقافي مما يعمق العصاب في السلوك الحياتى العادى وفي التعبير الفنى أيضا، لكننى أسرع فأوكد على الحساسية المرهفة والبعيدة الالهية التي تصلهم بنبض الحياة وصلا لا ينفصم.

فإذا فرضت على صور التعبير القيود ووضع عليها الحجر وحبست في القلوب أو في الأدراج فإن هذا يفرض عليها تشوهات الولادة العسرة، إن فنانى هذا الجيل يلدون ولادات عسرة ويعطوننا أطفالا مشوهين، وكم تأملت ملامح هذه المخلوقات (محمد مبروك – إبراهيم عبد العاطى)[1] وتخيلت كم كان يمكن أن تكون منا مواهب رائعة وإنتاج مكتمل.

لكن أسرع فأقول أن الحجر على التعبير ليس دائما إداريا، لقد أصبح مخافة منعقدة داخل القلب أغلقت مناطق كاملة في وعى الفنان وإحساسه، وأظلمت مناطق كاملة في آفاق رؤيته، وعطلت جزءا كبيرا من أدواته التعبيرية وأفقرت قاموسه فقرا شديدا وحددت مفرداته بشكل حاسم.(ثم ضيق منافذ النشر خلال عشرين عاما)، (إشاعة احساس عام بأن هذا ممنوع).

وإزاء هذا الفقر المدقع يوجد الإغراق في الإغراب والايغال في الرمزية حتى تتحول القصص أو القصائد إلى ألغاز.

لكنك أبدا لن تخطئ كمية الشعر المرهف والحساسية التى تصل الكلمة بالحياة وصلا لا ينفصم.

هؤلاء قوم يقفون ببسالة في وجه الزيف، يطرحون على الحياة الأسئلة الحقيقية ويناضلون من أجل الإجابات الحقيقية، يحملون عالمهم في قلوبهم، يدركون أوجاعه فهى أوجاعهم، ومأساته مأساتهم، لكنهم لا يعولون ولا يتعاطون المخدرات، إنما يقولون بصدق وجساره، لما إذن لا يقرأهم الناس.

إنهم تتوسط بينهم وبين الناس لغة مأزومة، ولعلها قضية بالغة الغرابة والتعقيد، تتولد من ظروف تفرض فيها على المجموعة البشرية فكرية واحدة لا يسمح

---

١ كاتبان من جيل الستينيات توقفا فيما بعد عن الكتابة وقد صدر لمحمد إبراهيم مبروك مجموعة قصصية هى عطشى لماء البحر.

بمخالفتها، ولا بالاجتهاد حولها ولما كانت هذه الفكرية خاوية وزائفة ومليئة بالخداع، ولا تخدم مصالح الناس، إنما هي ستار لتمارس مجموعة مختارة عمليات السرقة المنظمة وتثرى على حساب الجماهير.

وأما الجمهور فيدمن المخدرات الفكرية في قطاعات عريضة منه، ويقبل إقبالا شديدا – وخاصة الشباب منه – على لون من الفكر الدينى يزعم الاجتهاد فيه وإعادة فهمه على تقتضى أحدث منجزات العصر في العلم الفيزيقى والنظريات الاجتماعية.

ويقبل إقبالا شديدا على القصص اللطيف الذي يصوغ تجارب الغرام الشيقة، ويقدم الأبطال البرجوازيين الصغار القلقين الطموحين ومغامراتهم المثيرة للوصول إلى الحبيبه والمركز المحترم والحياة المرفهة.

ويقبل كذلك على الترجمات للقصص البوليسية وعلى ترجمات رديئة مشوهه ومختصرة للروايات العالمية.

ويقبل على الكتب الجنسية الصفراء الرديئة الرخيصة وعلى الأفلام الهابطة المستوى التي تعتمد على نجوم جماهيرين تخصصوا في تمثل أدوار الشخص المتفوق القادر على ضرب أعدائه والتفوق عليهم والظفر بحبيبته.

ويمكن القول أن هذه قد تكون سمات مجتمعات أخرى يروج فيها سوق هذه الأصناف التي أشرت إليها، قد يكون هذا حقا، لكنه بالنسبة لنا وفي وقتنا هذا تتضخم هذه السمات قد تكون أعراضا لمرض شديد.

ويمكن القول أن هذه قد تكون علامات هزال حضارى في شعب تخلف كثيرا عن ركب التطور وانتشرت فيه الأمية بدرجة كبيرة، وهو فقير عاجز عن دفع تكلفة الثقافة إذا كانت أثمان الكتب والمجلات تحكمها اعتبارات التجارة والربح والخسارة، قد يكون هذا حقا، لكنني أؤكد أن هذه العناصر المشار إليها ما كانت لتفعل في المجتمع هذا الفعل الفادح، وهي ما فعلته في وقت سبق وقتنا هذا بقليل.

إن مجتمعنا بلا شك يمر بفترة مرضية، وحتى الأسماء الكبيرة التي استقرت في الوجدان المصرى – توفيق الحكيم ويحى حقى ونجيب محفوظ – حتى هذه الأسماء فقدت كثيرا من قرائها، وهي كل يوم تزيف على الشاشة الكبيرة والصغيرة وفي الإذاعة حتى أنني أشك أن بدائل لها زائفة استقرت في وجدان

قطاعات عريضة من رواد السينما ومشاهدى التلفزيون ومستمعى الإذاعة.

لكن هؤلاء الكتاب مازالوا يكتبون، ظواهر مجيدة ممتدة إلينا من عصر سابق، يتحقق لها لون من الاستقلال والارتفاع عن ادخار اللحظة الحاضرة، بصائر من الماضي ترى حاضرنا هذا وتقول فيه مترفعة عن وزر المشاركة والفعل، وهي تقول بصدق وبسالة رغم ما يوضع في وجهها من عوائق قد تصل إلى الحجب الكامل.

والكتاب الشبان من جيل الستينيات[1] — يزدادون عنادا ونضجا وتمرسا بالناس وبالكتابة، يزدادون كل يوم رصانه ويخطون كل يوم ناحية الناس، والناس يسألون عنهم، فإنهم على طول هذا الوقت ما خانوا أمانة الكلمة ولا تلوثت أيديهم أو أفواهم بالسرقة أو الكذب، لقد أدوا امتحان الخلوص وصمدوا وبدءوا يعرفون كحملة حقيقيين لشعلة الثقافة المصرية.

وفي مجال السينما يبذل السينمائيون الشبان جهودا خارقة — في وجه السينما الخاصة — لكي يخلقوا السينما المصرية، وهم يحاربون من كبار المنتجين والمخرجين، ويعملون وسط تجاهل الجمهور، لكنهم يعملون ويسجلون نجاحات قليلة لكنها أكيده.

هذا ما أرى، قد يكون في الكثير منه مجافيا للحقيقة،ـــ لكنه على وجه القطع صادق في القليل منه، وهو على أى حال جهد لى ومبلغ رأى، ولندر عليه بيني وبينك حوارا حتى نصل في الأمر — إذا كان هذا يعنيك — إلى فهم أكثر نضجا.

وليس ثمة إحراج على الإطلاق في أن أحدثك عن روايتى الثانية التي لم تنشر حتى الآن، وعلى أن أقول لك أولا أنها قبلت في سلسلة روايات الهلال وقبضت ثمنها فعلا، ثم عادوا ورفضوا نشرها حينما تسلم صالح جودت مسئولية هذه السلسلة، تم عرضها على الهيئة العامة للكتاب وتُدولت بين لجان القراءة والجميع وافق عليها،وكتبتت عنها تقارير حارة لكنهم ردوها

---

١ كتب قاسم فى هامش الرسالة مجموعة اسماء تنتمى إلى جيل الستينيات: إبراهيم أصلان.بهاء طاهر.يحيى الطاهر.أحمد هاشم. محمد البساطي.جمال الغيطاني.مجيد طوبيا.محمد مبروك.جميل عطية.حافظ رجب.روميش.أمل دنقل.عفيفي مطر.وأضاف هذه الملاحظات حول كتاباتهم: كلهم يساريون وإن ابتدأوا بدايات مثالية دينية.كلهم يكتبون القصة القصيرة أو القصيدة الصغيرة.كلهم من أصول اجتماعية متواضعة جدا.إن اليسار كان قد سلم تسليما مخزيا.المعارضة غير واضحة. وغير ناضجة. تصورهم السياسي قاصر وغير ناضج.لا يوجد تقديس مضحك للشعب.

إليّ معتذرين...؟!!

وروايتى هذه الثانية قوبلت ببعض الفتور من أصدقاء لي، وتحمس لها آخرون مثل إدوار الخراط، لكنى أنا نفسي أحبها وأراه قريبة جدا من نفسى.

فقد ثرثرت فيها كثيرا عن نفسى بين يدى فتاة سويسرية تعرفت عليها مصادفة وصحبتها إلى سقارة وإلى القناطر وإلى قريتى البندره مركز السنطة غربية.

تكلمت عن نفسى بمرارة، كأنما كانت لدى رغبة قديمة مدفونة في أن أقول، أو كأنما كنت في فترة من حياتى أعانى فيها من الوحدة والغربة والفشل فكنت أنافح عن كياني بالثرثرة، كانت الثرثرة في هذه الرواية غزوة للصمت الهابط على من حولى والنابع من داخلى يكتسح وجوده كان لقائى مع هذه الفتاة لمدة ثلاثة أيام في لحظة خاصة من حياتى، ولقد ظلت مدة الرواية صامته تنصت لي، ثم قالت لى، لماذا لا تترك هذا البلد وتأتي معى إلى سويسرة، لكن كان قد بقى فيّ القدرة على أن أتشبث بمصر، وقلت لها أن ثمة في قريتى مرضى الاستسقاء كروشهم منتفخة مليئة بالماء يرشحها الطحال بلا انقطاع، شاحبون مفنجلوا العيون، وفي العصر يخرجون، يجلسون بجوار الحيطان نحيلوا الأطراف شاحبون، ينظرون إلى الناس الغادين والرائحين، وقلت لها إن فى روحى شيء مثل هذا، يثقلنى فأجلس مرتكنا لا أفعل شيئا، غير أننى أنظر إليهم، وهم يعرفون موقعى وحقدى، ويحسون ثقل نظراتى، سأظل هنا وهكذا فهذه بلدى وناسى.

أما روايتى الثالثة فقد تمت ما عدا فصلين وهي رواية من عشرين فصلا، ولا أدرى للآن ما هي على وجه التحديد، لكنها عن جماعة من الناس في كفر، تثقلهم الغربة والوحشة والنفى فيحاولون كسر هذه الحالة بالاحتفال، يحتفلون بشيخهم.

والكفور شيء غير القرى، وفيه أعراق من الناس لعل فيهم شيء بدوى أو ما يشبهه يجعلهم متمايزين بالسمات عن الفلاحين، ويجعلهم غرباء في كفورهم، منفيون في عرض الزمام مستقلون حتى بشيخهم، إذ ذاك تثقل عليهم الوحدة فيحتفلون كل آن، لا في مواعيد ثابتة ولا بطقوس ثابتة ولا بفرحة كبيرة.

هل بقى شيء في خطابك لم أتناوله بالرد...؟ إننى في انتظار أن تكتب لي، وأبلغ الدكتور تسيلر تحيتى وشكرى على البطاقة البريدية التي أرسلها لى، وأبلغ صبرى حافظ تحيتى وشوقى لرؤيته.

وختاما في انتظار ردك.

ولك تحيتى وإحترامى.

عبد الحكـــيم

٧٣/٧/٢٢

إلى عبدالمنعم قاسم

برلين مساء ٧٥/٢/٢٠
أخى منعم

قررت أن أجلس وأكتب لك ردا على الخطابات الثلاثة الأخيرة منك، فإنه لا يجدى تأخير الكتابة من يوم إلى يوم ترقباً لوقت أكون فيه صافى الذهن وعندى متسع من الوقت، ثم يأتى خطاب تال ويصبح ما أريد أن أقوله لك أكثر، وقوله أصعب.

قررت الليلة أن أكتب وأنا أقل ما أكون استعدادا للكتابة، أحس الأنفلونزا فى عظامى والمرض يأتينى (من حلق زلعة)كما تقول أمنا، أود لو أمسى عليها، لو أنها سمعت تحيتى هذه الأم الحبيبة. يسمون(الشوق) بالألمانى sehnsucht وهو تركيب قد يكون مؤداه البحث عن الرؤى أو ما يشبه ذلك، وأعتقد أننى أعيش حاليا هذه الحالة، ولا تستطيع أن تتصور أى رؤى أو صور تخطر لى، تذكرت مرة أننى وأنت كنا قادمين من المحلة الكبرى – على ما أذكر – على الدراجات، وملنا على المقهى فى القرشية، وجاء ولد لا أتذكر اسمه الآن وزعم أن بينه و بين مرفت علاقة وأرانا صوراً لها.أتذكر هذه اللحظة وأضحك ويعز علينا أننا يوما ما سوف نهرم ونجلس أنا وأنت وسط أولادنا، ربما صامتين، ولكن فى رؤوسنا صور من هذه الطفولة التى لم يعد يذكرها أو يحنو عليها إلا نحن الاثنين، أتعرف يا منعم أننا فى حالة الهرم هذه سوف نكون أكثر ما نكون احتياجا إلى أبينا وأمنا، كان أبونا أحيانا يشرد خياله ويقول لى إن أبيه (جدى) كان عظيما وأقول له بلاش كلام فارغ أنت أعظم من أى واحد فى الدنيا، ويقول لى أرجوك لا تقل هذا... أتعرف يا منعم أخاف أن يأتى يوم أحكى فيه لأمير عن أبينا ويقول لى بلاش كلام فارغ، لذلك أتمنى ألا أحتاج يوما لأن أحكى له وارجو أن تبقى أنت إلى جوارى حتى آخر لحظة فى حياتى لأحكى لك أنت الذى يعرف ولا أحكى لمن لا يعرف.

تغيم عيناى بالدموع وأنا أكتب لك هذا، لست ضعيفا، أنا إنسان قوى جدا، ولكن قلبى عامر بحب هذه الأشياء.....

المهم نعود الآن إلى خطاباتك، وإلى الخطاب الأول الذى وصلنى ١/٢٨، لست أدرى لماذا كنت إلى هذا الحد مترددا بخصوص هذا الخطاب، وأقول

لك بكل صدق إنه أسعدنى إلى أقصى حد، حتى أننى حكيت عنه لزينب، وكررت لها قولك أنك تخاف علىّ مثلما تخاف على إيزيس وقلت لها إننى أحسست بأبوة عبد المنعم رغم أنه يصغرنى (مش معقول بكام) وأذكر أننى خاطبتك كثيرا يا أخى الأكبر منى الذى أخافه واحترمه..... لكن القضية الآن هى فى الأسئلة الصعبة التى طرقتها فى خطابك.

ولنبدأ: لماذا سافرت إلى أوروبا...؟ إن هذا من أعقد الأسئلة التى واجهتنى، إنه نديمى وسامرى أو الجالس أمامى مبوزاً كل مساء أجلس فيه فى هذه الغرفة وحدى قارئا أو كاتبا أو شاردا فى عمل، وهو موضوع الحديث مع أى صديق هنا يبادلنى الود والتفاهم، و أريد أن أقول لك إننى وصلت إلى عشرات الأجوبة وكلها صحيحة، أو قد تكون كلها خاطئة، لكن الشىء المؤكد أننى لو رجع بى الزمان إلى الوراء حتى يوم شم النسيم من عاما ٧٣ حينما دعيت من الإسكندرية للقاهرة لمقابلة تسلر ودعانى ووافقت على الحضور، أقول لو حدث هذا ألف مرة فإننى فى كل مرة سوف أوافق رغم كل ما رأيته هنا من ظروف صعبة.... هذه هى القضية إذن تأخذها كما هى، ولننظر إلى الأمام ما دام الرجوع إلى الوراء لن يجدينا تغييرا. إلى متى أبقى هنا عندى لذلك إجابة بسيطة: حتى أنال الدكتوراه، لماذا هذا الأجل على وجه التحديد، لأنه قبل ذلك من السخف أن أعود، وبعد ذلك من غير المجدى أن أبقى، حينئذ سأعود إلى مصر وآخذ دورى ككاتب مؤمن بنفسه وبوطنه وبناسه.

أى جامعة أختار...؟ إجابة بسيطة إذا أعطتنى جامعة لندن منحة دراسية رحلت فورا، إذا لم تعطنى منحة دراسية درست هنا، لماذا هذا المقياس ؟لأننى تحيرت فى المفاضلة ولم اصل لحل حاسم فقررت أن اغلق المسالة على هذا الشكل حتى لا أغرق فى التردد وحتى لا يأتى وقت القرار واتخذه على غير أساس (أيا كان). الآن نتكلم عن زينب، قبل ذلك أريد أن أحكى لك حكاية فى كلمات، كنت فى عربة صديق، معنا فلسطينى قال إنه محتاج لعمل بأى شكل ولا يجد بأى حال فالبطالة تنتشر بشكل مفزع وأنا انقبض قلبى ونشفت فى مكانى من الخوف، رغم أن فى دفتر توفيرى ألفى مارك وعندى مصاريف فبراير ومنحة لمارس أى أننى مؤمن لمدة ستة شهور على الأقل، لماذا هذا الخوف إذن؟ من هذه الثغرة أنفذ للإجابة على خطابك الأخير.

تسأل عن المجتمع هنا أنت لم تجرب مجتمعا رأسماليا أبدا، أقول لك أن هذا مجتمع يحكمه الرعب، الرعب بلا أدنى مبالغة يتحكم فى الناس من أكبر مليونير إلى أصغر عاملا، ثمة مجهول متوحش خرافى يقلب المصائر ليلا ونهارا وكل يوم يفوت عليك يعتبر قاسيا، وليست نكتة أن فيلى برانت[1] كان لقيطا ثم مستشارا لألمانيا ثم تنشر له الكاريكاتيرات جالس فى الشمس بلا عمل.هذا الرعب يخلق فى ألمانيا حالة من التزام النظام تكاد تكون أعجوبة. المترو فى برلين بلا كمسارية على الإطلاق توجد يافطة تهدد بغرامة ٢٠ مارك لمن ليس معه تذكرة.هذا كل شئ، بعد ذلك يثبت الكمبيوتر أن نسبة المخالفة ضئيلة لا تستدعى إيجاد نظام للمراقبة، هذا الرعب من الأزمة من الإفلاس قادر على أن يخلق هتلرا جديدا، كان هتلر ابنا حقيقيا لهذا الشعب وكانوا يعبدونه، كان أكثرهم رعبا وجبنا ولا زالوا يقيمونه فى قلوبهم لولا ألمانيا الديمقراطية وروسيا....دعنا من التحليلات السياسية ربما نعود إليها فيما بعد. هذا الرعب على وجه التحديد هو الذى يجعلنى أشفق من حضور زينب والأولاد، أستطيع أن أغامر بنفسى لكن زينب والأولاد لا أستطيع تعريضهم لهذا ولا أستطيع أن أشرح لهم الظروف هنا لأنهم لن يصدقونى، زينب تتصورنى هنا نجما، وقد كنت كذلك لفترة أول مجيئى إلى هنا، وربما غرنى هذا قليلا رغم حرصى الشديد، لكنه انقضى وأصبحت طالبا يعمل ليعول دراسته والدراسة هنا تحتاج إلى الوقت كله لأنها منافسة غير عادلة بينى وبين ألمان يكتبون ويفكرون بلغتهم وأنا أكتب و أفكر بلغة تعلمتها منذ شهور.

هل أحب زينب؟ أو حكمت؟ وهل عرفت الحب أصلا..؟وهل هو موجود حقيقة..؟ أن ذكر الحمام قد يهجر زوجته ويتركها وحدها حتى تموت الأنثى، وقد تفعل الأنثى هذا نفسه، أى قانون يحكمهم.إن ذكاء المجتمع قد خلق الزواج، وبعض المجتمعات كانت أكثر تعلقا فأوجدت الطلاق، أخرى كانت أكثر تعنتا فرفضته.. بالنسبة لى.. زينب زوجتى وأم أولادى ولن أتخلى عن زينب ولا عن أولادى لحظة واحدة، إن طول تركى لهم كان رغم أنفى وسوف أعوضهم عنه، سأتيح لزينب أن تدرس وأن تنال حظا فى الحياة يعوضها، أتيح لأولادى أن يطيروا فى الدنيا ويتكلموا لغات كثيرة سأعوضهم حنانا ورعاية.

---

[1] المستشار الأسبق لألمانيا الغربية

فى خطابى لك قلت كلمة معناها تيجى تعمل إيه زينب دلوقتى وأنا على وشك أن أعرف سبيلا، الآن أقول لك إنها كانت كلمة لا تعنى شيئا وكنت أريد شطبها بعد كتابتها لكنى تركتها كنوع من المزاح السخيف ربما،وربما هذه الكلمة سببت لك قلقا كثيرا.

الخطوات العلمية، زينب أوراقها فى الجامعة، من المرجح ألا تقبل هذا الفصل (يبدأ من أبريل)لأن الجامعة تفكر جديا فى إلغاء تعلم اللغة الألمانية بها وتريد من الأجنبى أن يأتى من بلده جاهزا لغويا، إذن تواصل زينب دراسة اللغة فى مصر حتى يوليو تقريبا وتحضر إلى هنا تواصل اللغة (أغسطس- سبتمبر)، معى تمتحن فى ١٠/١٠ وتنتظم فى الدراسة،سوف أرسل لها التذكرة قريبا حتى يطمئن قلبها،التذكرة سيعطيها لى تسلر مقابل تذكرة رجوعى التى لم آخذها فى هذه الأثناء أى خلال أربعة أسابيع من الآن سأكون عرفت نتيجة جامعة لندن وإذا حصلت على المنحة كان سفر زينب إلى لندن مباشرة ولا احتياج لها إلى برلين.

وإذا لم أقبل أتت زينب هنا ودرسنا معا.. هل أنا واثق من الحياة هنا إلى هذا الحد..؟

لا طبعا، لكنى الآن أكثر قدرة على مواجهة المشاكل، أستطيع التعبير عن نفسى بالألمانية، نجحت فى امتحان اللغة، حصلت على تصريح بالعمل.. ومع هذا فاللحظات تتغلب علىّ، أحيانا أكون يائسا إلى الموت، وأحيانا مثل اليوم يكون عندى أمل فقد قال لى تسلر أنه سوف يحاول أن يبحث لى عن عمل فى شركة، إن ذلك معناه أن يكون معى فى آخر الشهر ألف مارك متوفرة، وربما يتصل بى تسلر بعد يومين ليقول آسف عندئذ يحل بى اليأس..... لكن زينب على أى حال قادمة وسنواجه الحياة معاً هنا أو فى لندن ولن أعود إلا ومعى الدكتوراة[1].

---

١ كان موضوع الرسالة (الأدب المصرى تحت حكم عبد الناصر:دراسة شاملة لأدباء الستينيات). قدمها قاسم لمعهد الدراسات الإسلامية فى برلين الغربية تحت إشراف البروفيسور فريتس شتبت.وتناول فيها كما قال أكثر من مرة:«الظروف الاجتماعية والسياسة لجيل الستينيات. هذا الجيل الذى عشته وأحببت كتابه واحدا واحدا. كل منهم عالم خاص يأسرنى حتى الافتتان وقد كان شوق حياتى أن أضع عن كتاب الجيل الحقائق فى موضعها. وأنا هنا فى برلين لإنجاز هذا الكتاب». ولكن قاسم لم يستكمل رسالته لأسباب يوضحها فى أحد حواراته: « العمل الأكاديمى عمل يستغرق الحياة كلها ويتطلب جهد الإنسان كله.كذلك بالضبط يفعل الفن. فالتوفيق بينهما فى حياة واحدة لإنسان واحد شئ بالغ الصعوبة. وتلك هى مشكلتى طول مدة دراستى هنا. ما أكاد أمضى فيها شوطا حتى يستوقفنى شوقى لفنى فأعود للكتابة حتى طال بى الوقت ولم انتهى بعد». وهناك جزء كبير من أوراق الرسالة غير المكتملة فى الأوراق الشخصية التى تركها قاسم.

والأولاد.. كتبت لى زينب ونجيب أنهم عقب وصول خطابى الذى اقترحت فيه ترك الأولاد لمدة، تداولوا وتناقشوا، ثم وصلهم خطابى أؤكد أننى تراجعت وسوف آخذ الأولاد واصلوا المناقشة أيضاً وأخيراً قرّ قرارهم على أن يبقى أمير فى مصر، فهو فى سن صغيرة، ومعتاد على عمتك نفيسة وعمك عبد الحليم (الذى يؤيد أفكارى ١٠٠٪) وأنا أرى أن ذلك معقول،فإن إيزيس كبرت، أما أمير فيمكنه أن يبقى سنة أخرى، وهو يعوض عمك نفسيا عن وحدته وعمتك فيما أعتقد ستبقى معه دائما، فليبق أمير بينهم لمدة عام ثم يلحق بنا بعد أن تستقر أمورنا هنا أو فى لندن.... سؤال صغير مؤلم، كم ستتعذب ماما بعد إيزيس..؟ أجد الخطة معقولة، لكنى أشم فيها رائحة النكاية بماما..... سيدى هذا هو عالمنا.. لم نصنعه بأيدينا، نحتمل آثامه بصبر.

الآن حكمت.. إنك تعرف علاقتى بها جملة وتفصيلا، ولا إحتياج لك لأن تسأل هل أحبها أو لا، ولا احتياج لى لأن أملأ الخطاب تحليلات، فقط أقول لك إننى حينما كتبت أقول لها إننى قادم، وعزمتك فى هذه المناسبة على ويسكى أرسلت لى فرحانة تقول إنها فى انتظارى، وأنا من هنا صممت فعلا على أن أقضى أجازة الدراسة فبراير ومارس فى مصر، كان هذا تصميما لا راد له، لكن ناجى نجيب سافر وعاد يحكى عن حملة اعتقالات تشمل المعتقلين السابقين، وكان يعنى هذا أن ألغى مشروع سفرى نهائياً، أرسلت لحكمت ثلاثة خطابات لكنها لم تكتب لى على الإطلاق، هل هى مريضة، هل ماتت، هل تحاول نسيانى، لا أعرف أى شئ، أفكر أن أكتب لها وأقول ربما تكون تحاول النسيان فلا داعى لإيلامها، أحيانا يخطر لى أنها مريضة، أو أنها ماتت، أتألم آلما لا يوصف..وأنا فى حالة من الجمود لا أدرى كيف أخرج منها، وربما حينما أقابلك فى موسكو نجد حلاً لأشياء كثيرة.

ماما.. هى الآن فى شقتى مع سامية، كتبت لهما أوصيهما بأن يعيشا كما يحبا بلا أى قيود وأن يطلبا منى ما يريدان، وأعتقد يا منعم أن الأيام القادمة ستكون أحسن لنا جميعا، وإذا ساءت فيكفى أننا متحالفان على سوئها وخيرها.

كذلك عبد الله، وكذلك كل الهموم التى تجدها فى الغربة كبيرة حينما تعود ستجدها أقل حجماً وأيسر مواجهة. وأخيراً هناك بقية أخيرة، لقد استقلت

من عملى فى الهيئة، رفض المدير الجديد أجازتى فقدمت استقالتى حتى لا أعطيه الفرصة لفصلى، حيث يحق للمستقيل أن يعود إلى عمله فيما بعد، لكن مهما كان الأمر فقد أحزننى هذا، هى إحدى ارتباطاتى بمصر، ربما أقلها قيمة لكنه كان رباطا ما، كنت أحس طول الوقت أننى موظف فى أجازة، الآن أنا طالب فى الجامعة فقط وعلىّ أن أحصل على شهادتى لأجد بعد ذلك عملا أعيش منه.

أيا ما كان الأمر فقد تقدمت بالاستقالة وحددتك لقبض مكافأتى، سوف تجدها جاهزة عند عودتك وأنا أهديها لك، اعتبرها ردا جزئياً لديونك عندى، ولعلها تيسر لك بعض أمر زواجك، فإن حالتك المالية كما شرحتها تضحكنى (يا سيادة المقدم) لكن كله محصل بعضه، المهم أقول لك إن ترك شقة الإسكندرية حلم يستحيل تحقيقه، وحذار من محاولته، ستدفع خلوا وإيجارا أعلى وسوف تعيش عبدا لفكرة لا تستحق كل هذا، ومن رأيى أن تترك العفش الزائد فى القاهرة، فى الغرفة التى أضع فيها عفشى فى شقتى أو فى أى مكان آخر وتحتفظ بشقة الإسكندرية، فالأخبار من مصر تحكى أرقاماً خيالية عن السكن وأسعاره، وحينما تعود ستجد أن مرتبك انخفض للنصف من جراء التضخم، حذار من محاولة تدفع ثمنها طول عمرك، تبقى فى شقتك، و ماما وسامية فى مصر، وسوف تجد سامية عملا على مهلها، سوف أساعد ماما قريبا وستكون الأشياء طيبة، وإذا نقلت إلى مصر، عش فى شقتى مع ماما حتى تجد لنفسك شقة على راحتك بلا إرهاق، واحتفظ بشقة الإسكندرية أيضاً لأجازتنا، أما عودتى فهى بعد سنين ستصير فيها الأحوال فى أى إتجاه كان وبالمناسبة فإننى مُصر على أن أقابلك فى موسكو، بعد ذلك لن أراك لسنين، ثم أن رحلة موسكو من هنا ٥أيام سفر و إقامة كاملة ثلاث وجبات تتكلف ٤٠٠مارك، أيا كانت حالتى تسوء أقابلك فى الموعد وأبرق لك قبلها بمدة.قابلت هناصاحب مكتب سياحة مصرى واتفقت معه وسوف ييسر لى الأمر، كل ما أرجوه أن تأتينى أخبار طيبة من لندن قريبا، وأقصد أن ينتهى موضوع المنحة دون اضطرارى للسفر إلى لندن وهذا ما يحاوله الآن الدكتور عبد الحليم وصبرى حافظ الذى أحس بخطئه معى فى لندن ويحاول جاهداً أن يكفر عنه وبمناسبة الناس الذين يحاولون الإساءة لى فى مصر هذا كلام لا

يأبه الإنسان له حقيقة، وفيما يتعلق بنسيانى فى مصر ذلك متعلق بى هل أكتب أم لا، إننى أكتب، وسوف أحاول نشر الكتب التى عندى فى لبنان قريبا.هذا أهم من أى شئ حتى من وجودى فى القاهرة، بل ربما غيابى فى هذه الحالة أحسن، ومثال ذلك الطيب صالح.

هل يكفى ما كتبت لك الآن، لا أعتقد ذلك، ولهذا سوف أسافر لموسكو مهما كان الحال، وإنى لأرجو أن أستطيع إحضار النجف معى كما سبق أن وعدت، أما العربة، فسوف تتأخر ولكننى سوف أبر بوعدى وإن تأخرت فى ذلك.

المهم احكى لى عن تجربتك فى روسيا الآن، هل تتكلم الروسية (كأحد أبنائها) كما يقولون، إننى أتكلم ألمانى بطريقة تضحك الطوب، ثم ما أخبار يفجينيا؟ دائما أنسى أسألك وأنت تنسى أن تحكى لى...ثم النساء الأخريات... أنا يا مبارك هلكت نفسى عشرات، لكن من الشهر القادم سأقيم فى بيت طلبة.. لا تفكر فى العنوان أرجوك، أكتب لى على هذا العنوان حتى أرسل لك الآخر وسوف تحول لى الخطابات.

أخيرا كلمة عن عمك عبد الحليم أرسلت له جاكيت تريكو وشرابا وقميصا أرجو أن تلائمه، أشعر نحوه بحب كبير، إنه جرحنا كثيرا وآلمنا كثيرا ومشى طويلا وراء المرحومة بعيدا عن أهله، لكننى الآن أسامحه، وهو يعلم بما فعل وهو يحاول الآن أن يتأكد أننا نسيناه، فى وحدته لم يجد غيرنا، وحينما يعود الآن لا يجد إلا ابتسامة أمير ويوما قال لى: أنا أعطى الخادمة جنيها ولا أعطيه لك،، لكننى بكل صدق أنسى هذا، إننى أحبه الآن من قلبى، كنت أريد منه أن يعرف من الأول أننا أكثر قدرة وعظمة من أولاد عطية، لكنه كان مرعوبا لم يدرك إلا بعد أن تخلص من البلاوى التى كانت تحول يومه إلى بؤس... الآن يعود ليجد أمير، لا جثتين هامدتين مرتديتين السواد... أرجوك حينما تعود أن ترعاه تماما وتتصل به دائما وتزوره دائما.

أخى منعم، قلت لك فى أول الخطاب أن الزمن ينزل علىّ (من حلق زلعة) الآن حقا لا أستطيع أن أتحرك، والساعة الآن منتصف الليل وعلىّ غداً أن أنهى أوراق مكتب العمل وهى مشكلة فى حد ذاتها، وعندى موعد فى المساء مع صديق، وسوف أذهب إلى الشرقية لمقابلة سيلا.

لكننى سعيد أننى كتبت لك وأنه كلما اتسعت فجوة الغربة بيننا عبرناها. بأن نتكلم ونتبادل الهموم، هنا ناس مصريون منذ ثمانية عشر عاما يريدون بشق النفس أن يعودوا، ربما لن يكونوا فى مصر أحسن حالا، الغربة هنا تقتلهم، لكن الإنسان قادر على أن يهزم هذه الغربة أحيانا بان يمارس الصدق، وإن كان ذلك مشروط يبادله الإنسان هذا الصدق، عند ذلك يحس أن صدقه ليس مهانة إنما كبرياء، لقد قطعنا فى الحياة شوطا، عرفنا أشياء صغيرة لكنها جديرة بأن نحافظ عليها، إنها ثمن قليل للأيام الطوال، لكنه يكفينا على أية حال.. سلام وإلى اللقاء.

عبد الحكيم

برلين مساء السبت ٧٦/١٠/١٦
أخى الحبيب منعم

أجلس إلى مكتبى لأكتب لك، أعانى حالة من الإحباط، مع أننى أجلت الإجابة على خطابك مدة حتى أرى نتيجة مقابلتى مع البروفيسور لترفع معنوياتى وأحكيها لك، وهذه المقابلة قد تمت وكانت ناجحة، بالرغم من ذلك مازلت محبطا كئيبا، وفي أشباه هذه الحالات يناقش الإنسان حياته كلها ويعيد تقييمها، وعلى ذلك فإنا أتساءل، هل كل ما أقدمت عليه كان صائبا، هل أقلع عن كل شيء وأعود، وتحضرنى الإجابة فورا يجب أن أبقى وأن أنهى عملى، إن الذى أقدمت عليه كان ضروريا جدا، بل إننى في حياتى كلها لم أقدم على عمل كبير على أساس انتهازى أو أناننى أو غير إنسانى، ولذلك لا يعتصرنى الندم إلا على أشياء صغيرة وهفوات غير أساسية، لماذا إذن هذا الإحباط، أعتقد أنه الخوف، لقد بحثت لك مرة عن هذا عندما كنت أسكن وحدى فى بريتز كتبت لك عن هذا الخوف الذي يعتصر قلب الإنسان ولا يعرف الإنسان له تأنى (أرجو أن تكون محتفظا بكل خطاباتى) وحينما أتأمل المسألة أتصورها ناجمة عن الاغتراب العميق عن العالم الذي نعيش فيه، اغتراب يشعر الإنسان بالرعب من الوحدة، ولست أدرى أى كبرياء هائل وعزيمة صلبه تجعل الإنسان كل هذا العمر منطوى على كل هذا الرفض للمثل السائدة، أعتقد أننى استمد قوتى من أننى أرتبط بالحياة ذاتها، الحياة بمعناها البيولوجى مجردة عن الملابسات الاجتماعية (هل تفهمني؟) أفرح بالطعام وبالخمر والعلاقة مع المرأة بالقطار الذى يأخذنى إلى الجامعة صباحا عبر الغابة.. ربما هذا أننى على أى حال من جُب هذا الهبوط أعرف أن ساعات جميلة قادمة أتصورها وأفرح بها، الآن أرد على خطابك الذي كتبته لي فى ٧٦/٩/١٧ وأقول لك قبل كل شيء إننى دائما أتصور أن خطاباتى تضيع في الطريق لأن خطاباتك تأتى وليس فيها أدنى إشارة لما قلت لذلك سأرقم خطاباتى بدءا من هذا فأعتبره رقم (١) وعليك مثلا أن ترقم خطاباتك اعتبارا من أول خطاب تكتبه بعد هذا حتى أتخلص من هذا الإحساس واعتبارا بأنني أطلب منك أشياء في كل خطاب وأكررها فى خطابات تالية وأبقى قلقا لأننى

لم أتلق منك ردا على طلبى.

حينما أتصور المشاكل التي نجمت عن نقلك للقاهرة أتمنى لو أنه لم يتم، لكن ما علينا، النقود سوف أرسلها لك مع زوج ابنة مستر أوزفالد ولا يوجد شخص غيره مسافر وهو لن يسافر إلا في مارس وصدقنى ليس بيدي حيلة غير هذا، وسوف أرسل لك معه ٥٠٠ مارك وصدقنى أيضا أنني لا أستطيع غير هذا، إننى آمل خيرا في عام ١٩٧٧، ربما يكون صدر حكم لصالحنا فى إقامة زينب وربما يعطوها تصريح بالعمل فإنا للآن الوحيد الذى أعمل في الإجازات ولا يصرح للأجنبى الطالب بالعمل أكثر من اثنى عشر أسبوعا في العام كله، أى إننا جميعا نعيش الشهر من عمل أسبوع واحد، لكننى عندى أمل شديد في حدوث شيء طيب، في مقابلتى للبروفيسور سلمته مخطط تفصيلى بكتابى الذي سأقدمه للدكتوراه وقد وافق عليه وبدأنا نبحث عن جهة تعطينى منحة لإنجاز الكتاب ليس هذا سهلا ولكننى أيضا ملىء بالأمل.. وأقول لك إننى مستعد للكتابة لعمك أتعهد بإرسال المبلغ الذي قلت لك عليه مع أوزفالد له شخصيا إذا وافقت أنت كتبت له فورا.

وأتصور أنك لو دخلت في موضوع شقته بمدخل آخر ربما كان هذا أحسن، أرى أن توافق على الإقامة معه في شقته حتى تنشأ بينك وبينه وبين نجوى وبينه وبين مهند وبينه علاقة إنسانية عندئذ تحل المشاكل، إن الشقة خسارة وهي ضائعة على الأرض لا محالة، لا أقول هذا من أجل الفلوس سأرسلها لك على أى حال وكنت من نفسى سوف أرسلها ولكن أقول إنه كان جافا جدا مع زينب في الأول ولما ارتبط بها وبأمير أصبح يبكى لبعدهم، إنه رجل كبير وعلى عتبة الموت وتحريك أى شيء من مكانه بالنسبة له مفزع ومبشر بالموت، ثم شقة إسكندرية ستبقى على كل حال لنا جميعا والعفش لن يسوس كل مدة تسافروا وتنضفوه وتقضوا إجازة ترتاحوا فيها وتبقى قريب من ماما وتيجى عندك بالنهار وفي المساء تعود لميت عقبه. وسوف أرسل أيضا شسوار الشعر مع أورفالد هذا أكيد هذا الخبر لأم مهند مع تحياتى، وإذا أعاننا الله أرسلت لها أيضا زجاجة بارفان جميلة وأرسل لك أيضا قمصان أكبر حجما من التي تلفت وأرجو أن تعطيها لعبد الله إذا كانت لا تصلح لك بتاتا.. وهذا مع سلام وتحيات وشكر شديد على خطابه، ضحكت وأنا أقرأه حتى

دمعت، أسلوبه جميل جدا، ثم ركبنى الحزن، يا له من عالم بشع، إن ما يعطى العالم هنا هذا التفوق الكبير أن فيه قدر المعقولية، شكرا لعبد الله على خطابه، لن أرد عليه أكتفى بهذه التحية له هنا، وأحب أن أقول عن العالم هنا من زاوية إيزيس، لقد أتت إيزيس من القاهرة وعلى جسمها وروحها بصمات تجربتها هناك، وحدها غريبة بين هيثم وكوكو، وكانت الأيام الأولى لها هنا بشعة أيضا من عراكى المستمر مع زينب. ذهبت هنالك للحضانة، لا تعرف كلمة من لغة الأطفال غريبة تمام وموضوع لشقاوتهم وعدوانيتهم لم تبك ولم ترفض مرة الذهاب صامته ساهمة تماماً، الآن زال هذا وأصبحت طفلة طبيعية تماما تعرف اللغة وتلعب لكن بقى لها ذلك الخوف العميق من العنف البدنى والدماثة.. أن ينام رجل مع إمرأة وينجبا طفلا يرى كل هذا.. إن هذا لبشع.

وأما المعلم أمير فلم يتعرض لهذا كله، تكوينه النفسى أكثر بساطه، لكنه حساس ومنظم، وكلاهما فى صحة وسلامى وسلامهما إلى مهند، أرجو أن يكونوا أحبابا، إن إيزيس متعلقة بك تعلق غير عادى ولا تنس أي تفصيلة من حياتك من يومين تأملت رأسى وقالت شعرك خفيف زى منعم. والآن إلى العمل:

١ - الاسم كاملا
٢ – محل الميلاد
٣ – محل الميلاد ومتى رحلوا عنه
٤ – مهنة الوالد والوالدة
٥ - شكل المنزل
٦ – هل كان به أقارب آخرون
٧ - أهم حوادث الطفولة
٨ – المدرسة الابتدائية
٩ - أهم حوادث مرحلة ابتدائي
١٠ - المرحلة الإعدادية وأهم حوادثها
١١ – قراءة هذه الرحلة وأهم الكتاب تأثيرا
١٢ – المدرسة الثانوية أهم حوادث هذه المرحلة
١٣ – أهم قراءات هذه الرحلة وأهم الكتاب تأثيرا

١٤ – كتابات هذه المرحلة وأشكالها – المجموعات الأدبية أو الثقافية التي تم الانضمام إليها في هذه المرحلة أو مرحلة الجامعة ومكان لقائها

١٥ – الانتماء السياسي في المرحلة الثانوية فكريا أو تنظيميا ومرحلة الجامعة

١٦ – ما هي الدراسة الجامعية أهم حوادث هذه المرحلة

١٧ – أهم قراءات مرحلة الجامعة وأكثر الكتاب تأثيرا

١٨ – العمل والدخل حتى عام ١٩٧٠ ومحل الإقامة الدائم الآن

١٩ – قائمة بكل الأعمال المنشورة (في كتب أو صحف ومجلات) وأماكن نشرها وتواريخ نشرها مع تاريخ الانتهاء من كتابتها.

ما أطلبه منك يا أخي توجيه هذه الأسئلة التسعة عشرة إلى هؤلاء الكتاب الأربعة عشرة:(إبراهيم أصلان،أمل دنقل،بهاء طاهر،حافظ رجب،صنع الله إبراهيم، جمال الغيطاني،هاشم الشريف،عبد الرحمن الأبنودي،عفيفي مطر،محمد البساطي،يحي الطاهر عبد الله، محمد الصادق روميش،ادوار الخراط،سليمان فياض) ويلزم أن تكون الإجابة إسهابا – طبعا لا بأس بذلك – لكن يكفي عن كل سؤال سطر أو سطرين والمقصود بكلمة أهم الحوادث في الأسئلة هي الحوادث الشخصية أو العامة التي تجرى في البلد – إنني سأظل قلقا حتى يصلنى هذا الاستفتاء، وأنا أعرف أنه عمل صعب جدا وأرجوك أن تقوم به لأجلى ولأجل العمل الذي اوليتني بكل مساعده حتى أنجزه.

بدأت الدراسة ويمكنك الكتابة لي على المعهد.

عبد الحكيم

برلين الغربية مساء الاثنين ١٠/٨/١٩٨١
أخى الحبيب منعم

أجلس الآن وحدى لأحتفل بعيد ميلادك الأربعين.وإذا كنت قد تعجلت الاحتفال قبل الموعد، فذلك حتى تكون كلماتى معك فى يوم عيدك.فإذا وصلتك وقرأتها، فاعلم أن الكلمات إنما هى رموز على الأشياء وليست الأشياء ذاتها، تلك هى العمر، هى الحياة ذاتها بكل روعتها المصنوعة من حلو هذه الحياة ومرها.

تحضرنى الآن مشاهد هذا العمر فى ومضة خاطفة لكنها لا نهائية العمق والشسوع.وإذ أحاول أن أستبقيها وأن أتاملها أفاجأ بجدتها، كأننى فى هذا المرة أراها لأول مرة. ليكن احتفالى بعيدك أن احكى لك سطوراً قليلة عن هذا العمر فى محاولة لمعرفة أنفسنا، فما العمر إذا لم يكن رحلة طويلة هادفة إلى التعرف على الذات.

عندما جئت أنت إلى الدنيا كنت أنا قد بلغت السابعة أو قاربتها. ولازلت أذكر تماما ذلك الإحساس الذى ساد وقد قاربت أمى موعد ولادتها. قيل أنها ربما تضع مولودها هنا ولا تسافر إلى دار أبيها ولازلت أذكر عينى أبينا وفيها الفرحة والأمل أن تلد امرأته فى داره، وقد كان. ولأول مرة رأيت عيونهما تتقابل فى ود وفى حب. وكنت أنت الذى أتيت إلى الدنيا بهذا معك.

وأذكر خالتى خيرية وقد جاءت سمينة لاهثة- رحمها الله- تحمل الود للوالدة. وأذكر أنها غضبت أنك لم تسمّ عبدالله. وقد ظلت مدة طويلة تعرفك بعبدالله وترفض أى تسمية أخرى حتى جاء أخونا الأصغر عبد الله.

أذكر وأنا فى ميت غمر فى المدرسة أنك جئت مع أمنا وأتذكر شعورى بفخر وحب لا أستطيع بحكم السن والتجارب التى ورائى أن أشعر بهما تجاه أمير. وأذكر أننى ظللت أياما طويلة أصمم فى عربة صغيرة لها يد تدفع بها لكى آخذك من ميت غمر معى. ثم بدأت أدربك على اللعب بها واسخط عليك إذا أخطأت....

و أتذكر شيئا عجيبا. أنك كنت فى طفولتك تلبس طاقية من الصوف مثل أهل البلد. وأنا فى حياتى لم ألبس سوى الطاقية (بحيطة) من القماش. وكان

الأعمام يقولون (الولد ده قواسمى مية المية) وأنا كنت أدرك ما يرمون إليه. فإنهم لم يحبوا فىّ شبهى بأخوالى وخاصة فى الاندفاع والعاطفية الشديدة، ثم الخيال الخصب والثرثرة. وأتذكر أننى كنت أفرح بهذا. أن هذا أخى.

وإذ بدأت تذهب للمدرسة كان كل جهدى أن أجنبك ما آلمنى وأنا أساعدك على أن تنجح فيما لم أنجح فيه، ولعلك تذكر هذه الرحلة، لكن الشىء الذى يستلفت نظرى حتى الآن هو أنك رغم اختلافك عنى فى كل شىء أبيت فهما لكل ما أنا مختلف فيه عنك، وعلى الأخص لنقط ضعفى وفشلى وتخبطى. لا زلت أذكر زياراتك لى فى شبرا الخيمة. البطانية والبنطلون والفنلة الصوف والتفاحة.. يا أيها الناس، إن الإنسان يكون رائعا إذا حاول أن يكون إنسانا.

ها أنت قد بلغت الأربعين بعد عمر طويل حافل. ويومٍ وصلت أنا لهذا السن فزعت. كنت وحدى فى برلين الغربية ولا أعرف أحداً. اتصلت بمصرى فى برلين الشرقية اسمه دكتور مصطفى هيكل. وهو فى الحقيقة إنسان لا يطاق، لكننى لم أعرف غيره. قلت له أننى محتاج إليك وآتىً. قلت له اليوم عيدى الأربعين وسأحتفل به معك على حسابى، فقط انصت إلىّ إذ أثرثر ولا تناقضنى ثم انس ذلك بعد أن تمضى. لكنه كان طيبا ودمثا.

أتدرى يا منعم.. أننى لم يكن لى حق فى فزعى من بلوغ سن الأربعين. إن تلك مرحلة رائعة، أقول هذا من كل قلبى، ولو خيرت لرفضت تماما أن أبقى فى سن الثلاثين. أن الأربعين تجربة فريدة، و السعادة العميقة التى تتحقق ببلوغ هذه السن لا يتيحها للإنسان شىء فى العالم إلا أن يتقدم فى العمر حتى يصل إلى هذه السن.

أتذكر تلك الليلة التى خرجت فيها مع النفرة التى كانت فى دار عمك محيى الدين – رحمه الله هذا الرجل الذى كان قلبه من ذهب – تذكر البنت التى قالت لك: "آه يا حلاوة الرجالة" وكنا أنا وأنت ننام على السرير الصدئ فى (المقعد) تحكى وتخبط فى السرير والمرتبة وأنا أكد أجن أن هذا الحظ لم يكن لى... تلك كانت أياما.

لكننى حينما أقرنها إلى الأيام الحالية بما فيها من ملذات الأبوة، والمسئولية وأن الواحد يخدم وطنه وأن الواحد أصبح جزءا مهما من هذا العالم. لا.. إن اليوم أفضل ألف مرة وأنا أعيشه بعمق كما عشت الذى قبله ومن هذا يكون

للماضى معنى وللمستقبل أيضاً معنى.

من هذا المنطلق أفرح بك كما فرحت بك طفلا وصبيا وشابا. وإننى أتطلع إلى الأيام القادمة. ياه.. إنها عمر طويل آخر. سنعيشه بالطول وبالعرض نحرث فى أرض هذه الدنيا ونضع فيها ما فى وسعنا من خصب.. وفى تصورى إنه كثير.

وإذا جاء اليوم فسوف نستقبله فى فرح. فقد تركنا وراءنا من بعدنا من فيهم الخير والبركة.هكذا فعل الذين من قبلنا.. رحلة رائعة البدء والختام.

سلام لك يا منعم فى عيدك.. سلامى لك وحبى إلى الأبد.

عبد الحكيم

برلين الغربية صباح ١٩٨١/١٢/٨
أخى منعم

أكتب لك ومازالت ذكريات مكالمة أمس فى ذهنى. كانت مكالمة لطيفة فعلا، وهى إمكانية رائعة أن يكون بالوسع الاتصال عبر هذه المسافات الطويلة. وهذه الإمكانية بالذات هى التى تستفرغ رغبة الواحد فى كتابة خطابات، تلك الكتابة تبدو غير معقولة إذا كان بوسعى أن أرفع السماعة فأجدك على الخط أكلمك أنت ونجوى ومهند ومنار.ولا سبيل أبدا لأن تعود الكتابة بيننا لما كانت عليه.غير أنه تأتى علىَّ لحظات أحس فيها برغبتى، ليس فى الكلام معك، بل على وجه التحديد فى الكتابة لك.لكن هذه اللحظات أقل بكثير من قبل ذلك،وسوف ادع الأمور لظروفها.

أبارك لك على الترقية، فرحت بها جدا، وأنت تستأهلها وتستأهل أكبر منها بكثير، وكما قلت لك فى التليفون اعتبر هذه الترقية اجمل هدية تقدم لى فى عيد ميلادى الثامن والأربعين ألف مبروك وتمنياتى المخلصة الطيبة لك.

تدريجيا يزداد تصميمى على زيارة مصر هذا الصيف، وتدريجيا تزداد فرحتى بهذه الزيارة.أمس خرجنا أنا وزينب واشترينا طقم ملاعق وساعة حائط للشقة.للمرة الأولى يكون عندنا ملاعق (متشابهة)وليست كل واحدة من شكل.وإنى لأحلم بأن أقضى أجازتى فى شقتى فى هدوء. وأنى لأرجوك أن تجرى فيها التحسينات الضرورية ليكون فى الوسع سكنها لأن عودتنا النهائية لمصر وشيكة ومرتبطة بقبول الأولاد فى المدرسة وانتهاء دراستى الوشيكة.

وهذه التحسينات أتصورها على الوجه الآتى: - انظر الورقة الملحقة التى كتبتها مستقلة لتحتفظ بها منفصلة عن خطابى، إننى فى حالة قدومى سوف أصل القاهرة الأسبوع الثالث من يونيو وأرجع لألمانيا الأسبوع الثانى من أغسطس.حوالى سبعة أسابيع.ولا أريد ضجيجا.بمعنى أننا لن ننبىء أحداسواك وسوى نجيب بموعد حضورنا حتى لا نزعج الناس فى البلد وغيرها، فيحضرون لمقابلتنا أو شئ من هذا القبيل، وسنبقى فى شقتنا حتى عودتنا مع بضعة أيام فى الإسكندرية وبضعة أيام فى البلد.

سأكتب قريبا لعبد الله.. أبلغه هذا مع تحياتى المخلصة،وبلغ ماما فرحتى بالأمل فى أن أراها قريبا.

تحياتى لكم جميعا
عبد الحكيم

برلين الغربية صباح الأربع ١٩٨٤/١١/٧
أخى الحبيب منعم

لم ننسكم لحظة واحدة منذ فارقناكم.ولم أحجم عن الكتابة نسيانا.. إنما خجلا.. أى والله يا أخى العزيز !أقول فى نفسى: ألا نعتق هذا المخلوق لوجه الله ونتركه فى حاله قليلا ليرى فى أمر نفسه وأمر عياله.. وهكذا منعت نفسى من الكتابة طول الوقت بالعافية.. وإذ وصلنى اليوم خطابك أدرك أننى كنت على حق.. وأننى كسبت فيك ثوابا أننى تركتك فى حالك هذه المدة.. إنك على أى حال لم تكن وحدك.. كان معك الأخ العزيز عبد الله.. وقد قام بالواجب و أكثر.. وعليه فإننى ادعو الله.. أن يخليك لنا.. ويخلينا لك.. ويدينا الصحة لحد ما نجيب داغك... يا أخانا الحبيب!

نحن هنا آذاننا على التليفون من يوم وصولنا فى انتظار مكالمة من عبد الله من العراق وللآن لم نسمع عنه وكان قبل ذلك يطلبنا فى الأسبوع أكثر من مرتين أحيانا. لكننى لا أرجع ذلك إلى صعوبات عند عبد الله بقدر ما أتصور أنه خجلان من الاتصال. فهو يظن دائما أننا ننقم على تصرفاته ويتوقع لو اتصل أن أبدأ فى معاتبته على أشياء حصلت منه فى القاهرة. وأنا سأكتب له الآن – طالما علمت أنه سافر – وأحثه على الاتصال بى وتطمينى فإذا سمعت منه خبرا كتبت لك. أيا ما كان الأمر والمشاكل التى حصلت فى القاهرة فإننى أحمد الله وابوس أيدى وش وضهر أن شيئا من ناحية الدكان والشركة التجارية لم يلعب دورا فى الموضوع.

أما عن «الأشواق والأسى» فقد تكرم إدوار الخراط وبادر بإرسال نسختين لى وفرحت بذلك وأرسلت له فورا أشكره على تجشمه المشقة والنفقة وتضحيته بوقته. وقبل ذلك كنت قد أرسلت لإدوار ردا على خطابه.. ترى هل لم يصله للآن؟ أن ذلك يكون عجيبا. كذلك فإننى من الكلمة على ظهر «الأشواق والأسى» قرأت أن «الظنون الرؤى» التى لدى دار المستقبل ستصدر (هذا العام) فتصورت أنهم لا يكتبون ذلك إلا إذا كان لديهم خبر أكيد.

لقد أرسلت لسليمان فياض أشكره شخصيا على صدور المجموعة. وقبل ذلك يوم ١٠/٣١ أرسلت له الفصل الأول من رواية (من كفر سيدى سليم)

رواية فى خمسة عشر فصلا، الفصل خمسون صفحة. أرجو أن تقرأه عند صدوره. هل قرأت مقالتى (تكلف الكاتب وحيرة القارئ) فى إبداع سبتمبر؟ وهل قرأت رجوع الشيخ؟ توجد نسخة عند سامى ونسخة عند محمود عبد الوهاب. وهل قرأت مقالتى عن ألفريد فرج فى عدد أكتوبر من البيان الكويتية التى تباع فى مصر بعشرة قروش.. حق ثلاث سجاير كوتاريللى؟ سيدى العزيز إن قراءتك لى جزء من واجباتك العائلية نحونا.. تمام مثل إنجاز باسبور عبد الله.. هذه الواجبات أيام زمان.. لكن وجودى فى برلين شجعك على الإهمال.. فلا تفرح.. سأعود مرة أخرى وسوف تقرأ بانتظام وهدوء كل الإنتاج العائلى القصصى والروائى.. والمقالات أيضاً.

أهم شيء أفكر فيه من مطالبى منك فى القاهرة هى المطبخ وغرفة العيال كما اتفقنا. اعتبر ما تأخذه من ثمن المجموعة ومقالة إبداع مقدم للثمن وخذ الباقى من سامية. فإذا أخذت منها باقى ثمن المطبخ وغرفة النوم، وإذا دفعت النقود لعمى مصطفى، وإذا دفعت رسوم التليفون فإن هذه تكون مبالغ كبيرة.. لكننى هنا أحوالى أصبحت جيدة حيث ينتهى قسط العربة فى يناير (٦١٣ مارك) أدفعها منذ ٢٤ شهرا.. كما أنه ليست علىّ ديون أخرى من أى نوع بذلك سأحضر معى هذه الإجازة نقودا كافية لتسديد ديون سامية جميعها مرة واحدة.

ولكى تكون كل مصالحى قد قضيت فإننى أذكرك بأن مصلحة الضرائب أرسلت لى خطابا قبل سفرى تطالبنى فيه بمتخلفات علىّ قالت لى زينب أن الخطاب معك. فإما أن تذهب به إلى المصلحة وتتكلم معهم أو ترسل لى الخطاب على هنا لكى أرد عليهم من برلين ربما كان ذلك أوقع. ولا تنسى أخر إيصال من عمك مصطفى بالضرائب. وكل مبلغ تدفعه بإيصالات ليكون كل شيء واضحا.

ألف مبروك على المحل وسيكون أجزخانة بإذن الله فلا تقلق من أى شيء، ألف مبروك لنجوى سلام منا جميعا لها وشكرا من القلب على ضيافتها الكريمة لى ولنا جميعا. قل لمهند ألف سلامة. وقل له أنه إذا لم يكتب لعمه عبد الحكيم يذكره بالسنارة فإنه سينسى أن يحضرها معه فى الإجازة ويكون الذنب على مهند نفسه. سلام لمنارولمى وتمنيات الطيبة لهما. كلنا بخير غير

أن أمير كسر رجله أثناء لعبنا معا (أنا النحلة أنا الدبور) ووضعت فى الحبس وكل يوم أحمله صعودا لسلم المدرسة حتى الفصل وأذهب أحضره بالسيارة. إيزيس بخير لكن المدرسة ترهقها جدا. أما عنى فإننى الآن أكرس وقتى كله للجامعة حتى يمكن أن أنتهى وأعود قريبا. زينب كانت صحتها تعبانة لمدة طويلة عقب رجوعنا والآن تحسنت وعلى ما يرام. كلنا إذن بخير ولا ينقصنا إلا أن نسمع منكم باستمرار... أخى الحبيب لك تقديرى واعتزازى.

عبد الحكيم

أختى الحبيبة سامية[1]

ألف حمد الله على السلامة.. نورت مصر.. كانت اجازة من غيركم مملة ومضجرة وكنت فى الرايحة و الجاية أنظر إلى شباكك وأشتاق لك.. لكنى فرحت أنك سافرتى وأنكِ والأولاد عشتم مع محمد مدة وصلنى خطاب منكم وأنا فى مصر وكتبت الرد وغرقت فى مشاكل لا حصر لها. المهم أننى بعد عودتى لبرلين أنهيت مقاله كبيرة ٣١ صفحة عن ديوان «الوطن الجمر»[2].وكما قلت لمحمد فى رسالتى له أننى لم أكتبها إلا انطلاقا من محبتى للديوان الذى قرأته واستمتعت به وتعلمت منه، وقلت له أن يقرأ المقالة فإن لم تعجبه فليمزقها وإن لم يعجبه جزء منها عليه أن يشطبه وأن أعجبته المقالة فليصحح ما قد يكون فيها من أخطاء أو خلافه ويرسلها للمجلة التى يحب. أرسلت له خطابا بالمقالة يوم١٠/٣١ وللآن لم يصلنى رده أرجو أن تكتبى له تسأليه فإن لم يكن تسلم مقالى أرسل له المقال مرة أخرى.سلامى لك وللحبيب عبد الحكيم وأحمد ودمتم لى بكل الصحة وسعادة

منعم

---

١ خطاب إلى شقيقته سامية زوجة الشاعر محمد صالح..والخطاب ملحق برسالة عبد المنعم

٢ نشر المقال بمجلة إبداع

إلى محمد صالح

برلين مساء ٧٤/١٢/٢٧
أخى محمد صالح

خطر لى حالا أن أكتب لك فجلست إلى طاولتى، ربما لأنها الفكرة الوحيدة التي لم تثر فىّ ذلك القنوط الكابس فى آفاقى هذا المساء، قطعت ورقة كبيرة من كراستى، ذلك يشى بأننى سوف أكتب كثيرا، أو بأن رغبتى في القول جليلة، فجلست من نفسى قطعت الورقة قطعتين، وأنقصتها من أطرافها.

وأقول لك أنه ليس بينى وبين الكتابة هذه الغربة، إنما أجد فى الحكى لذاذة،أونجاة، فإننى إن سكتُّ أغرق، أبقى وحدى مع هذه التصورات الغريبة في أعماقى السحيقة، وما أنا بالقادر على امتلاكها وسبرها حتى أفك طلاسمها، إنها تعمى علىّ، تحيرنى، أنجو منها إلى أنس الصحاب، أقول حاكيا أو كاتبا، أقول بإلحاح وعصاب، فإن من ورائى الصمت.. ذلك الصمت.

رسالتك أمامى، تلك الورقة، أرفعها قبالة عينى أسمع عادة خشيشا أجدها مصفوفة السطور، مؤطرة من حواشيها بالفراغ، سارح ذلك الفراغ، مفرق بين السطور والكلمات، لكنها في نهاية الأمر سنة النظام، تلك الرسالة المليئة بالصمت.

هل أقصد أن أكون بليغا..؟ نعم، وأحب أن أجيد ذلك، أن أحط ما بداخلى فى نسق، وأن يكون النسق جميلا، ذلك يريحنى، فأنا أكتب وأنا متعب.

وأجد أن الصمت كبرياء، لم يتح لى، لم يتح لى كبرياء ما، هذا ما أقوله لك، أخلع جلدى كل آن كالثعبان إذ يضيق به حرد نفسى — وأبقى مترقبا متحذرا كمونا حتى تلبس صفاته الجلد على الشوق وتكون الرغبة في الخروج.

ذلك بأننى حينما تركت مصر تركت حياة، أما أنتم فقد انتقص من حياتكم شىء، تعيشون وتعاودكم الذكرى، أما أنا فإننى أخرج في الليل، وجهى غارق فى ياقة معطفى، وعيناى تدوران، تقعان على معقال الصمت، والدهشة من إلحاح التساؤل، فالشوق فى عيون الغرباء مخوف، نهمون للأخذ كاللصوص، خرست فيهم كل الحواس إلا الملامسة. مخيف ذلك الطراد الصامت الغارق في التهذيب.

فليكن لنا بعد هذه الأدبة الليلية أن نقول، فهل لى قبل أن أشرع أن أتلو صلاة قصيرة، نجاة بالقول أن تميل به أهواء النفس عن القصد، ما أحوجنى لهذا، وأكثر ما أحذره هو هذه التداعيات القائمة، تضع للكلمات نهايات منقوشة ترهفها فى سجع بكائى.

منذ آن يشغلنى أننا نكتب ما لا نريد أن نقول، نغرق فى أعماق لحظة ما، لا نستشرف غيرها من الأوقات، نتبادل هذه القصاصات، هذه العملة الزائفة، نلهو بها آنا ثم نلقيها، فهذا النغم المسلوب عار من ثراء الحقيقة.

وكان حسنا فى رسالتك أنها حافلة بأسماء الصحاب، كثير منهم وما من واحد إلا وهو لى عالم، لكنه كان فى رسالتك اسما حروفه قليلة حسنة النسق، إذ ذاك عرفت أنه بعد ذلك الصباح المبكر، حينما حملتنى العربة في شوارع القاهرة التى كانت بعد خالية،إلى المطار... بعد ذلك الصباح حال الصمت بينى وبين أشياء كثيرة.

قلت لمنعم في جواب، إننى كنت آمل أن تصلنى رسائل الأصدقاء بعالمى الذى خليته ورائي، كنت أحلم أن أسافر بلا غربة، هروب طفولى من محصل أجرة السفر.. فيأيها الصديق... ذى الكبرياء الصموت، لا أنقم عليك شيئا، إنما المسألة أن الورقة إذا ما سافرت عبر البحر وهى حاملة كل هذا الصمت، كانت فراهة الكبرياء أكبر من قدرتى على التصور.

رصصت زجاجات البيرة أمامى، ذلك يجعل الرؤى أكثر إشراقا، وأحضرت خبز وجبنا، وأسمع موتسارت، وأنت أيها الصديق، تمت فى نفسى إلى جدل غير محسوم، أناديك أسامر صمتك وتأبيك، وأقول إنه رب مساء، غريب في الأماسى، مُعلق على الجدران لوحات كالحة، وزجاجات عليها تراب، ثم الشرب إلى الدمع، وتفتح أبواب القلب، لكن ماذا..؟ اترك عنانك للكلمات الودودة في أخريات الليل.

تسرب برلين إلى قلبى من منافذ غريبة، يقول هاني أبو النور سنكون غرباء فى مصر، ويقول سامح الناقوري: أنتم، لن نسافر إلا جميعا... برلين رويدك فى قلبى القاهرة ما تزال، وأنت هل تأتيننى من كلمات لا أفهم معناها على الشفاه،وابتسامات، ونفخات من دخان السجائر، وأحزان قليلة أنا أعرفها، فأنا يا برلين عشت عمرا طويلا قبل أن آتى إلى هنا، برلين إنه أنا، طوفت في البلاد

كثيرا واستراحت الأيدى فى يدى واحتضنت بكفى خدود البنات،حكين لى وأنصت صامتا حزينا.

برلين، أنا صغيرك المحب، أطوح رجلى من كرسى البار، وحينما تبتسم لى أذوب، أحس طعم الريق اللامع على أسنانها، أنقر على حافة كأسى خجلا، وددت لو لم يمتلئ أبدا، وأنت تملئينه أبدا، لكنها لحظة ما تكاد حتى تروح، وأبدأ أرقبها فى دورة الشرب.

من لا يشرب لا يعرف، وأنا عرفت حتى المسرة، من الكؤوس أتعثر وكيانى لا يطرح على الأرض ظلا، وأبتسم، تأتى ملبية شوقى، حلوة، مربوطة إلى أشواق الزبائن، يمرغون في يديها الناعمتين التعب، أربت النصل القرار، وأسرح من نوافذ الزجاج، المطر يزيد لمعه المصابيح، وحقل العنود ماشى حتى الأفق، برلين، أي وجه تبدين لعاشق موالد الشيوخ القديم، برلين خففى فإن هى إلا لحظة وتأتى مواكب الدفوف من فجاج الضوء إذ ذاك يكون مقتلى.

وعجوز يضع زجاجته على الصندوق أمامه، ويقول إنها رخيصة، وأقول إنها زيت السراج، موكب الخمر سائر، سلام أيها العجوز، بعث بى إليك مجاذيب موالد الشيوخ، كم كأس يلزمنى حتى أستوى على الجراءة، أتجرد، أبتسم، وأحلق.

وضعت يدى في يدها بعد تعارف قليل، فأنا دائر في هذا الليل أضع في كلماتى الألمانية القليلة القبيحة سمر الصحاب فى الليالي والتراتيل، والضحكات الفجة، تعالى إلىّ، الآن بدأت طبول رقصتى، لو ألفت انتباه الجمع سقطت تعالى إلىّ، أنا الضاحك الباكى، الحزين بلا معنى، المبسوط بلا سبب، أريدك أنت، اسما لرغبتى التى عييت أن أسميها.

ملفوفة في معطفها وقفازها وطاقية رأسها، أحضنها قبل أن تتوه منى اللحظة، هل تسأل الفراشة الزهرة قبل أن تحط، نتوه فى زحام الناس والأضواء والبيع، في مولد عيد الميلاد، تشخب ندف الثلج من السماء المثرة، نضحك ملء القلب، نركب المراجيح.

نفذت زجاجاتى وما نفذ اشتياقى، مهلا أقوم أجلب غيرها لنفسى، وآخذ صاحبتى إلى ربة البار، الآن إسقنا، أجد انتباها يصل إلى رأسى، أسألك اقتليه، أنا إذا انتبهت حزنت، الآن أعرنى وإذا لم تكن خمرك شافية عتبت عليك،

امتلأت عيناى بالدموع ومشيت مثقلا.

لكننى وجدت حبيبتى رائعة، ثدياها مطلان من فتحة صدر ثوبها، ونعومة وركيها، أقبلها، أحزن القبل، قبل العاجز الضرير، ما زلت طفلا مرعوبا والمرأة شاطئ ما أثرت فى إمرأة فرحة، إنما حزنا يجعلها تأخذ رأسى فى صدرها تدارى ثدييها خجلا من محبتى.

منعم[1] اسمع، يوجد ناس في هذه الدنيا ليسو أولاد أبينا، ولم يحكى حكاياتهم القليلة تحت أشجار الكافور على جسر المصرف، لكنهم أيضا حزانى وطيبين، وهي كانت تريد أن تقضى ليلة داعرة فى برلين هاربة من بيت بارد كريه في «دوبيلن» حاملة حكاية لن يفهمها أحد، وقميص نوم عار، وقلب مكسور..

درنا نبحث عبثا عن مكان ننام فيه، صعدنا خلسة إلى ظهر إحدى العمارات، أداريها من ندف الثلج المنهمر، أمرغ وجهى فى لحم بطنها.. يا حبيبتى.

برلين لقد تعبت، اتسخت ياقة قميصى ونبتت لحيتى، برلين هل أنت بعد مدينة مثل المدائن الأخرى وفيك ذات الحكايات القليلة الشجية، هأنذا أمشى في شوارعك، أتدافع مثل جمل قديم، لا أعتذر ولا اصطنع كياسة، أسحبها من يدها خلفى، أحسب- خائفا- متى نفترق.

لكنها تقول لي تعالى، تعالى نرى ذات المكان مرة أخرى نجلس هناك صامتين والمطر منهمر، تقول ليس فقط كنت أريد أن أرى المكان مرة أخرى، لا تنسنى...لا تنسنى.. احضنها وهى واقفة فى فتحة باب القطار، ثم أنزل، ويغلق ناظر القطار الباب ويستجمع القطار أنفاسه شارعا في السفر، ويدها من الشباك، ناصعة في ردائها الأبيض تلوح لى، أبقى جامدا، ناظرا لليد المبتعدة، يسقط عليها ضوء مصباح باهى الضوء وهى ترف مثل طائر، وفجأة تغيبها العتمة، وإلى جوارى تترى عربات القطار في صليل جنائزى رتيب، وأنا مرتكن على عربة نقل متاع المسافرين، أجدنى وحدى على الرصيف.

قاهرتى، ثمة مدائن أخرى، وما أنا إلا عبد لميلاد الليل على الوجوه المتعبة السهرانة وسقاة الخمر، وأنت إذا لم ترسلى إلى خطابا دفنت وجهى بين ثديين

[1] رغم أن هذه الرسالة موجهة إلى الشاعر محمد صالح. إلا أن قاسم اختلط عليه الأمر هنا وخاطب فى الرسالة أخيه عبد المنعم وقد يرجع السبب فى ذلك إلى الظروف التى كتب فيها الرسالة أثناء الاحتفالات برأس السنة ومكان كتابتها فى أحد بارات برلين.

كبيرين دافئين ونسيت، قاهرتي لا تذليننى ببنوتى لك، أوشك أبعثر أوراق هويتى للرياح وأسلم قلبى للمحبة الخالصة.

ثم يكون اللاإنتماء، يخلص القلب من عبودية الأماكن، ترسل وثاقي قباب الشيوخ، والطرق الريفية وغرز الشاى تحت أشجار الجميز،ومقاهي النرد، وتجاعيد المحنة على وجوه الصحاب، تعيد إلىّ حريتى بلا عتاب، بلا أسى، آكل لحم الخنزير وأشرب البيرة مع عمال البناء عند العجوز الألمانية المطلية الجفون بالخَضار.

أخبئ الحكايات في قلبى، في طيات ملابسى كقروش إمرأة ريفية، وفى أماسى الصحاب نصلى، لوثنّا الحزن، وأجد دفء الدموع مخلوطا بمرارة الشرب، أى ليلة هذه فى الليالى، رحلة موصولة، يكون النهار فيها غفلة، ثم تشرق في المساء الصحبة، والحيطان تنقبب، تكن الشرب، تحوش عنهم غائلة الصحو، لكنها تصحو الأشياء، الحقائق بعد زوال الرسوم، المرارة بعد فوت التجربة، عندئذ تستذل الصداقة قلبى، هي الفخر والعبودية، هى الالتزام، عندئذ أمارس المخالفة خلسة، يا حبيبتى اشتقت إليك، تعالى، الجوع يعزى، يشوهنى، تعالى، حكايتى المكتوبة عن صحابى.

إليك العود أيها النديم المتأبى الصموت، لكنها ليلة أخرى، الأخيرة فى عامنا الفائت، أين أنتم الآن، في المقهى أم في الأتيلية، وإلى حديث، وهل يذكر اسمى لا أسأل اغترارا، إنما اشتياقا، أو كمن يقرأ السلام ويرتب السلام وعندى ضعة القادم الفرد على الجماعة المتحدة ليهنكم أنكم جميعا، وأنا هنا وحدى.

يا نديمى أنها ليلة أخرى والشرب غير الشرب، نبيذ ثمين، أهدانيه القسيس مع بطاقة حسنة التصوير في عيد الميلاد، كنت آيبا وجدت كل ذلك على بابى، وأنا إذ آوب كل مساء أرقب الباب أترى خطاب من مصر، أم سؤال من صديق ويومها كان هذا جواب اشتياقى، فرحت، كنزت النبيذ عندى، ثم أشربه الليلة وأكتب، فرحت به ثلاث مرات، مباركة هذه الخمر.

ومباركة وحدتى الجيدة، ومبارك صمت كل الأشياء حولى، برلين، ما نقمت عليك، تأبيك علىّ، ولا ازدراؤك لى أكرمت مسافرا، كدحت منتظرا، أرتبك إذ أنطق، أرتبك إذ آكل، ارتبك إذ أسير، تختلط على الرؤى والمشاهد

طفل في الأربعين، اكتشف لنفسى الشىء تلو الشئ، أركب الصورة من الجزئيات أصعد فى مدارج العمر من جديد وأجد نعمة الفرح مرة أخرى.

تكلمنى بأناة حتى أفهم، ترتب شالى تحت ياقة معطفى، تأخذنى إلى الطابق السابع والثلاثين في مصعد خارق السرعة، وتقول لي هذه هي الكنيسة، وهذا هو القصر، وحينما أعود مرة أخرى، ويكون لنا بيت، ستكون حسنا لى، وسأكون حسنه لك، ويكون وقتنا طيبا، حينما أعود.. ويكون لنا بيت..

أقول رويدك، مللت أن يبطئ الإدراك عن الوقت، تشوهنى المفاجأة، ويفوتنى معنى الأشياء، رويدك، صامتا أجلس، اقتربى، دعينى أتحقق من كل شىء،اخضرار العيون، هذا الشعر الأسود الفاحم، آه.. منذ الأبد أحن إلى عروس جميلة، أزينها بيدى، أعيد خلقها مائة ألف مرة فى كل آن، أعيش من خلال ذلك، شاهت الرغبات الأولى، استحالت حزنا أو حكمة، فى تباب الشرب، في غرف المناقشة.

لكنني خرقت الناموس وطرت، أذللت المسافة بالعزم، أتيت إلى برلين، خلعت ثيابى على بوابتها، أدارى عورتى بيدى، برلين دثرينى، ضمين إليك، وكاف الإعراض، والوحدة المريرة في الليالى عرفت عذاب الثعبان إذ يخلع جلده، ولَيكن حتي يستنبت له جلد جديد.

برلين مساء الاثنين ١٩٧٦/١٢/٢٧
أخى محمد صالح

أعيش لحظة عقيمة، الورقة مطروحة أمامى منذ آن لا تبرق فى آفاقى بارقة، لا أظفر بشيء، بكلمة أفتتح بها خطابى إليك، فإن الأمر لدى كامن في كلمات مفاتيح، ما أن أستأنف واحدة وأصفها في مستهل الصفحة حتى تنزل على قلبى شآبيب الكلام، لكن اللحظة عقيمة، لقد شبعت فى السقف تحديقا وفى الخواطر تقليبا، تنهدت كثيرا ولا يفتح الله علىّ بشيء، قلت إذن فلنكتب عن اللحظات الغبيات العواقر.

وعاقر كلمة جارحة، فأنا أنشئت في قرية تقدس الولادة، وكان لى قريبات وغير قريبات، وفيهن العواقر، وكم رأيت على وجوههن الألم، وكم شهدت الأسفار إلى مشاهد الشيوخ ومنازل الكاتبين، ورأيت كيف اصطنعت الاحجبة ومزجت العقاقير وطبخت الجواهر وركبت الفوائد... وظلت كلمة عاقر كلمة قبيحة جارحة.. يا أخى كم هي ثقيلة على النفس تلك اللحظات العواقيم العواقر.

يكون الشوق إذن إلى شروق تلك(الكلمة) فى آفاق النفس تصحو الأعضاء على هذا الصبح ناشطة على مدارج الفعل، راقية إلى ذروة الفرح حيث الكلام كشفا ولقاء الصديق في كل مرة خلقا. في البدء إذن تكون (الكلمة)هكذا في مستهل العهد القديم، ثم يكون العالم التوراتى منبثق من هذه الكلمة.

كان محمد النبى مقداما جسورا، وكان يمتلك ناصية البيان، وكان إذا أعيته هذه الكلمة(المفتاح) لم يتلعثم ولم يحجم إنما ألقى الحروف المتتابعات الغوامض: ألم، حم، كهيعص... ثم يتدفق القول من عاديات ضبحا،موريات قدحا،واسطات جمعا.

وأنا لما عجزت قلت فلأكتب عن البلادة وعن الاستعصاء، وحتى هذا ما وسعنى أن أحيط به، لأنه يستأذينى أن أعرف ما المطلوب لأدرك حجم الاستعصاء، والسؤال من أنت لى؟ ومن أنا لك؟ واللغة بقدر ما تكون في بعض الأحيان عجزا تكون في آخر إعجازا، حسبها أن تكون سؤالا كهذا في كلمات قليلات صريغ، وما أحسبها فى أي عدد من الكلمات بقادرة على أن تحير جوابا.

استحضرت اللحظات جميعها ما وسعنى التذكر، والكلمات كلها، ولقد ثبت لدى أننى آذيتك كثيرا، ولقد ثبت لدى أنك تملك قدرة خارقة على الصمت،وأنك بصمتك هذا أهنتنى كثيرا.

تقول في خطابك هذا "ولأنه مع البعد تختفى التفاصيل الصغيرة فإن الكتابة الأدبية بشكل منظم ربما ساعدتنا جميعا على الوقوف على مثل هذه التفصيلات" وتقول إنك ستحاول أن ترسل لي مجموعة من القصائد الجديدة لك، وأحاول أن أتذكر شعرك، ليس في يدى نص، أتذكر قصيدة المماليك وتلك التى فيها شئ عن كوبرى الجامعة، ثم قصيدة صغيرة أخرى بعيدة وغامضة ذكراها في رأسى تماما، أتذكر هذا الشعر وأجده فيما أعلم من أكثر الكلام حفولا بالصمت... ليس علىّ فقط تمارس كبرياءك.. بل على هذا العالم.

أتكون رغبتى فى دفعك إلى منطقة الكلام كانت أحيانا خشنة حتى الإيذاء؟ ربما وهنا لا يكون الإيذاء مستهدفا لذاته بل هو إذن بحث غليل عن إجابة ضائعة، وربما يكون العالم الذى يسمعنا يا أخى لازال يبحث في شعرك عن إجابة.. إننى أنتظر قصائدك فأعجل بإرسالها. لكننا يجمعنا أيا ما كان الأمر هذا الشعر على ما فيه من الصمت بل بما فيه من الصمت، فإنه يرتله ترتيلا، يوثق أركانه، ينسج خيوطه الملحاحة حول كل أشياء القصيدة يجعل من القمر ليمونه، والشجر تدهن بالأبيض كشاهد قبر، يملأ القصيدة بالوحشية يجعلها إدانة تشعر القارئ بالمذلة... إن كنت قد أحسنت التذكر. يجمعنا هذا الشعر إذن، وربما هو يوحدنا، من حيث أنه رؤية أخرى لمأساتنا التي لا مثيل لها،وأنا قد نذرت بضع سنين من حياتى لأقرأ كل كتبناه جميعنا وأن أجد سبيلا لفهمه ووضعه في سياق تاريخ الثقافة في بلدنا، وأتصور أنك من الذين يدركون عملي هذا يحسون به.

لهذا أفكر بك لأن تشترك معى قليلا في العمل، ولقد أرسلت مع حسنى عددا من الأسئلة لتوجه إلى عدد من الكتاب وأسألك أن تقوم بهذا وأن تحتال حتى تحصل على أوفى إجابة من كل واحد منهم على النسق الذى سيوضحه لك حسنى وأن تكتب الإجابات جميعها على الآلة الكاتبة في ورق من نوع وقطع واحد وأن يوقع كل كاتب على إجابته.

لقد فوضت حسنى أن يعطيك خمسين جنيها، فقد يكلفك الأمر أن تسافر في حالة عفيفى مطر، عندئذ سافر بالدرجة الثانية ونم فى فندق مريح جدا وخذ لنفسك أجرا عن اليوم بما أنفقته ثلاثة جنيهات، وإذا جالست واحد منهم على مقهى فأنفق على الجلسة بسخاء وخذ لنفسك جنيهين على المساء الذى تقضيه فى هذا العمل – ثم اكتب كل شيء على الآلة الكاتبة وأعط الكاتب أجره المعتاد، وإذا احتجت أكثر من الخمسين جنيها اكتب لي أرسل لك فورا وإذا بقى منها شيء فهو لك. سلم لى على محمد سيف، وقل له يضع قصيدة من قصائده فى خطاب ويرسله لي سيكلفه هذا قروشا وسوف يسعدنى سعادة لا حدود لها.

سلم على روميش، لقد كانت ليلتى الأولى في برلين أرقه، كانت الوسادة محشوة ريشا، لم أتعود على هذا وغثيت نفسى، وكأن الفراش نظيفا بشكل غير إنسانى والغرفة مقبضه أحسست بالخوف أخرجت مجموعة روميش قرأت «الليل الرحم» امتلأت غرفتى أنسا فنمت إلى هذا الأخ الكريم كل تحياتى ومحبتى. سلامى إلى سمسمه لو كانت ما تزال تذكر أخاها.أحيانا أتصورها قادمة على طفلة عليها جلباب كستور ترفع ذيله وتخرج من جيبها علبة سجائر وتعطيها لى صامتة، هذه الأخت الحبيبة.ولقد الححت عليكم أن ترسلوا صورة لعبد الحكيم، وكنت قد أزمعت ألا أشير إلى هذا مرة أخرى، لكننى الآن أفعل، أرجو ألا تجعلونى أعود إلى الصمت مرة أخرى. سلم لى على الناس في منية شنتنا عياشى، أكون شاكرا لو ذكرتنى عندهم وأن تحمل لهم مودتى.

والسلام عليك
عبد الحكيم

إلى محمد روميش

برلين الغربية ٨١/٣/٢٥
أخى محمد بن عم الحاج صادق

أرجأت الرد على رسالتك طويلا منتظراً رسالة أسامة الغزولى لكنها لم تصل فقررت أن أجلس لأكتب يأسا من وصول رسالة أسامة. والحق أن الرد على رسالتك يعيش فى داخلى فور انتهائى من قراءتها.تصطدم الكلمات وتتضارب وتتبادل مواقعها. وإذا ما جاء الليل نام العيال فإننى أتيح لنفسى أن أحيا.. المنفى ضار والرفاق شتى..أتمشى فى ردهة صغيرة مستطيلة بين الغرف.. أقفز، أرقص، أكلم نفسى، أحدث أصحابى أشكو لهم وأعظهم وأحذرهم.. أصرخ فى الصحراء حتى ترخى قبضتها الحديدية الموحشة عن قلبى. وفى الآونة الأخيرة تشغلنى رسالتك وتسيطر على جزء من الأماسى الكئيبة كبير. إننى يا روميش أحب كتابتك إلى البكاء بدموع دافئة تغسل الجروح ذلك بأنك نجوت بقلبك أن يكون فريسة للنغمات الزائفة والمشاعر المضللة وذلك أمر لا يتاح إلا لقليلين تقول فى خطابك[1] أنه(.. فى مشهد آخر من الفيلم.. حين نهق حمار.. خفق القلب الصغير.. وأحس وسط المدينة المنصورة بلحظة رفقة وأمان) ويقرأ القارئون هذه الكلمة.. وليتندر بها الكثيرون منهم ويضحكون عليها.. وأنا لا.. القلب كبير والهم أكبر.

وذلك بأن مدننا تكوينات خلاسية. تراكمات شائهة غريبة بلا شخصية ولا تاريخ ولا فكر ولا اتجاه. إن منظور هذا التراكم شائه متداع قذر.والصورة الصوتية لهذا التكوين تثقل على القلب والعقل وتعجزهما عن الدخول فى حوار معها. ذلك بأنها لا تقول إنما تهرف وتخلط.. النجاة إذن هى الفرار منها. ويكون نهيق الحمار دلالة على العالم المقابل..ليس فقط نهيق الحمار بل آذان المؤذن العجوز المنهدم الصوت فى فجر المدينة النائمة.. نامت ضجتها وستر الظلام قبحها وصمتت قلوب ناسها تنصت لصوت آخر يمت إلى تاريخنا

١ احتفظ عبد الحكيم فى أوراقه الخاصة بما أرسله له محمد روميش من رسائل وهو يعلق هنا على ما جاء فى رسالة روميش التى كتب فيها: «كنت بين العاشرة والثانية عشر طفل خائف منكمش بعد أن انتزعوه من قريته... القرية التى يعرف كل شئ فيها. ويعرفه كل شئ فيها...إلى مدينة بعيدة...كانت سينما ركس تعرض أفلاما أجنبية.. فى مشهد كانت السفينة الكبيرة يجدف فيها بعض الرجال العراة. ويقف وراءهم آخرون يلهبونهم بالسياط. وفى لحظة سريعة. أحسست أننى أنتمي لمكن يمسكون بالمجاديف... ومرت ثلاثون سنه وزيادة. إلا أن المشهد والإحساس مازال واضحا للعجوز الذى هو أنا».

وشخصيتنا وقلوبنا. أليس هذا بالضبط هو منطلق الجماعات الدينية التى تنمو بعد ذلك وتتطور إلى الفاشية وتحطم كل شئ.حاربهم بكل ما تستطيع لكنك لن تستطيع أن تنتزع من قلوب الناس كرههم لخلاسية حياتنا فى منظورها وصوتها.. نحن فى هروب مستمر من قدر قبيح والدين تركيبة صوتية وبصرية متناسقة ومتينة وجذابة لكل قلب. إنها تجمع لهم الناس مستعدين للانصات.. عندئذ يقولون لهم ما يشاءون. بعد ثلاثين عاما لازلت تذكر قصة نهيق الحمار لأن التناقض عندك لم يحل وهو لم يحل عند أحد منا.. لكنك تحلم.... والأسبوع ليس وقتا يعاش أو وعاء يتسع للأعمال و الإنجاز بل هو انتظار أليم طويل ليوم يتم فيه لأم التمزق ورأب الصدع والعودة إلى حيث الصورة لا تزال تحمل الصفاء القديم. والمسالة عجيبة فيها تجاوز الأم بلا حرج والبحث عن الأب بشوق. إننى أتشكك فى هذا الشوق بمعنى إننى لا أجد فيه آثارا كبيرة لوجد عاطفى بل هو بحث عقلى عن دعامة لعالم ينبغى أن يوجد وأن يبقى وأن ينمو فى وجه الزيف و الخلاسية وأن رمز العباءة الإمبريال[1] رمز عبقرى. وفى كن العباءة وحجر الأب يأتى صوته بالغناء الريف.

أهلا وسهلا باللى لقاهم عيد وزيادة... وبعدهم يوم كأنه عام وزيادة

من منا ليس فى حياته عباءة إمبريال ولقاء حار وأغنية ريفية.. من باب الغيرة سأقول لك أغنيتى

أصل الحلاوة عسل ومخّلطة بعجين... وأصل العسل م القصب وأصل القصب م الطين

كان علينا أن نرحل إلى مدينة خلاسية.. وأن نتعلم فى مدرسة خلاسية.. وكان من النعمة علينا أن كان لنا مآب.. عالم لازال بعد لم يتفسخ.. عالم عماده أب كبير..الحاج صادق.. الحاج كريم.. لكن كيف كان المدخل إلى جمال عبد الناصر.. وقبله سعد زغلول.. وقبله عرابى وقبله الآباء إلى أول الزمن.

سيقول العارفون إنه المجتمع الزراعى والنهر الواحد والمناخ الحار ومن ثم يكون الدين توحيدا ويكون الزعيم فى كل مرة موشكا أن يكون رسولا. وأنا أخاف العارفين وعليه أصدقهم لكننى استميحهم فى أن أقول كلمة صغيرة مؤداها أن ثمة شيئا ما، روحا ما أعلى من الأرض والنهر والجغرافيا والمناخ

---

١ اشارة إلى ما جاء فى قصة روميش «الليل الرحم»

ربما هى خالصة من كل أولئك. يغذوها كل ما كتبناه وكل ما قرأناه، تغذوها وما تزال كل الكتب التى أغرقت فى نهر دجلة. تلك الروح أحبست منذ قفل باب الاجتهاد وأنها تعجز أجنحتها عن التحليق.. ومنذ أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر إلى الآن تلقى هجوما ساحقا من الثقافة الغربية.. لن أتكلم عنه كثيرا..لكننى فقط أرصده فى المدينة التى رحلنا إليها أنا وأنت والمدارس التى تعلمنا فيها.

إن قريتنا هى تجربة الأرق ومعاناة التزييف وكراهيته.. عندئذ يكون الفرار إلى عالمنا القديم الذى يكون ملاكه الأب ويكون ولعنا بالأب ولعاً عقليا يلغى حتى إمكانيتنا العاطفية..أنت تنحى الأم ببساطة ولا تجد ذلك غريبا بعد كل هذا العمر ويكون دورها أن تشير لك على مكان وجود الأب.

فأنا أتذكر أن أمى لم تضمنى إلى صدرها أبدا.. وأن هذه الحقيقة لا تزال إلى الآن تُلمون - ولا أقول تشكل – علاقتى بالمرأة وعلاقتى بالحياة.والعلاقة العقلية سمتها المحاورة.ومن يقرأ «الليل الرحم» يجدها أغنية عبقرية فى الحوار مع كيان الأب الهائل، القصة تفرض معلق فى جوانبه هيئة صورة للأب ولنحاول الآن إحصاءها: الأب... العمة وهى جانب آخر من الأب رجل الليل الذى قتل، الباشا، أب تلك العائلة من الفرع تلك صور مختلفة للأب وثمة صور مختلفة للابن..عبد الشاطر.. والولد الآخر وأبن الباشا على قدر ما أذكرالآن. فما مؤدى هذا الحوار فى ظروفنا الروحية و الثقافية العامة الآن. إن فكرة الأب كإطار لمجتمعنا ضد التيارات العاصفة فكرة لازمة. وبهذا الشكل أفهم الكلمة التى جاءت فى خطابك(هل لك عبد الحكيم أن تقنعه بأن بنات الدنيا جميعا فداء موطئ قدمه..) إننى غير موافق على الصياغة وإن كنت لم أفهم العبارة بما يوحى ظاهرها بل أدركت أن الوعى بقضية الأب هو قضية عقلية أعلى من أى قضية أخرى فى ظروفنا الحالية ومجتمعنا الحالى.

لكن الجانب الآخر من القضية هو بشاعة وقع الأب على مجتمعنا. إن وطأه ثقيل ثقلا مدمرا يكاد يلغى كل ما فينا من طموح وقدرة على الحب. انظر العلاقة بالأم.. وعليه يرحل محمد الصادق روميش ويتزوج من المدينة. إن هذا ليس ثورة ضد الأب. إنها محاولة لتحرير جزء من وجدان الواحد من أبيه.. وأنت لازلت تقف جنب البنت إلى الآن ضد الأب..(كانت تمد

يدها للسلام.. لكن أنَى يا عبد الحكيم للعصفورة أن تواجه أسد الغابة).أنت تجهش بالبكاء، ليس ضعفا لكن محاولة حارة مبلولة لدفع الكفر عن القلب المؤمن.. الذى يريد أن يتحرر.

تلك هى قضيتنا إذن أننا نؤمن بالأب..ونرى أن ذلك هو ضمان أصالتنا ضد أى تيارات تعصف بنا..ونحن ثائرون على نظرية الأب لأنها معوقة لنمائنا... وعلى الفور أجدنى فى منطقة السؤال عن ماهية الكتابة. والجواب يشحن قلبى يكاد يسابق الكلمات السائلة من قلمى.. إن الكتابة بالنسبة لنا أبناء الثقافة العربية التى تكافح من أجل مكانها على الأرض.. الكتابة بالنسبة لنا جهد من لا يكل ليل نهار.. هم لا يرحم للصراع لتوضيح قضايانا.. لأنفسنا أولا لتعميق فهمنا لها.. ومن مجرى هذه العملية سيجد القارئ الكريم ساعة وقت يزجيها مع كتاب ليتفرج على كدحنا المؤلم لتعميق إدراكنا لعالمنا.. فيأخذ فكرة.

ولذلك فإنه أكثر ما يؤلمنى هو ما يتردد أحيانا من باب التظرف من شعار مؤداه (أن يقول الواحد كلمته ويمضى..) عزائى أن من يقولون هذا لا يؤمنون به وأنهم يكتبون ويكتبون ويثرون حياتنا الروحية والفكرية. لكننى أجد الشعار بالرغم من ذلك خطير والخطورة فيه صياغته التى تحمل رائحة تراثية والواقع أنه من الناحية الفكرية مزيف على التراث. فالمؤمن غير مطلوب منه أن يصلى ظهرا واحداً (ويمضى..) أو يصوم شهرا واحداً(وخلاص) بل أن الأمر أمر عبادة..أو مجاهدة، وعليه فشعارنا ليس أن نقول كلمة ونمضى. بل (أن نجاهد لتعميق وعينا بعالمنا) وعليه فإننى لم يكفنى أنك كتبت «الشمس فى برج المحاق».. إننى أطالبك بأن تكتب وتكتب وتقول وتقول حتى ما يبقى فى المحبرة مداد.

تقول "بالنسبة للكتابة.. لعلى لست كاتبا محترفا ولعلى كنت – وأطمع أن أظل صاحب هم عام سمه – تسامحا- هم إنسانى". والقضية ما هو الاحتراف؟ هل هو العيش من الكتابة.. إننى أكتب منذ عشرين عاما وانشر. وجميع ما كسبته من كتابتى لا يطعم أولادى شهرا.. وأنا هنا أعيش من تنظيف المراحيض.. فهل أنا منظف مراحيض محترف.. وكاتب هاو أو صاحب هم إنسانى.. إننى كاتب محترف رغم أننى لا أعيش من كتابتى

تماما مثل ناسٍ يعيشون من الكتابة وليسوا كتابا محترفين بل ليس لهم بعالم الكتابة صلة أياً كانت.

أنت يا روميش كاتب محترف.. أعرف هذا إذ أقرا لك..كما أعرف المعلم من صنع يديه، وكلمتك التى ذكرتها حالا تعكس وعيا حرفيا ناضجا مؤداه أنك تنأى بالحرفة عن أن تكون صورة محزنة للكاتب فى عالمنا العربى أحيانا.. انظر لنجيب محفوظ وتوفيق الحكيم.. كانا كاتبين لامعين فى عصر جمال عبد الناصر.. وحصل انقلاب على كل شئ من العصر الذى مضى.. وهما ما زال نجمين جالسين على قمة «الأهرام».. هذان ليسا كاتبين محترفين.. إنهما مرتبطان بمؤسسة فكرية سائدة فى المجتمع مهما تغيرت مبادئه.. هذه المؤسسة هى الإيمان بضرورة وجود النظام بصرف النظر عن محتوى هذا النظام، على عكس صلاح عيسى أو إبراهيم فتحى الذى كان فى عهد عبد الناصر مطاردا وهو الآن مطاردا أيضاً.. إنه كاتب محترف ليس بمعنى أنه يعيش من كتابته بل بمعنى أنه يعيش لها، وينأى بها — عن أن تكون أداة لفكرة ما، بل هى وسيلة لصنع الفكرة.

بهذا تعود، بقلمك تعود لتجاهد مع المجاهدين من أجل تعميق وعينا بعالمنا.. من أجل أن تكون الكتابة فى ثقافتنا العربية حرة من الارتباط بالمؤسسات الفكرية المستقرة وأداه لها بل لكى تكون أداة لخلق الفكرة المتناسقة المتناغمة فى مقابل مجتمع تعصف به القيادات وتؤدى به إلى الخلاسية وفقدان اللون والطعم والشخصية..وإننى الآن لأحس الفرحة التى سأقرأ بها عملك القادم. لدى خوف صغير..أنك ياروميش إنسان ذو كبرياء شديد... وأنك لو كتبت بعد انقطاع طويل ربما لن يكون الأمر يسيرا.. ذلك بأننا لسنا عباقرة.. بل صنايعية لنا أصابع من ذهب.. وبطول الانقطاع تكون العودة أحيانا صعبة..

لو حدث هذا...فلا يحزنك.. بل يملؤك ثقة.. سيكون العمل الذى يليه عملا عملاقا.انظر إلى يديك واعرف ما فيهما من قوة.. إنها قادمة من ينابيع العقل والقلب لتتدفق وتثرى.

أخى... تحية لك.. هذا جواب متواضع على رسالتك العظيمة التى فرحت بها فرحا لا يقدر.. وإننى لأناشدك أن تكتب لى دائما وسأرد عليك فورا..

إن حدثا كهذا نحتاجه كلانا فلا ندع الكسل يردم الآبار العظيمة التى تنشر الخصب فى أيامنا.

*سلامى لأسامة و أسفى لرسالته التى لم تصل.. حبى لكما.. وفى انتظار.

عبد الحكيم

برلين الغربية مساء الاثنين ١٩٨١/٥/٤
أخى روميش

قبل أن يصل خطابك بيوم هجس لى أنك ربما لن تكتب رداً على خطابى الأخير. لم يكن لدى تفسير لهذا الخوف لكنه كان خوفا يحضرنى بقوة. ثم جاء خطابك ثانى يوم. إن هذه الرسالة تهمنى جدا. أنا أحب الكتابة والكتّاب وأحب كتّاب جيلنا بشكل خاص والبعض منهم أرى فيهم وجها من وجوه الحياة والإنسان يندر فى تصورى أن يتكرر. ومراسلتنا هذه أول حوار حقيقى بين كاتبين من جيلنا وهى جديرة بأن تسجل وأن يحفظها تاريخنا. بهذا الوعى أقبل على تراسلى معك، ولهذا صورت الخطاب. وأنا أعرف أن طبعك قد لا تريحه هذه الحنبلة فأعفيك منها.. رجاء خاص أن تصور وترسل لى خطابى الأول لك وسأكون لك شاكراً.

وقبل أن أمضى فى الكلام عند ذكرى يحيى الطاهر عبد الله [1].. هكذا أصبح ذكرى بعد أن كان إعصارا يزمجر فى شبابيك حياتنا الأدبية فما يدع لها راحة إلا أن تفكر وتنفعل لتلاحق موجات إبداعه الرائعة.. هذا الأخ الكريم الذى ما قابلته فى حياتى إلا وتشاجرت معه ونحن تجمعنا قرابة الدم و العروق. لقد ترك لنا يحيى ميراثا رائعا لكن موته حرمنا من إمكانية لإخصاب حياتنا لن يعوضنا عنه شئ. سلام عليه بين ناس مصر فى القبور، الناس الذين شاركوا فى صنع اسم مصر الطيبة المجيدة.

وإذ أعود للكلام عنك أحب أن أبدى لك إعجابى و دهشتى من شئ يتوفر فيك لازلت محتفظا به عن الكتاب العظام الأوائل وأخص منهم دستويفسكى (بلا أدنى مبالغة)، هؤلاء كانت الإشكالية الذهنية تتحول لديهم إلى مرض عضوى. وأنا قد وجدت هذا فى خطابك حينما تقول (هذا الكيان الإنسانى الذى كنته أنا قبل سنين التوقف، والذى كان يتوحد دائما فى لحظة خَط الكلمة أو تشكيل واصطياد أشتات الفكرة، هذا الكيان الخالق الذى كان يتوحد فقد القدرة على هذا الاحتشاد الكامل وغدا ناقصا).. إنك – مثلنا كلنا – تقف أمام إشكالية فكرية تتحول بالنسبة لك إلى ما يشبه العجز الذهنى

[1] رحل يحيى الطاهر فى حادث سيارة فى إبريل ١٩٨١

أوالمرض العضوى. وهذا لون من توحد الفكر والروح والجسم لا يتاح دائما. إنه إخلاص صوفى لا مثيل له.

ولنبدأ من الكل وننتهى إلى الفرد. الحكاية أن نظام عبد الناصر كان شكلا من أشكال الفكر والعمل له شخصية محددة لا أحكم عليها الآن. لكن الحياة الفكرية انشغلت بها تماما إما موافقة أو معارضة. ودون أن أصدر حكما ما على نظام السادات أقول إنه نظام آخر كلية. و أنا أفسر الخروج الشامل للمثقفين المصريين بأنه عجز فكرى عن التعامل مع هذا النظام. لا أقول إنه خوفنا من السجن أو الإرهاب وكثير منا احتملوا السجون فى ظل عبد الناصر ولكن أقول إنه العجز عن التواصل مع النظام الموجود. العجز عن السيطرة الفكرية عن الصياغة المطروحة وإيمان بأن مواجهتها بشعارات بسيطة مثل الاتهام وغيره أسلوب غير فعال.

وأنت واحد منا فى الحال الذى نعانيه والأمر بالنسبة لك هو التوقف عن الكتابة.. والسبب هو العجز عن استيعاب الصياغة المطروحة استيعاب عقلى، أى استيعاب الظاهرة بكل تاريخها وأبعادها العالمية والمستقبلية وفعلها فى عقل الجماهير وبشكل خاص القدر من الصحة فيها الذى ضمن لها أن تقف على رجليها أكثر من عشرة أعوام الآن وربما لأعوام قادمة.

وهذا يؤكد ما ذهبت إليه أنا فى خطاب سابق. أنا لم أقل أن الفنان عاجز عن الحب.إن كنت قلت ذلك فقط عبرت عن نفسى أسوأ تعبير.أنا قصدت أن الفنان ينشغل بالظاهرة ويقلبها على وجوهها طول حياته. إنك لو كنت أحببت الحاج صادق[1] لما كتبت عنه سطراً.إن الحاج صادق كان ظاهرة شغلتك بلا رحمة.

القضية أن إطار حياتك الخاص كان متوائما مع إطار الحياة السياسية العام تواؤما نادرا. فى قطب الحياة الاسمية يقف الحاج صادق وفى قطب الحياة السياسية يقف الحاج جمال عبد الناصر وأنت ثائر على الاثنين، تتزوج على غير رأى أبيك وتكتب عن بطشه بروحك فى» الليل الرحم». لكنها ثورة الابن ليست ثورة الملحد المنكر، ثورة المصرى الذى يهتف من أعماق أزمته:(حرام عليك يا رب)...هل تفهمنى؟

---

[1] والد محمد روميش

مهما كان القول فى السادات فهو لا يقدم للمصريين أباء ومهما كان القول فى السادات فهو قادم من منطقة أسخط الأبناء على أبيهم عبد الناصر وهو يمسكهم بسخطهم هذا حتى يخرسهم فيصمتوا أو يخرجوا من البلد. ذلك هو الإشكال الذهنى الذى نحن واقعون فيه.

إن الكتاب الأدباء فى العالم الثالث يختلفون كلية عن كتاب أوروبا. إننا سياسيون فى المقام الأول، لك قدر لا تستطيع الفرار منه.قضية المصير فى بلدنا سامقة حتى لا يمكن أن يكون حوار بين اثنين على مقهى لا يعرج على السياسة ولا يوجد كاتب فى العالم الثالث يقدم أدبا حقيقيا دون أن يكون فيه لون سياسى.

وهذا بالتحديد يتطلب فهما سياسيا.ولا أقصد بذلك تحليلا سياسياً لوضع قائم لكن أقصد استيعاب عقلى وروحى للنظام على كل مستوياته.إن قصة «العازف»[1] لإبراهيم أصلان لا تكتب إلا تحت نظام ناصرى وهى إذا كتبت الآن فهى بلا معنى.

الخطر الذى يواجهنا الآن هو نوع من الجمود عن مواجهة ما هو قائم والحوار معه.أى أن نتحول من كتاب الناصرية إلى كتاب مصر إلى كتاب العالم العربى إلى كتاب العالم الثالث. فإن نظام السادات قبل أن يكون فى مصر كان فى أجزاء أخرى فى العالم الثالث ونتيجة لسياسة الناصرية « الاستحواذ على عقلية أبنائها» لم تترك لنا الفرصة لمعرفة شئ غيرها. والقوى التى تؤيد السادات كانت موجودة فى المجتمع زمن عبد الناصر لكنه أخرسها ومنعنا من الحوار معها وذلك هو عجزناالآن عن أن نفهمها ونتكلم معها. أحس هذا فى رغبتك أن يكون علم طارق[2] بالناصرية علما محايدا عن طريق لا كوتير... ثم خوفك أن الصورة المحايدة ستبقى ناقصة.. بمعنى أنها باردة ليس فيها وهج ولاءنا و معارضتنا فى ذات الوقت اللذان خلقا قدرتنا على أن نقول ويكون قولنا جديدا فى تاريخ الأدب المصرى.

وعليه فتصورى أن الذين سيكتبون لمصر شيئا جديدا هم الذين بقوا فى

---

١ نشرت فى مجموعته القصصية الأولى «بحيرة المساء»

٢ طارق هو ابن محمد روميش وقد كتب فى رسالته إلى عبد الحكيم قاسم انه يريد أن يتعلم ابنه تاريخ ثورة يوليو من مراجع أجنبية لأنها اكثر موضوعية مما يكتبه المصريون.

مصر وهم الذين ظلوا ينظرون إلى النظام القائم ويجهدون بكل وسيلة أن يجدوا طريقة للحوار معه.أما نحن الذين لا نستطيع أن نفرق بين عاطفة الحب التى هى سلبية كاملة وعاطفة الحوار مع الظاهرة التى هى عاطفة اكثر عمقا وإيجابية وهى الضمان لبقاء القلب قادرا على الانفعال والعقل قادرا على العطاء. نحن لابد أن نقف الآن وأن نقول لأنفسنا أن عبد الناصر كان نظاما ولم يكن هو مصر كلها وأن الأب كان مرحلة فى حياتنا ونحن الآن أباء علينا مسئولية نحو أولادنا وأن السادات مرتكز على منطقة فى روحنا يجب أن نعرفها ونخاطبها لكى تعود لنا خصوبتنا وقدرتنا على الكتابة.

ولأن ما أكتبه الآن هو رد على رسالتك وليس مقاله لذلك تسمح لى بالانتقال المفاجئ إلى بضعة أفكار حول قصتى «سطور من دفتر الأحوال» وأولها تأثرى بالغرب. إننى حقيقة أعيش الغرب معايشة حميمة الآن بمعنى الاختلاط بالناس والأفكار وغيره.. ولكننى لازلت كما أنا قارئا غير جيد وعلمك بفرويد أكثر من علمى به فإن دراستى تفرض على قراءة الإسلاميات أكثر من علم النفس. لكنى على أى حال أتناول فكرة العنف،وأراه سمة من سمات مجتمعنا رغم ما يقال عن الشرق الملئ بالروحيات ولن أذهب بعيدا سأحاول أن أقرأ سطرا من «الليل الرحم» حيث تبدأ بمقتل السيد أبو دراع (كان عبد الشاطر قد أحاطه بذراعيه من الخلف، كانت فأس قد هوت على رأسه، وانبثقت نافورة دقيقة من دم أحمر، التقت عيون فتح الله وحامد مذهولين كل يسأل الآخر مرتعبا) فالمقتول ليس جحشا بل أبو دراع ابن الليل التائب الذى يقول وهو يموت:- معلهش..جزاه اللى يعيش نعجة بين الديابة.. ذلك عنف لا يمكن تجنبه، إنه مضفور فى خلايا المجتمع وهو غير عنف المجتمع الأوروبى الموجه دائما للخارج أى الذى يصدر فى شكل استعمار ومؤامرات.

و أما ما تقوله من أنك مشدود إلى متوسط معدل من سلوك الناس تصفه فى قصصك فهو صادق أو أنت صادق فيه فى لحظة قوله لكن كتابتك شئ غير هذا. والوهيدى وأبو دراع وفتح الله وعبد الشاطر و هانم وغيرهم، هم ليسوا أوساط الناس. والحقيقة أن أوساط الناس ليس لهم مجال فى الأدب. لأنهم أوساط بمعنى أنهم يلتزمون السلوك الاجتماعى المطروح من أوساط القوى

المسيطرة فى المجتمع يفعلون الصواب ويمتنعون عن الخطأ. وذلك الالتزام يجعلهم فى غاية العنف. بينما الناس الخارجون يكونون متزنين من داخلهم نفسيا عادة.

السؤال لماذا تقول هذا الآن وهو لا يطابق حقيقتك..إنك فى الحقيقة تخشى المبالغة.. تخشى عدم الحقيقة.. القتل الذى تصفه أنت هو الذى وقع، أما ما يراه غيرك فترتاب فيه..ذلك نوع من الطهورية فى الفكر التزمت فى التزام الصدق و التأثم من الكذب حتى من كذب الآخرين.. وهو ضار على الإطلاق. وهو يذكرنى باعتراض إبراهيم أصلان على قصة يحيى الطاهر عبد الله (جبل الشاى الأخضر) بأن الشاى لا يزرع فى مصر. والقضية أن صورة جبل عليه شاى أخضر بهرت يحيى والهته عن حقيقتها، هذا (التسيب)ضايق إبراهيم أصلان، هذه سمة موجودة فى جيلنا. وتمر بنا مواقف مشابهة لا أصفها مراعاة لحجم الرسالة.

أرى أن فرويد مفكر عظيم ولا أنكر أثره وهو إن كان يرجع العامل الحاسم فى تصرفات الإنسان إلى عوامل جنسية غالبا فإن علماء الاجتماع ينسبونها لتأثير المجتمع. ويوجد موقف أكاديمى يجمع بين المتناقضين وأنا أتخذه وأقول المجتمع والنفس عاملان حاسمان لكننى حتى أخفف من انتهازية موقفى أضيف عوامل الوراثة والخلقة والظروف الشخصية والمجتمع الصغير الأسرى الذى يعيش فيه الإنسان، إننى أغير كل هذه الفكرية حينما اكتب وادع ما يسمى (باللحظة) عاملا حاسما فى التأثير على سلوك الفرد، صياغة اللحظة تعتمد على العمل الأدبى كله حيث أنها جزء منه.

لا أريد أن أخذ موقف الدفاع عن قصتى أمامك فأنا اعرف أنك أحن على أعمالى من أم على طفلها. أن قصة «سطور من دفتر الأحوال» ليست مشروعا ذهنيا منمقا بل هى (ويا للعجب) دقفة شعورية باغتتنى وأنا اكتب رواية «قدر الغرف المقبضة» فكتبتهما معا وكتبت «سطور» دون مسودة ودون أن أعيد صياغة جملة واحدة منها لكننى على أى حال لا أعتبرها فلتة عبقرية. بل هى قصة، عمل لى ألتزم به ولقد قرأتها بعد ذلك مرات وأنا ملتزم بها ولى تفسير لكل ما جاء فيها. الحاسم فى تصرف الضابط هى لحظة عميقة مصنوعة من علاقته بأبيه وبأمه وبظروفه فى المجتمع الذى يطرد ويعزل البقايا العرقية

لألوان قديمة من الاستعمار. ثم أن اللحظة محكومة بعلاقته بزوجته، عمله في قرية نائية وهو ابن المدينة، ثم علاقته بزوجته ثم عجزة الجنسى.. أشياء كثيرة وعوامل معقدة متداخلة حكمت تصرفه. نقفز الآن إلى اللغة وأقول إن تعقد اللحظات يتطلب لغة تقول كثيراً فى كلمات قليلة وتلك لغة الشعر. ومن الصعب فى رأيى أن تتجنب القصة القصيرة اللغة الشعرية سواء أكان الأمر كامنا فى الصياغة الأسلوبية أو فى الصورة التى تجسدها الكلمات أو فى المحتوى الذى يقوله انتظام الصور.. اللغة مفروضة علىّ وهى مختلفة عن لغة رواية «قدر الغرف» أو لغة «المهدى» أو لغة «الأخت لأب» حيث لم تكن المواقف معقدة بهذا الشكل. لكنها شبيهة بلغة «البيع والشراء»، «الموت والحياة» حيث يكون الاضطرار لإحكام شديد فى التعبير عن تعقيد فى اللحظة يعطى عمقا فى الوعاء اللغوى.

ولكن ثمة غلطة فنية ضبطها حسنى عبد الفضيل وهى أن المنجل لا يقطع رأس جحش وقد وافقته على هذا الاعتراض وجعلت الرجل يضرب الجحش بالفأس حتى يفصل رأسه عن جسمه.. وهو اعترض على أن الخنجر لا يفصل رأس رجل فغيرت هذه التفصيلة أيضاً... كل هذا يثير تساؤلا هاما.. ما هو الواقع؟.. إن هذه مسألة لم تعد تثيرنى وأنا لا أهتم والناس كذلك لا تهتم بذلك أيضاً. يقولون(فلان قتل فلاناً) وذلك ليس وارداً على الإطلاق فكلمة من ثلاث حروف لا يمكن أن تحيط بفعل القتل.. هل تفهمنى؟ الأمر أن الناس يلخصون موقفا من هذا الفعل أواللاهتمام به.. ذلك بأن الاهتمام المطلق أمر لا يطيقه البشر.. وأنا لا أطيقه أيضاً.. أنا أسعى لأفهم.. والكتابة هى محاولة يومية للفهم.. وتذوق لانتصار الفهم.. الذى تكتشف بعد بضعة أيام أنه قاصر فتبدأ تكتب قصة جديدة. معذرة لأننى أضرب دائما مثلا واحداً وهو «الليل الرحم»..ولكن أليست محاولة للفهم و ألا توجد فيها فرصة الانتصار بالوصول لهذا الفهم.. أليست الأزمة لديك ولدى كثيرين أنا منهم هو توقفنا عن الدخول فى حوار مع عالمنا لمحاولة فهمه.

ثمة موضوعات كثيرة جدا أخرى فى رسالتك أريد أن أرد عليها لكننى أخشى أن تصبح رسالتى غير صالحة للقراءة لطولها و أكرس القدر الباقى لمسائل أخرى. أولا أن هذا التراسل بيننا اتخذ منذ البدء طابعاً نقاشياً حتى

غفلت عنه، أو غفلنا نحن الاثنين عن أن نسأل بعضنا حتى عن الأحوال وفعل الأيام وحتى أننى فوجئت باسم طارق ابنك، إننى لم أتصور أنّ لك أولادا.. ولا أعرف ما إذا كنت قد حكيت لك عن إيزيس وأمير وهما معى هنا، يتعلمان فى المدرسة الألمانى جنب بيتنا كذلك زوجتى زينب تدرس تربية فى الجامعة شئ أقلقنى هو إحساسى أنك لست على ما يرام لا جسمياً ولا نفسياً لا أدرى كيف وصلت أنا إلى هذا الإحساس و أخشى أن أكون بتقدمى فى السن أصبحت أكبر جدا فإننى أرهق أخى منعم بالسؤال عن صحته حتى أوقعته فى الحرج، لكن بالرغم من ذلك أحس أنك لست على ما يرام فحدثنى عنك وعنكم فى الكويت وكيف أيامكم ولياليكم، أنا هنا وحيد بشكل قاتل، ليس ثمة إنسان واحد أتحدث معه سوى زوجتى ولا يوجد مكان اذهب إليه سوى السرير وغرفتى.. وإننى بالمناسبة لعاتب على أسامة أنه لم يكتب لى.. ذلك أهم بكثير من أن أراسل مجلة كويتية وأكسب من ذلك مبلغا.. المهم أن يكتب لى صديق وأن يعيننى على أن أرى رغم تكاثف السحب الأوروبية الباردة.

لكننى أرسل لك مع هذا روايتى «قدر الغرف المقبضة» و آمل أن تجد لها ناشرا مستعدا للدفع فقد نشرت روايتى «محاولة للخروج» ولم يعطونى مليما. وستجد بطاقة صغيرة مع هذا الخطاب مسجل عليها اسمى ورقم حسابى فى البنك فى حالة تحويل مكافأتى عن الرواية أو نشر قصة «سطور من دفتر الأحوال» التى أشكرك على اهتمامك بنشرها و أشكرك أيضاً مقدما على اهتمامك بإيجاد ناشر لـــ «قدر الغرف المقبضة». وبمناسبة مراسلة أى مجلة كويتية يذكرنى هذا بتعاملى مع الأقلام العراقية، لقد كتبت لهم عن اللقاء المسرحى الألمانى فى برلين الغربية حيث تعرض كل عاما عشر مسرحيات ألمانية هى القمة فى الموسم كله ثم ينصب حولها نقاش رائع ومجادلات هائلة، هذا اللقاء يقام هذا العام أيضاً أفكر فى الكتابة عنه.. لكننى أتذكر مقالتى للأقلام للعام الماضى.. أرسلوا لى عنها خمسين دينارا عراقيا أى ٢٥٠ مارك ألمانى.. وأنا دفعت عشرة تذاكر عن كل واحدة عشرين ماركا غير ثمن المجلات والصور من المسرحيات التى أرسلتها ولم ينشروها. أريد أن أكتب عن ملتقى هذا العام لكننى أتذكر تجربة الأقلام حيث نشر مقالى وقد سقطت

منه صفحتين من النصف وحزنت حزنا شديدا.. لذلك لا أريد أن أبعث لمجلة إلا إذا كان المسئولون فيها يعرفوننى ويقدّروننى ويريدون تعاونى معهم ويحترمون ما أكتبه ويحسنون جزائى عليه ولمّا كنت أعرف أن هذا كثير فإننى أفضل إن لم يتوفر الشرط أن أسكت وحسبى أن أجد ناشرا لقصصى.

فإذا أراد رؤوف شحورى أن أراسلهم فليكتب لى يكلفنى ويحدد لى ما اكتب عنه ويحدد لى أجرا ثابتا أو بالقطعة، بغير هذا لا أريد.. أعذرنى يا محمد أنا تقدمت فى السن وإذا لم أجد من يقدرنى فإننى ألزم دارى.

تحياتى لك ولأسامة وكمال القلش وسمير عبد الباقى وكل من تراهم.. وفى انتظار رسالتك. علىّ أن آخذ دراجتى وأسرع للجامعة لسماع الأستاذ أوفرمان يحاضر عن جمهورية فيمار.. واليوم مساءا أرى جيزيل فى دار الأوبرا، ثم اشرب نبيذ فى محل اعرفه جنب الأوبرا ثم أعود.

عبد الحكيم

صباح الثلاثاء ١٩٨١/٥/٥

برلين الغربية ١٩٨١/٧/٢٩
أخى محمد الصادق روميش

إنه أنا الذى يسألك الغفران على الإحساس بالتقصير نحوى بلا أدنى مبرر. أتصورك فى سكك مصر وطرقاتها تمشى تتدافع مثل جمل قديم لا يشغلك أمر نفسك قدر ما يشغلك أن تفى للأصدقاء ببعض الذى تتصور أنه واجب عليك. مهلا يا محمد.إنك تقوم نحوى بأكثر مما هو واجب وبما أنا سعيد به غاية السعادة.

وصلتنى مجلة البيان ورأيت أنهم كرموا القصة بمكان بارز فى المجلة. وتسلمت النقود وهى تكاد تكون أكبر أجر تسلمته فى حياتى، حتى إنها شككتنى فى ذلك اليقين الذى رسخ عندى أننى مقدرعلىّ أن أكتب مجانا إلى آخر العمر. أقول هذا وأنا أتذكر أننى أخذت مبلغ ٦٠ جنيها من أجل «أيام الإنسان السبعة»، أما «محاولة للخروج» فلم يعطنى الناشر اللبنانى مليما واحدا مقابل أنه نشرها.... إننى حتى أفكر فى شكر رئيس التحرير على النشر والمكافأة.

وعليه فأنا أشكرك مخلصاً على اهتمامك بنشر القصة.وأذكر لك أن التصحيحات موجودة فى النص المنشور. ذلك بأنه يبدو أن النص الذى أرسلته لك كان مصححا. ربما، لا أدرى لكن القصة منشورة بالتصحيحات التى أردتها أنا.

الآن أحس بالندم على أننى أرسلت البطاقة البريدية. وآمل ألا يكون ارسالها قد أعطاك إحساسا بأننى أتعجلك أو أضغط عليك. الأمر أن خوفى من البريد أبدى. ودائما أتصور ضياع خطاباتى. لذلك أرسلت لك تلك البطاقة حتى أعرف فقط ما إذا كانت الرواية وصلتك أم لا. لكننى سعيد الآن أن أعرف أنك تسلمتها، بل وأنك أيضا قرأتها وأنه قرأها الصديق العزيز عبد المحسن بدر أيضا.

الآن فعلا أتعجلك وأضغط عليك أن ترسل لى رأيك فى الرواية، وأن تنقل لى رأى عبد المحسن بدر أيضا. انك لا تعرف ضعفى حينما أكون قد كتبت عملا، أكون فى غاية الضعف وفى غاية اللهفة. أريد أن أعرف كيف يتلقاه

الناس فاكتب لى على الفور انطباعك المباشر وما قد تكون سمعته من عبد المحسن بدر. أنتظر رسالتك بكل لهفة فلا تتأخر علىّ.

وبعد فإننى أسألك هل أستطيع أن أفهم من وجود نسخة من الرواية عند كمال القلش ومصطفى نبيل أن هناك أملا فى نشرها. إنها سعادة كبيرة لى أشكرك عليها وأنتظر أن تنبئنى بخبرها.

محزن أنك لم نستطع مقابلة يحيى حقى. أتذكر الآن محاضرته بالإنجليزية فى الجامعة فى برلين حيث تحدث عن أن المدن العربية لم تكن تعرف بآثارها ومبانيها الشامخة، بل بمن يقعد فيها من رجال العلم والأدب، يشد المريدون الرحال إلى هذه المدن للقاء هؤلاء الرجال والسماع منهم. وهنا رجل كبير، يكون الواحد بالقرب منه ولا يراه. إن ذلك محزن، لكن ماذا يفعل الإنسان فى عصر انسدت فيه المسالك، ماديا وروحيا، حتى لتكاد تفز سنا الكآبة وما نستطيع لها دفعا.

إنه لمّا لم يكن فى وسعى السفر لا أنا ولا زوجتى أرسلت ابنى أمير وبنتى إيزيس.

أتصورهما تائهين الآن فى وطنهما مصر، لا يعرفانه ولا يعرفان أهله ولا لغته. أكلمهم بالتليفون كل آن، أسمع منهما كلمات دهشة وكلمات فرحة خائفة. أقول فى نفسى ربما يكبران يوما وربما يعرفان. سيكون ليحيى حقى الذى رأياه هنا وسرتهم صحبته، سيكون له فى نفسيهما أثر كبير بالقطع. إن ثمة مقالة جيدة فى دائرة المعارف الألمانية عن يحيى حقى كتبها بروفسيور شتبت الذى أكتب عنده رسالتى للدكتوراه. وهو الذى دعا يحيى حقى أستاذا زائرا لمدة ستة اشهر فى برلين. وقد كتبت عن يحيى حقى جريدة (تاج شبيجل) مقالة جيدة أثناء وجوده هنا.

سيعود الأولاد الأربعاء القادم (٨/٥) وستعود الحياة إلى طبيعتها وسيفتتح المسرح الجديد لصق بيتى.أمنى النفس بعام خصب يكون من أهم أجزائه مراسلتى معك التى أتطلع بشوق الى استئنافها.

ولا زلت أتمنى أن تزورنى فى برلين.إنها مدينة هادئة منعزلة، لكن لها ذوق فى الفن حبذا لو جربتها معى.أتذكر الآن كونسرت كان معى فيه يحيى حقى وسألنى عن البرنامج فأخبرته خالطا أسماء القطع التى ستعزف مماسبب

له ارتباكا حيث أن ما قلته لم يتفق مع معرفته بالقطع. ضحكنا ليلتها كثيرا وشربنا الشمبانيا وحكينا عنك وعن أيام المجلة وكانت من السنوات التي لا تنسى والتى سعدت بها إلى أقصى حد زوجتى وزوجته. ترى هل أراك مرة فى برلين..إننى أتمنى ذلك لك

تحياتى وحبى
عبدالحكيم

برلين الغربية مساء الثلاثاء ١٩٨٢/٦/٨
أخى محمد الصادق روميش

أحس إننى كلما جررت شرطة أو نقطت نقطة سقط عربى فلسطينى أو لبنانى أو سورى على أرض لبنان برصاص الإسرائيليين ولا أقول لك أننى حزين،أنه إحساس بأن حياتى كلها ظلت سلسلة من الأخطاء وعليه فإننى فى اللحظة التاريخية الحاسمة[1] هذه أقف فى موقف الخطأ ولو أننى كنت أعرف الصح لسهل الأمر حتى لو بقيت على خطئى. الفاجع إننى لا أعرف، فأنا أواجه فناء ذاتى. أحسنى فريسة رهينة بأن يضغط الصياد على زناد بندقيته.

قال معلق ألمانى إن إسرائيل تريد إنهاء الوجود الفلسطينى كلية من لبنان ثم تطرد السوريين منه ثم تقيم حكومة موالية فيه وهى لن تخرج من لبنان قبل تحقيق هذا الهدف.وإذا تحقق فإنه يكون من السهل تدبير انقلاب فى سوريا يطيح بالأسد، فإنه من المعروف أن الإخوان المسلمين السوريين لهم منذ مدة علاقات ببيجن ويتلقون منه إعانات وتعليمات. يؤكد هذا أستاذ يهودى لديه وثائق بذلك فى كلية الاقتصاد السياسى هنا.

وإذا تم ذلك فإن المقاومة ضد الكيان الصهيونى تكون قد صُفِّيت تماما فى الشرق العربى بما فى ذلك منظمة التحرير. ولقد أعلن ذلك مسبقاً معلق ألمانى هنا. وقبله قال معلق آخر أن ذلك لو تم فإنه فى الحقيقة سوف يقابل بارتياح من الجميع حتى من العالم العربى ومصر وهذا ما قاله أيضاً فرنجيه ممثل منظمة التحرير فى ألمانيا الذى يقابل كدبلوماسى و لا ينبغى له إلا أن يكون حذرا فى تصريحاته لقد قال إن العرب يتركوننا وحدنا لمواجهة إسرائيل. وعلية فالعالم كله، أعنى الجزء القذر المسيطر فى العالم كله يرتب المجزرة بارتياح.. أعنى بذلك قيادات منظمة التحرير وحكومات دول الرفض وحكومات العالم العربى الأخرى وحكومات العالم حتى الاتحاد السوفيتى.

نعم.. فإنه قبل حوالى بضعة أشهر قابل معلق ألمانى شهير (شولاتور) ياسر عرفات وسأله عن مواجهة الجيش الإسرائيلى لو دخل لبنان؟ ابتسم ياسر عرفات وقال.. فليأتوا إلينا.. نحن هنا.. مرحبا بهم..! لقد كان ياسر عرفات

[1] أثناء غزو بيروت حيث كتب هذه الرسالة

يعرف أنه يكذب وأنه غير مستعد لمواجهة تفوق تكنيكى هائل وكانت دول الرفض تعرف ذلك، ودول العالم العربى ودول العالم حتى الاتحاد السوفيتى، ولم يحرك واحد ساكنا حتى الآن. ولقد أرسل معلق ألمانى رسالة من بيروت تقول إن الجو فى المدينة محير، أن الناس يجرون هنا وهنا، يضحكون كأن الأمر نكتة ويواجهون الطائرات المغيرة بأدوات دفاع غير كافية وينتظرون الجيش القادم كأنهم مخدرون.. وأقول أنهم مثلى يحسون بإحساس الفريسة التى يتعلق مصيرها بفوهة بندقية الصياد تنظر لها ذاهلة وتتمنى فى داخلها أن تنطلق الرصاصة حتى تنتهى فترة الانتظار الموجعة.

وإذا تم ذلك فإن المقاومة ضد الكيان الصهيونى فى المشرق العربى قد صفيت ويكون قد تم عزل المغرب العربى عن شرقيه تماما. بذلك تبقى ليبيا والجزائر بلا أى عمق فى الشرق. بذلك يكون الجزء الشرقى من البحر المتوسط بحيرة إسرائيلية تزمجر فيه السفن من الإسكندرية إلى بيروت إلى اللاذقية. وتحمل موانىء العالم العربى لافتات تُعلن عن بضائع إسرائيلية.. ويتعلم التلاميذ العبرية كلغة ثانية فى المدارس ويذهب عِلية القوم إلى جامعات عبرية!

أقول لك إننى أواجه كل ذلك بارتياح الفريسة التى آن لها أن تذبح بدلا من انتظار موجع طويل وهى رهن بندقية الصياد.. أقول لك أننى الآن أدرك كيف أننى عشت العمر كله أواجه فى وطنى قهرا حقيقيا وإذلالاً حقيقياً وأعيش مع ناسى مقاومة غير جادة وثورة مغشوشة وحماسة مدخولة. العمر كله أمشى فى مظاهرات وأحضر اجتماعات وأسمع خطابات وأعود إلى بيتى بارتياح قلق واقتناع مزعزع ويقين تشوبه الشكوك حتى أننى لأتساءل الآن أحقا أن هذا كله لم يؤثر على تكويني الأخلاقى وتكوينى الوجدانى وقدرتى على الإبداع. كيف يكون إنساناً جيداً من عاش عمره ثورة تعيش على الأمل. فى أمريكا ثورة هى مقلوب لكلمة الثروة،ثورة فلاسفتها مأجورون وكتابها انتهازيون.

تلك نهاية جيلنا، جيل فشل نهائيا وعلى كل المستويات وبعد الانتصار الإسرائيلى سيكون على نطاق العالم وضع شاذ مؤداه إذلال أمة كاملة فى عالم تنتصر فيه الأمم فى كل مكان. هل يكون بوسع جيل جديد قادم أن يلقى من

على ظهر الأمة بهذه الحكومات ليفتح الطريق أمام تطور جديد.

أخى محمد.

هذا الجزء من خطابى أملته الظروف التى نعيشها وهو جزء عاطفى فى محتواه وشكله وهذا ما لم يكن بالوسع تجنبه. إنه كان ينبغى أن أرد على خطابك الأخير منذ مدة لكنه ضاع منى بعد أن قرأته مباشرة ظللت أبحث عنه طويلاً دون جدوى لم اكن أبحث عنه لأذكر نفسى بكلماته حتى أجيب عليك.بل لكى تبعث فِىّ مرة أخرى تلك الحماسة الخارقة التى تحتويها كلماته.كأنما كنت أراك فيه خطيباً يونانياً على صخره وحوله الناس، أو ولياً من أولياء الله الصالحين عليه خشن الثياب يعظ حتى تلين القلوب المتحجرة.

وربما لأن خطابك ليس أمامى الآن وربما لأننى فى مزاج منكسر ساقط بسبب الأحداث فإن ردى على خطابك سيكون بارداً باهتاً فأعذرنى وأعلم أننى غير ذلك فى غير هذه الحال. الأمر أننى كنت أتوقع هجوماً على رواية إدوار، وهجوما من هذا النوع، لكنى لم أكن أتوقعه من محمود عبد الوهاب، إننى أعرفه جيداً وهو ليس بالرجل الذى فى داخله هذا العوج، الأمر الهام أننا فى مجتمع مشوه تمتلئ قلوبنا بالسخط و نحتاج أن نصوغ سخطنا فى عبارة. عندئذ يملى علينا المجتمع المشوه عبارة ساخطة، عبارة سخط نفرغ فيها سخطنا لكنها ليست هى أساس سخطنا ولا هى قريبة منه.هل فهمت عبارتى؟ سأضرب لذلك مثلا. إذا كانت الجماهير العربية ساخطة لعدم قدرة مصر على مواجهة إسرائيل فإن أجهزة الحكومة تقدم عبارة مشبوهة لإفراغ هذا السخط هى كراهية الفلسطينيين، والجماهير تقبل على هذه العبارة حتى تنتهى للاستسلام المذل لإسرائيل.

ولذلك فإن الشىء الباهر فى خطابك لمحمود عبد الوهاب إدراكك أن الرواية جديرة بأن تنتقد من زوايا أخرى وليست من هذه الزاوية بالذات وأنا أعتقد أن هذا هو الجوهر الحقيقى لسخط محمود عبد الوهاب الذى أخطأ التعبير عن نفسه. والسؤال لماذا أخطأ سخط محمود عبد الوهاب التعبير عن نفسه؟ والإجابة السريعة هى التربية الرديئة فى مجتمع ردىء. لقد أدركت أنت هذه النقطة فى ملاحظة باهرة عن أن لغة محمود فى هجومه على هذه النقطة هى لغة سياسية أى لغة الحكام أى لغة ملقنة وليست نابعة من وجدان محمود

عبد الوهاب الحر.

لكن سيدى ومولاى، إذا كنت أعيش مجتمعاً رديئاً،ثم أجد فسحة من الوقت لكى أقرا قصة.لنقل مثلا «الليل الرحم». أو «العازف». أو «الخطوبة» لبهاء طاهر. إن أى عمل من هذه الأعمال قادر على أن يخرجنى من اندماجى العضوى بالمجتمع ويضع هذا المجتمع بارزاً حتى أراه وأحيط به وأدرك مأساته ولا أكون ضحية لهذا المجتمع. محمود عبد الوهاب قارئ جيد وهو إنسان مخلص ومحب فأعتقد أنه قرأ الرواية قراءة حسنة.والرواية سطراً بعد سطر ملأته بالعداء لها فلماذا؟ أنت أخرجت كثيرا من نقاط الضعف. لكنك لم تر خطأ الرواية الفادح.

ولو أن هذه الرواية كتبت و نشرت أيام توهج أحاسيس القومية العربية لكان قدرها قدراً أخر إنشاءا وتقبلا لكن هذه الرواية قدمت فى وقت أصبحت فيه سياسة عزلة مصر سياسة رسمية.وحينما تقاسمت المشاعر الدينية أحاسيس الناس وحركتهم السياسة وحينما تقبلت مصر العدو الأزلى الحقيقى للأمة العربية على أساس كونه دولة دينية مجاورة.تلك كانت بداية لكى يرتفع فى مصر الصوت الذى يقول أن تكون مصر هى الأخرى دولة دينية.والخيار المطروح فى هذه اللحظة هو أن تكون مصر دولة قبطية أو فرعونية لأن مصر إسلامية معناه فوراً عودة القومية العربية والعداء لإسرائيل من جديد. وذلك هو الجنين الفكرى السياسى الذى حبلت به مصر فى عصر انحطاطها تحت حكم السادات.وذلك هو المزاج الفكرى الذى دفع بإدوار الخراط إلى مكتبه لكى يكتب روايته. ولكى تحكم على هذا المزاج الفكرى لابد أن تحاكمه سياسياً ليس بهدف إدانته بل بهدف تقييمه موضوعياً. وليس ذلك شديد الصعوبة فإن هذا الاتجاه نشأ غير واثق من نفسه، متردداً متخاذلاً ومتلصصاً حتى أنه رضى بأن يكون التعبير السياسى عنه هو أنور السادات ومهادنة الاستعمار وأمريكا والرضى بإسرائيل. وهذا المزاج السياسى كان يجب أن ينعكس على بناء الرواية وعلى لغتها وعلى موقفها من المرأة.. وأقول حتى على موقفها من القارئ.. أى قارئ..حتى أنها تفقد كل التعاطف معه وتثير غيظه حتى ليكتب ضدها.

وإذا كانت الرواية قادرة على أن تملأ قلب القارئ بالسخط، فليست تلك

هى قدرتها الوحيدة إنما هى إلى ذلك قادرة على أن تمده بعبارة مغشوشة للتعبير عن سخطه حيث أنها تنزل بمستوى الجدل مع القارئ فى أعز ما يعتز به من مشاعر إلى مستوى الإهانة فلا يكون أمامه إلا أنه يزداد تمسكا وأن يرد على الإهانة بإهانة مثلها ولا يعنيه أن يكون موضوعياً.ذلك هو تصورى للقصة. الرواية أغاظت قارئاً ممتازاً وناقداً جيداً فأخرجته من طوره وجعلته يقول كلاماً لا يقصد أن يقوله لو كان فى حاله الهادئ الرصين.

لكنى بكل ما قلت تماديت فى إدانة إدوار حتى أوشكت أن أجعل منه شيئاً رديئاً، وأى كلام يجعل من إنسان شيئاً رديئاً هو كلام يملك فى ذاته أو يحتوى فى ذاته على عناصر نقضه فإذا أضفنا لذلك صيحتك المدوية (أنا إدوار الخراط)أصبح الأمر حرجاً.و إذا كنت أعتقد أن بوسعى أن أضم صوتى بصوتك وأقول أنا أيضاً(أنا إدوارد الخراط)يصبح كل ما قلته عن روايته نفاقاً ما لم يفسر تفسيراً آخر وهذا واجبى.

تقول الماركسية إن التاريخ ليس نهراً متدفقاً بلا نهاية، بل هو سلسلة من حلقات، كل فقرة تاريخية تمثل حلقة وكل فترة تتميز بقوانينها الخاصة وتنتهى وتنشأ فترة جديدة بقوانين جديدة وإذا بقيت بعض الأشكال من فترة لاحقة فهو ظواهر جانبية غير مؤثرة وأنا لا أصدق هذا الكلام تماماً وأقول أنه إذا صدق جزئياً فى الاقتصاد فإنه لا يصدق ربما نهائياً فى الظواهر الروحية والعقلية و المزاجية.

فإذا رأينا أن تاريخ مصر فيه ثلاث حلقات هامة هى الفرعونية والمسيحية والإسلامية وأن كل حلقة من هذه الحلقات هى ثقافة كاملة وإذا كنا لا نصدق دعوى انفصال الحلقات انفصالاً كاملاً فإننا يجب أن نقر بأن الشخصية المصرية هى مزاج من هذه الثقافات الثلاث. لكننا لكى ندرك سر هذا المزاج يجب أن نتأمل هذه الحلقات واحدة بعد الأخرى.

لاشك أن الفرعونية كانت نظاماَ سياسياً وجيشاً وأسطولاً وفلسفة وديناً ورقصاً وموسيقى وأدباً وفنوناً. كانت شيئا يستغرق وجدان الفرد المصرى كله بلا أى مساحة لتأثير فكرى آخر(من أين..؟ كأن العالم كله هو مصر) غريب. وحينما دخل الهكسوس الدلتا وبقوا فيه خمسين عاماً (؟) فإنهم بعد ذلك خرجوا وعادت مصر إلى ما كانت عليه ثم جاء الفرس ولم يتركوا

أثراً ثم جاء الإسكندر.وجاءت مع الإسكندر الثقافة اليونانية التى هى حوار حاد وتطوير مذهل للثقافة المصرية. عند ذلك نشأت تحت البطالمة مدينة الإسكندرية الهلينية وأصبحت مركزاً هاماً من مراكز الثقافة اليونانية أكثر أهمية بكثير من أثينا.

لكن جسد مصر ظل فرعونياً منفصلاً عن الإسكندرية وهو بهذا بدا يتعفن، تتدهور اللغة و الآداب والديانة وتصير التمزقات والخلافات والأساطير ودخل الرومان مصر عام ٣٠ قبل مولد المسيح ولا نستطيع أن نقول أن تغيراً هائلا حدث. إن الثقافة الرومانية اشتقاق من الثقافة اليونانية واليونان احتلت جنوب إيطاليا زمنا طويلا التغير كان إداريا والجسد المصرى الفرعونى بقى يزداد عفنا وتمزقا ويمكن أن نقول أن حالة الشعب المصرى لم تكن فريدة فى شعوب المنطقة كذلك كانت الشام أيضاً تموج فى شعوبها التمزق والعفن وتمتلئ بأنواع الفكر وتحول اليهود منذ تحطيم معبدهم وبقايا دولتهم عام ٧٠ قبل الميلاد على يد تينوس بن قيصر روما تحولوا إلى شرازم الصيارفة والتجار وعملاء السلطة.

هذه الحالة الشاملة كانت تستدعى نبياً وكان مسيحاً يدعو الجماهير للصبر وترك ما لقيصر لقيصر لكنه كان يعطى الجماهير اسماً ويقول أنهم أعلى من حاكميهم وأنهم أبناء الله، تلك كانت مقاومة سلبية تدعولنوع من الصمت المتعالى النبيل. انتشرت الديانة فى مصر، ولكن ذلك تم بطريقة عجيبة، أنها لم تنتشر انتشاراً شاملاً ظل الصعيد يعبد إيزيس، امتلأت مصر بالجاليات الأجنبية وخاصة الشرق الذى امتلأ بقبائل عربية تتكلم لغتها. اللغة العبرية لم تنتشر، هى لغة روايات الحواريين التى سميت بعد ذلك بالإنجيل(أى البشارة) بل نشأت اللغة القبطية وهى لغة مصرية متطورة عن الديموطيقية التى هى تطور من الهيروغليفية و متأثرة إلى حد كبير باليونانية.

لم تستطع الجماهير المسيحية أن تنفرد بحكم مصر وتنشئ ثقافة مسيحية حقيقية والتراث القبطى تراث هزيل ولا يمكن أن يكون ثقافة شامخة مثل الفرعونية ولا العربية بعد ذلك والجماهير المسيحية كانت ثائرة ثورة متعصبة غير واعية دعت إلى تحطيم الآثار المصرية القديمة تحطيماً كاد يكون نهائيا.

كان هذا أيضاً حال الشعوب فى الشام أيضاً: بقيت تحت حكم الرومان مسيحية مضطهدة غير قادرة على تغيير حالها والحواريون فرادى كل واحد فى إتجاه يروى قصة المسيح للناس. لكن الحال لا يتغير.

كانت هذه الظروف تستدعى نبياً جديداً. وفى الحق أن محمداً ليس بدوياً مكياً ولكنه مثقف شامى قضى عشرين عاماً يتردد على الشام ويسمع من مثقفيه يناقش رهبانه وقسيسيه.ثم يعود إلى بلده ويعلن عن دين جديد أقدامه فى مكة وعيناه تتطلعان إلى دولتى الروم والفرس حتى يفتح عمرو بن العاص مصر وتبدأ الحلقة الثالثة من حلقات التاريخ المصرى.

فإذا تأملنا الحلقة الوسطى وجدناها أضعف الحلقات وأنت لا تكون مخطئاً إذا تغاضيت عنها وقلت إن مصر فرعونية هلينية إسلامية بل إنه فى الحق أن ثقافات المنطقة كلها هى هذه. وثقافة أوروبا الحالية هى تطور للهلينية والإسلام.ذلك بأن أى ثقافة هى حكومة وإدارة وجيش وعمارة وموسيقى وآداب وصناعة وكل هذا لم تستطع المسيحية فى مصر ولا فى أى مكان فى العالم تحقيقه (ولا حتى فى أوروبا المسيحية). وإذا انتشرت المسيحية فى مصر بين الجماهير فإنها كأى ديانة أو مذهب جديد ينتشر فى أى شعب تكون حماسية ومتعصبة ومجتاحة. وهكذا كان المسيحيون المصريون شديدى العنف على بقايا الديانات المصرية القديمة. هذه البقايا كانت تمثل احتجاج الضمير المصرى على همجية الجماهير المسيحية. وكان من هؤلاء البقايا شهداء وأبطال ضاعت أسماؤهم فى فوضى عدم التسجيل. من ناحية أخرى كانت الجماهير المسيحية المصرية تقاوم الاحتلال الرومانى ببطولة دفاعاً عن تدينها أى دفاعاً عن اسمها وهويتها فقط وقدمت فى ذلك شهداء يعرفهم التاريخ ويحفظ أسماءهم.

ولما دخل الإسلام مصر أقبلت الجماهير المسيحية على اعتناقه إن رغباً وإن رهباً. وبقيت قلة من المسيحيين على مسيحيتها ممثلةلاحتجاج الضمير المصرى على همجية وعنف وعسف المسلمين الأوائل. تلك الحلقات واحدة وراء الأخرى.

لنعد مرة أخرى إلى الحلقة الوسطى، إنها إذا أردنا الدقة الشديدة جزءان جزء هلينى فى الفكر والثقافة والفن والفلسفة (وهو هلينى – رومانى فى الإدارة)

وجزء مسيحى فى الشعب ووجدانه.الجزء الهلينى الرومانى امتصه الإسلام فى نظام الأسواق والموازين وأصول الفقه وعلم التوحيد ونظام العمارة وأداة الحرب.الجزء المسيحى امتصه التقى الشعبى الإسلامى فى تمجيد الأولياء ومزاراتهم وغير ذلك مما هو أشبه بالمسيحية العربية منه بالإسلام المصرى. وباقى هذا الجزء بقى فى شكل جماهير مسيحية وكنائس وأديرة ورهبان وطقوس.

الجزء الأول الذى امتص فقد شخصيته ليذوب فى الكيان الإسلامى. الجزء الثانى المسيحى بقى كاحتجاج صامت نبيل على كل ما يمكن أن يكون من همجية الأغلبية وغطرستها. إعلم أنه من أتعس أيام التاريخ أن تكون مصر مائة بالمائة مسلمة.إنها لن تكون أبداً مصر تلك التى هى نحن..هى نحن حتى الدمع.

وأعلم أننى مسلم بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى. وعظمة إسلامى تكمن فى أن جزءاً من داخلى مسيحى ولقد تعلمت بالزمن أن أحبه وأجله وأتركه ينمو ليكون أماناً لى من أن تنمو فى داخلى أشياء رديئة وخطابية وغير ذات قيمة.

واعلم أيضاً أن إدوار الخراط مثقف مسلم لأن المثقف المسيحى لا يوجد على الإطلاق لا فى مصر ولا فى غيرها وإدوار الخراط مثلك ومثلى مغروس فى صميم هذه الثقافة العربية فهو لا يسعده أن يكون مثقفاً غربياً. إنه مثقف مسلم. لكن الجزء المسيحى فيه مختلف عنى وعنك.ذلك بأنه متدين مسيحى. لقد فاجأته وهو عندى بملاحظة صغيرة أن لغة الرواية لغة قرآنية وليست لغة توراتية مثل شعر صلاح عبد الصبور المتأثر بنشيد الأناشيد وقد أقر إدوار بذلك.

إنه أذن مثقف مسلم مغروس فى الثقافة الإسلامية إلى أذنيه لكن الجزء المحتج فيه على ثقافة الأغلبية جزء حساس وربما متورم. وهو من حقه تماما أن يتورم وأتصور أننا نعيش فى مجتمع تنظم فيه الدهماء الجاهلية المتعصبة فى تنظيمات إسلامية تحاول أن تسمى إدوار الخراط ولويس عوض وأنور عبد الملك ونجيب محفوظ (طبيب الولادة) سليمان مرقس. تحاول أن تسمى هؤلاء أهل الذمة وأن تحرمهم من الممارسة السياسية وقرآنهم يقول أن

المسيح ليس إلا بشرا وأن كتابهم المقدس ملىء بالتزوير تلك وقاحة. فإذا كان الرد مريرا وشاذا فعلينا أن نتقبله صامتين.وإذا أردنا أن نقول عنه شيئا فلنقل قبل ذلك أننا مسئولون تماما عن تطور أدى إلى وجود هذه الاتجاهات.

خطأ الرواية هو فقدانها للبسالة بحيث أنها ظهرت فى وقت ازدهار مثل هذه الدعاوى الدينية كراية لحركة ردة عن كل خطى تقدمية ومجيدة قامت بها مصر ضد الإمبريالية وضد الصهيونية وضد الرأسمالية المحلية تحت قيادة شخص نصف موهوب نصف متهور ومفلس أخلاقيا ووجدانيا هو أنور السادات وبطريرك هو مثقف طموح محبط معقد وضيق الأفق.

خطأ الرواية الفادح هو فقدانها لبعد الرؤية حيث لم تر كل الذى سبق أن أشرنا إليه لم تحاول أن تضع الميل المسيحى الغامض تحت مجهر النقد فى وقت تنمو فيه اتجاهات معادية لما هو جيد. فقدان الرواية للبسالة ولبعد الرؤية يتحول إلى عيوب فى بنائها وفى تركيبها وفى عواطفها وفى كل شئ فيها مما ذكرته أنت من عيوب، ذلك بأن الكاتب وهو يكتب فقد نبوته، أى اتصاله بالمعذبين المصريين من استغلال الطبقة الحاكمة. كانت صيحته أنا قبطى وكان المطلوب أن يقول أنا مصرى. ضد إهانة المواطن المصرى وتجهيله وتحويله إلى كتلة عمياء منقسمة إلى قسمين قسم يصيح صيحات إسلامية وقسم يصيح صيحات قبطية..

لو كانت الرواية كتبت فى عهد عبد الناصر لكانت نشأت رواية أخرى لها نبالتها وبسالتها واتساعها أفقها ولكانت تخلصت من كل هذه العيوب. لكن لم يكتب رواية فى عصر عبد الناصر حتى وإن كتب الأجزاء الأولى منها فى ذلك الوقت. بل أن إدوار فى عصر عبد الناصر وإلى الآن كان يعمل فى أشد الأجهزة الناصرية التصاقا بالناصرية. فالجزء المسيحى فيه كان يمرض ويعانى. غير ذلك أنت أو أنا الذين بقينا أكثر التصاق (بمسيحيتنا) و إخلاصا لها.

ولقد قلت فى رسالتك إنك لم تر خطأ الرواية الفادح، أنت رصدت الأعراض لكن لم تضع يدك على الخلل الذى أدى لها. ذلك بأنك تؤكد إيمانك بالفرعونية لكن هذه حلقة (حفرية)من حلقات النمو المصرى وهى ليست كالهلينية التى عاشت بعد ذلك فى الفلسفة الإسلامية والغربية والفن الرومانى والغربى والمسرح الغربى كله حتى الآن ومع ذلك لا يمكن أن يزعم

أحد أنه هلينى، إنك لا يمكن إلا أن تكون مثقفا مسلما. لكن زعمك هذا يعطل إحساسك بأن فى بعض الأحيان يختل توازن الحلقات الثلاث فى تكوين الفرد المصرى حتى وإن كان هذا الاختلال سببه بربرية دهماء مسلمة منظمة ومتعصبة وعدوانية.

هذا عن رواية إدوار الخراط وموقف محمود عبد الوهاب منها الآن كلمة عن رسالة لك أرسلت فيها الشيك الذى هو أجرى عن رسالة للبيان أتصور أن هذا الخطاب أوقعك فى الحيرة. قد علمت ذلك وأنا أرسله لكنى كنت ساخطا لدرجة كان لا بد منها أن أصنع شيئا. وأنا لا أدرى ما الذى صنعته برسالتى وبالشيك الذى أرسلته لك فيها. أن كنت تصرفت أى تصرف فاكتب لى عنه أو احكى لى عنه فى مصر حينما نتقابل وإذا كنت لم تصنع شيئا فلا بأس ارسل الشيك لى إلى هنا أو احتفظ به معك حتى لقائنا فى مصر آخذه منك إذا كان الوقت ضيقا. لقد كلمت جميل عطية فى هذا الموضوع فحكى لى أن مجلة البيان مجلة فقيرة غير معانة من الدولة وعليه فهم لا يمكنهم دفع نقود أكثر.وأنا من ناحيتى لا أستطيع أن أكتب لقاء هذا المبلغ وعليه فالأمر واضح والعقد مفسوخ وأنا لن أرسل لهم إذا لم يبدوا استعدادهم لدفع خمسين دينارا عن المقالة الواحدة. هذه قصة انتهت سأكتب لهم بذلك بكل وضوح. اعلم أنهم لن يوافقوا ولن يحزننى ذلك.

حكى لى زينهم ابن شقيقتى عن لقائه معك وقال لى إنه عزمك لزيارة بلدنا. ولقد دهشت لهذا.فأنا أعرفك منذ سنين ولم أفكر فى عزومتك ولم تفكر أنت فى ذلك. لكن ابن أختى فكر فيه... هل تعتبر القاهرة الآن دارنا.. هل نسينا القرية.. ذلك الأفق السحيق فى كياننا..؟

المهم.. لابد أن تنتهى الآن هذه الرسالة وفيها تنتهى فترة تاريخية هامة لى ولك.. نحن نعرف بعضنا منذ سنين لكن لم يتم بيننا تبادل فكرى على هذا المستوى قبل ذلك. سنعود إلى مصر كلانا وسنتذكر هذا الوقت (الكويتى- البرلينى) ستكون لمراسلتنا هذه تأثير كبير على مستقبل علاقتنا وعلى مستقبل تصورنا للأشياء.

لقد تعلمت منك أشياء كثيرة وعرفت معك مستويات أكثر عمقا وساعدتنى رسائلى إليك على أن أصوغ أفكارا كانت عندى سحبا من المشاعر غامضة.

أشعر بالرضا أن هذه الرسالة تمت.ولقد احتفظت بكل خطاباتك وبصور لمعظم خطاباتى فهى ستبقى ولن تضيع.

حينما تصلك هذه الرسالة لن يكون باقيا من الوقت ما يكفى للرد علىّ فلا ترد وسنتقابل فى القاهرة.. لن انتظرك على المطار إلا إذا وصلنى موعد ورقم الطائرة.. وإذا لم أفعل فسأكون فى انتظارك فى بيتى الذى تعرفه..إننى فرح بمصر وبالأصدقاء وأتمنى لنفسى هناك وقتا سعيدا

تحياتى لك وإلى اللقاء
عبد الحكيم قاسم
مساء الاربعاء٩/٦/٨٢

ملحوظة:

سمعت فى هذه اللحظة خبرا عن سقوط «دمور»[1] فى يد الإسرائيليين وأنهم يتقدمون فى لبنان نحو بيروت أننى فى حالة نفسية فى غاية السوء أتمنى أن ينتهى هذا الوقت المروع بأى شكل.

---

[1] إحدى القرى اللبنانية هكذا وردت فى أصل الرسالة

إلى حسنى عبد الفضيل

برلين صباح السبت ؟[1] /٨/٧٦
أخي حسنى

أذكر شعرا لشوقى خميس يبدؤه بدعاء
يا ربات الشعر المجد لكن
يا من صغن العالم لحن
وأذكر أن دعاء شبيها يكون في مفتتح القصائد الطوال، ربما يكون الشاعر فريسة الخوف من ألا تحيط قدرته على القول بما في صدره من شوق ورغبة في الإفاضة، وإننى لفى مفتتح الكتابة لك الآن فى قبضة خوف شبيهة، حصر الوقت وحصر العجز وامتلاء القلب، أهدى إليك هذه (العينة) التي تعيننا على القدرة فى هذه اللحظة، وأتعزى بما كان بيننا دائما من استشفاف يجعل للكلمات آفاقا، شواسع تتردد فيهن الأصداء.

لا يعدل حنقى عليك إلا اتساع قلبى للغفران لك، فآخر ما وصلنى منك قبل الذى فى يدى وصف مروع للمرض الذى نزل عليك ورددت فورا، وما كنت بصدد حديث رخى البال، بل بصدد ترتيب سفرك لى، وانتظرت أن تبرق بوصولك، فلما لم يصل منك شيء كان التفسير الوحيد أن المرض زاد عليك وأنك سافرت لمصر وربما أنك مت، لقد كان وقتا قاسيا، فإننى رجل صلب عزيز الدموع، ولكنى أقول لك أننى لا أحتمل أبدا أن يموت لي صديق أو أن يعجزه المرض، لقد عشت وأعيش فى برلين تجربة أليمة (مثمرة) ولكن أشد مافيها وطئا هو أننى أقصيت عن دائرة الأصدقاء، هذا التحاوب الفكرى والوجدانى العميق غاب عن حياتى فأصبحت قاحلة كصحراء، ربما أدركت زينب هذا بغريزة المرأة، أو بغريزة (الوليف) ففرحت لخبر قدومك وهى التى لا ترحب كثيرا بالضيوف.

وإذا كنت قلت فى خطاب لى إننى أنسى ما أقول فليس للكلمة دلالة أخرى أبعد من دلالتها اللغوية، نحن نكتب، نبادل أصدقاءنا الرأى والشعور، نلقى عن أكتافنا ثقل اللحظة ثم ننسى (في غالب الأمر) ما قلناه، ليس هذا سوى

---

[1] لم يحدد قاسم يوم كتابة هذه الرسالة وترك علامة استفهام مكانها ربما ليتذكر فيما بعد أن يكتب التاريخ كما أنه من الواضح أنه كان يكتب رسائله على مدى اكثر من يوم

أحد عيوبنا القديمة، وربما هو لون عن عدم الثقة بالنفس، ما نراه، ما نحسه يكاد يكون كالعيب، كالعورة (فى الدين) لا نكشفه إلا أمام الأقرباء الحميمين (المحارم)، ولقد دهشت د.سلوى نور جدا وأنا أحدثها عن رسالتى وما أنوى أن أقول فيها، قالت إننى كلمتها مرتين مختلفتين بطريقتين مختلفين وفى كل مرة عدد من الأفكار الجيدة أطلقها هكذا والصحيح أن أتبعها وأرصدها وأضعها فى سياقها من عمل علمى، قلت لها لقد رحلت إلى هنا وتحملت ما تعلمينه من المشاق لأتعلم هذا، سيدتى وما يزال فى العمر بقية.

وإذا كنت قد جعلتك غريبا عن عالمى الجديد فما عمدت إلى هذا أبدا، وما أريده، بل إننى محتاج لقرابتك إلى عالمى هذا وأظن أنك محتاج لهذا أيضا، وبوسعى أن أكرس للمراسلة وقتا وجهدا لن يضيعا هباء، أوفى سبيل متعة قليلة بل في سبيل مواصلة جهدنا الشاق معا لنعرف أكثر ولنرى أبعد ولنكون أفضل، هكذا وليس فقط من أجل أن تجمع لي الكتب (وهذا فى ذاته أمر شديد الأهمية بالنسبة لي يكاد يكون فى أهمية أن أنجز رسالتي أولا أنجزها)، إن عملي هنا هو مرحلة جديدة فى رحلة طويلة التقينا أنا وأنت على دربها فى الإسكندرية ثم لم نتخل عنها حتى الآن لحظة واحدة (معا دائما) وسوف لا نتخلى عنها أبدا (معا دائما)، وإنه ليفجؤني الآن أن جزءا من هذه الرحلة خاف عنك، لا لأن ذلك غريب، بل لأنني أفترض دائما (افتراضا ميتافيزيقيا) أنك معي وأنك تعرف كل شيء عني.

الآن فى هذه اللحظة أحاول أبدأ (توصيفا) لهذه الحقبة من حياتي (بتعبير المهندسين) بهدفين الأول أن الكتابة محاولة للسيطرة العقلية على هذا الواقع، أحاول أن أستخرجه من دائرة سحب الهم التي تملأ آفاق وجداني، أحوله إلى كلمات منطوقة مكتوبة، شيئا أمسكه وأتحسسه وأقول فيه رأيا. فقد كنت أكتب يومياتي حتى حضرت زينب وبمصادفة قرأتها جميعا وكانت زوبعة كادت تعصف بحياتنا معا، ولم يعدها شيئا منذ أكثر من سنة، إن حضور زينب الشامل فى سكن مؤلف من غرفة واحدة كبيرة وغرفة صغيرة وغرفة بعيدة كما هذا الحضور الشامل المتوجس المستريب المفتش المدقق يحرمني من الانفراد بنفسي نهائيا، يصادر تماما أى قدرة على العزلة والتأمل، الآن أكتب بأمل اصطياد الطيور التي تفزعها النواطير المخيفة.

الهدف الثاني أن أقتسم معك عالمي هذا، اقتسمنا الأشياء دائما وكانت القسمة مخصبة للفكر دافعة للعمل،لى فيك أمل لم يخيب أبدا، لقد سافرت ورأيت، وإذا فردت أمامك منديلي وفرشت عليه أشيائي فإنك مقلب فيها تقليب الحريص، وذلك شيء نافع لنا، أنت أيها الصديق الكريم فيك تنزه غريب عن أشياء فى طرز الناس التي أعرفها هنا تجعل علاقتي بهم عقيمة تماما حينما خرجت عن دائرة الأصدقاء إلى هذه الغربة فى برلين تعلمت كيف أن هؤلاء الأصدقاء يكادون أن يكونوا بشرا آخرين.

الآن أنظر خلفي فأجد اثنين وثلاثين شهرا،، تألمت فيها كثيرا وشقيت وتعست، لكنني لو عدت للوراء مائة ألف مرة لاخترت أن أرحل وأن أعيش ما عشت، وحينما أنظر خلفي أبعد وأبعد أجد أن الرحلة إلى أوروبا تنسجم مع منطق الحياة كلها، طفل فى البندرة، تلميذ فى ميت غمر، الثانوي فى طنطا، طالب فى الإسكندرية، كاتب فى القاهرة، ثم أكاديمي فى برلين (منطق) ثم أن يكون لأوروبا كل هذا الفعل فى حياتنا يكاد يصل إلى صياغة أقدارنا، ثم لا نرى هذه الأوروبا ولا نتحسسها ونشمها.. أشواق لها صنعت فى عربات المترو فى اسكندرية والبنات الجميلات والرجال النظاف الأقوياء يتكلمون اللغة الأجنبية ونحن لا نكاد نفهم كلمة، ثم ذلك الشوق (للترحال) كمعنى مجرد، وأن تثبت أنك قادر على أن تخرج وترى وتعرف هذه الطلاسم التي يتفون بها ويسكننوننا بها هؤلاء المتعالمون ويمارسون علينا لونا من القهر كريه.

هكذا تنتسب هذه الرحلة إلى الأشياء القديمة أو تخرج منها خروجا طبيعيا، إنما ينبغي هنا أن أسأل سؤالا طرح علىّ كثيرا بمودة وخوف حقيقي علىّ وطرح مرات بخبث ودهاء وحقد وأنا فرضته على نفسي مرات كثيرة منعكس علىّ خوف الأصدقاء وخبث هذه الأنماط التي تحيط بي هنا: ألا يؤثر انصرافي إلى البحث العلمي على موهبتي ككاتب...؟ ولقد نحيت هذا السؤال بسؤال آخر، هل أنا إنسان أم صفة...؟ إنني إنسان، أكون قصاصا حينما أكتب قصة وباحثا حينما أكتب بحثا، وإذا كانت فى داخلى هذه القدرات كلها فلماذا أقهر واحدة قهرا لا يمكن أن يكون لصالح القدرة الأخرى بل قد يكون خصما منها، كنا دائما يا أخي نقول رأيا ثم حينما نكتب تكون قصة، خوف عميق من ممارسة الرأى، هو ربما نزاهة أصبحت عقدة، تطهر ديني أصبح يشلنا عن

الإنتاج، إنني ألقيت كل هذا خلف ظهري وبدأت العمل.

لكن كيف كان البدء، كيف اتخذت قرار السفر، الحق يا أخى أنه لم يكن قرارا، لقد كنت غارقا ألقي إليه حبلا فتشبثت به لم يفلته، كانت الحياة فى الأسرة قد أصبحت جحيما، لم يكن بالوسع أن تستمر أمي مع زينب فى بيت واحد، ولم يكن ممكنا أن تبقى فى الإسكندرية مع منعم والرجل يريد أن يتزوج ولا يريد أن يكرر مأساة أمي وزينب ولم يكن بوسعنا ماليا إفراد منزل خاص لأمي ولا نطيق إقامتها مع رجل غريب زوج إحدى بناتها، لو كنت أعرف كل هذا ما تزوجت لم أكن باحتياج جسدي ولا روحي للزواج، لكنني تصورت حالما أن أمي وزوجتي سيعيشان معا كملاكين وعشت تجربة كريهة ثمنا لهذا الحلم.

كانت علاقتي بحكمت قد بدأت تعد شيئا أليما جدا، هي تراقب أسرتي تنمو وارتباطي بها يزيد ويصيبها الرعب ويزداد إلحاحها على ألا أفترق عنها لحظة كنت أتغدى عندها وامتلئ طعاما ثم أعود إلى البيت وأجد زينب تنتظرني جائعة وأجلس لآكل معها، هذه تفصيلة أليمة من عشرات التفاصيل، ولم أكن أعرف أين المفر وإلى أية نهاية تتطور الأحداث.

كانت الكتابة قد أصبحت شيئا عسيرا علىّ، أصبحت اللغة عندي عبئا على التجربة، أعرف هذا وحدي ولا أدري كيف الخلاص منه، كتبت قبل سفري بقليل قصة «الموت والحياة» وهى فى رأيى قصة جيدة وكبيرة، لكنني كنت أدرك دائما أننى أستطيع أكثر وأنتج أقل، وكنت أريد تفجيرا ما فى حياتي يخرجني من هذا الجمود، ويبدر إلى ذهنك الآن سؤال، وترى هنا فى أوروبا هل تدفقت الكتابة علىّ، وأقول لك لا، لم يتم هذا، لكنني أتدفق كإنسان، حياتي الآن شديدة الإيجابية، فإذا لم تأت الكتابة مع هذا.. وأيا كانت هذه الكتابة، لكنها تأتي وسوف تأتي أنا أعرف.

وكانت ثمة شيء غريب فى حياتي فى القاهرة قبل سفري، لقد رسمت فى ذهن الناس،فى الحياة الثقافية فى القاهرة، ككاتب وموظف فى المعاشات، أو موظف فى المعاشات موهوب ومظلوم وهو يكتب أحيانا كتابة عظيمة، وكان بعض الناس يحاول كتابة مرثية وأنا حي فيقول أنه لن يستطيع شيئا بعد الرواية الأولى مع أن «البيع والشراء» أعظم، «الموت والحياة» عمل كبير،

لكن منطق الصورة (الموظف الموهوب) يقتضي أن تموت هذه الموهبة نتيجة للظلم حتى تصير المأساة حكاية تحكى، وكان لابد أن أقفز فوق ظهر هذه القصة وأمسكها من قرونها حتى لا تنطحني أنا، وهكذا أغيب فترة ثم أعود من أوروبا اسما جديدا، بدءا جديدا، وربما يكون الوقت فى مصر قد تغير، وهو لابد متغير بحيث يكون لنا فيه مكان.

هكذا نكسر عن أنفسنا هذا الوهم الأبيد ونمارس الرأي بعظمه كما مارسنا الفن يكون دور متعدد النواحى فى حياتنا الثقافية والسياسية لا نترك الأوغاد يتقافزون على أكتافنا وكل آن نكتب قصة ونرجو أن يكون ثمة فى مكان القرار إنسان (كويس) يتيح لنا أن نظهر للناس فإذا لم تكن ماتت أعمالنا كما ماتت روايتي «محاولة للخروج» ثم «الأشواق والأسى».

أخيرا فقد كنت أريد أن أعوض زينب شيئا وهي التي تخرجت بامتياز مرتبة الشرف الأولى ولم تكمل دراستها، كنت أريد أن أمنحها فرصة إكمال دراستها، وأن أعطي أولادي درسا عظيما عن الحياة كم هي كبيرة فيها شعوب عديدة ولغات مختلفة وفيها بشر مختلفو الألوان والعادات، لم يكن بوسعي أن أعطيهم أماسى الدوار المضاءة بالفانوس فحاولت شيئا آخر لا أدري كيف يثمر.

هل قلت لك الآن لماذا سافرت..؟ هل كنت وافيا تماما، ألم يفتني أن أقول لك أن ثمة إحساسا كان لدي بفجوة بين وضعي الاجتماعي كموظف فى المعاشات واعتدادى بنفسى كإنسان موهوب، سأعود للقاهرة دكتورا حتى لو لم يكن معي مليما، وسوف أتغلب على عيب عندي هو قلة الصبر على القراءة فأرغم نفسي على الدراسة والتعلم ثم أن أرى وأتحسس أثقف شعوري بالحواس ما يفعله غيري بأوصاف القراءة والصبر عليها.

وكان أن سافرت.

ولعلك تعلم أن أيامي الأولي فى برلين كانت رائعة كان حماس تسلر لى لا يوصف والنجاح الذي صادفه الدارسة عن مصر والأدب المصري بوجودي كان رائعا، وكان على أن أعود بعد ذلك لمصر، لكنني قلت أنني أريد أن أبقى فى أوروبا فترة، وأريد السفر للندن، وقالوا إن لندن مأزومة بإضرابات عمال الفحم وقدموا إلىّ ضيافة مدتها شهران آخران، ومضى الشهران وألححت

على أن أبقى، كان لدى احساس ريفي قديم بأن ما أرى ليس هو الحقيقة، إن الحقيقة خلف هذا وهي غيره، وكانوا يلحون على أن أعود، الحياة هنا صعبة، وجود الأجانب غير مرغوب فيه، ماذا تفعل هنا، لقد رأيت كل شيء ليس أكثر من هذا، بلدك واجبك الوطني والثقافي زوجتك وأولادك، وأنا أواجههم بوجه حمار ليس فيه أي تعبير، كلمة واحدة أريد أن أبقى، وتحول الالحاح إلى عداء وكراهية ومقاطعة وأنا أشق سبيلي ببطء، أصير طالبا فى الجامعة، أحضر زوجتي وأولادي أدرس اللغة أجد عملا لنفسي أحصل على شقة صغيرة مكانين للأولاد فى الحضانة وهكذا تسير الأمور.

كان لدى إحساس ريفي قديم بأن ما أرى ليس هو الحقيقة وأن الحقيقة خلف هذا وهي غيره، وأنا عندي بلادة ريفية تجعلني أعجز من أن أستنطق الأشياء سرها بحذق ومهاره، وأنا لا أنقم على نفسي هذا ولا أرجو له تغيرا، إنما أدأب على أن أقعد جنب الشيء محبا صموتا حتى يفصح عن سره، يلقيه فى حجرى كثمرة فات نضجها، ولقد كنت هكذا دائما أقعد طويلا جنب الأشياء والمدن، خمس سنوات فى ميت غمر، ست سنوات فى طنطا خمس سنوات فى الإسكندرية، ثلاث سنوات فى قلب الشيوعيين فى الواحات، سبع سنوات فى القاهرة، هل لخص لي هذا مصر..؟ إلى حد كبير، جعلني أحبها، إنها حياتي، حياتى كلها حقا، ولقد كانت برلين لغزا رائعا، ولم أكن أبدا لأتعجله أن يلقي فى حجرى ثماره، ولم أكن بالذي يلقي عليه نظرة ويمشى، رأيت الأوبرا، حضرت الكونسرت ودرت بالمتاحف والمعارض، وعبرت الحدود إلى برلين الشرقية، وكان كل هذا رائع.. لكنني كنت أقول دائما أريد أن أبقى... وبقيت.

ويا أخى ما كذبني الحدث أبدا، ويا أخي ما عادت الكشوف تفجعني، وإن كانت حقائق هذا العالم تدهشني حقا، وأول الجميلة فى هذه الرحلة كان تسلر، ذلك القسيس الافانجيلي القديم الذي كان متحمسا لإسرائيل ثم قابل يهوديا فى انجلترا معارضا لإسرائيل تأثر به وبدأ حركة نقد قوية فى برلين ضد إسرائيل وأتاح للعرب فى الأكاديمية أن يتكلموا ودعا أدباء مصريين تكلموا ودعاني أيضا، وأنا قدرت الرجل تقديرا عاليا وتحمست له، لكن كانت ثمة شيء ما أحسه ولا أعرفه، إنما أرقب أن أقف عليه يوما وقد كان.

إن تسلر رجل شاذ جنسيا، وهذا هنا شائع شيوعا كثيرا، ولقد عرفت فى ما بعد أنني كنت موضوعا لشهوته الشاذة مدة طويلة، هل يفجعك ما أقول، لقد روعني الاكتشاف، وربما زلزلني، لكنه لم يحطمني، لقد فات زمن أن نتحطم، ربما لم يكن هذا الزمان، كان يمر على غرفتي كل مساء ونجلس نتحدث قليلا حديثا طيبا، ثم نتبادل قبلة المساء، لم أكن أسيغ هذا، لكن كنت أقول إن للقوم عاداتهم، وهذا رجل عجوز عطوف كأب، ثم عرفت، وطاف بذهني ربما أن أمسح به الأرض مسحا، لكنني لم أفعل، لم يكن من الصالح أن أضيفه لقائمة الأعداء، وهو لا يستطيع الآن أن يجهر بعدائه لي، إنه لا يستطيع وإلا كان متناقضا، وأنا لا أعطيه أبدا أساسا واحدا، لكنه لم يعد يعلن صداقته وكف عن مساعدتي منذ زمن وأصبح يصرح أمام الناس بأنه حريص ولا يفهم دكتوراه فى هذه السن وبهدله للزوجة والأولاد هنا ولذلك فهو ليس راضيا عن وجودى هنا.

إن اللغة أداة الإدراك، كان المنطقي أن يكون بينها وبينه تماثل أو حتى شبه، لكن الأحداث تنزل على الأرض كمطر، أو تنبت من الأرض كحقول الزرع كلها فى آن، ويحيط بها الفكر معا وفي آن، لكن اللغة تسلك سكة رفيعة، كأنها دماغ دودة قارضة.. لا تكاد تحيط بالورقة إلى بعد أن تروح وتجيء مرات عديدة، وهذا أنا، يسلك الكلام سككا رفيعة فى الأحداث ربما يكون الواحد قد سبق الآخر أو تأخر، فأصبر عليّ أجهد أن أوصف لك الأشياء كلها جميعا وربما وفقت إلى بعض ذلك فى آخر الكلام... وهو كلام يبدو طويلا، ويبدو أنه سيطول، واعتذاري أننا باحتياج لهذا حتى تكون الإحاطة شاملة، وحتى إذا ما التقينا فى مكان من أوروبا لم يضع الوقت فى الأخبار وإنما فى مناقشته ومحاولة استيعابه جيدا.

لقد كان حدث تسلر هذا قاسيا على مثلي له تكوين ريفي تقليدي، حملت نفسي بقسوة نتيجة سلوكه هذا، وناقشتها الحساب،إن دماثة سلوكي نحوه هي محركة شذوذه وما كان ينبغي عليّ، لكنني استرددت نفسي لقد تربيت فى دوارنا مع الرجال الكبار، الكبار حقا ولقنت أن أكون دمثا معهم ومؤدبا، وإذا كان هذا الرجل هكذا فذلك يخصه وحده وعليه أن يتعلم بكل هدوء وحسم أن هذه هويته وحده وأنني لا أشاركه فيها، ثم أنه ربما هذا المرض

عنده أضفى عليه إنسانية وجراءة على القيم التي تربي عليها، ونعمة ساخرة فى الملاحظة والتعليق تجعله بشرا شنيعا.

الأمر فى تسلر أنه ألماني قوي من شعر رأسه حتى أسفل قدمه، والقومية الألمانية قومية مريضة، تحسن بأنها أحسن من الآخرين دائما مظلومة مضطهدة محاصرة، ولذلك فهم شديدو التهذيب، شديدو المجاملة لكنهم قليلو الصدق والصداقة متعالون، إن هتلر لم يكن شيئا طارئا فى تاريخ ألمانيا لقد كان أبا ألمانيا معبودا، لقد رأيت فى التليفزيون هنا ما يسمى مواكب الشموع تحية لهتلر، كانت ملايين (ملايين بحق) الفتيات يخرجن فى الليل يحملن الشموع المضاءة وهتلر واقف على المنصة يفرد يديه كمسيح وكل فتاة تكاد تجن لتلمسه (هايل هتلر) أو السلامة لك يا هتلر هؤلاء البنات والشبان الآن فى سن الخمسين أو الستين يجلسون فى الزوايا تبكي قلوبهم ألما من أجل هتلر.

تسلر أحد هؤلاء إحساسه بالتعالي شيء دفين فيه لا ينطقه فى حرف بل بالعكس دائم الانتقاد لألمانيا والألمان، لكن الحقيقة أنه قومي عتيق وربما يكون شذوذه الجنسى لونا من ألوان إحساسه القومي المريض فهو يحس بالتعالى إزاء من هو أقل منه سفها أو قدره أو جنس آخر، فهو إنسان قليل الذكاء ومحروم من متعة التعالي العقلي على الآخرين، إنه يحط من قدرهم لديه بأن يجعلهم موضوعا لشهوته.

وقلة ذكاء تسلر تجعله جزءا من الكنيسة جزءا صغيرا شديد الإحساس بها شديد التداعي لها يكاد يعيبه الذعر لو صادف ثقبا فى جدار مبنى الأكاديمية، هذا، والكنيسة والحكومة والصناعة والجامعة والسياسة والثقافة والفن هي أسماء متعددة لشيء واحد هو أوروبا الاستعمارية، أوربا المثالية المغتصبة الماهرة...

يكاد يخنقني الضحك الآن حينما أتذكر الوهم الذي ركبني فى القاهرة أنهم دعوني لبرلين لأنني كاتب مهم، الأمر يا سيدي أن شخصا هناك يدعي ناجى نجيب قرأ روايتي وأسرع إلى تسلر يقول له هذا كتاب يهاجم الإسلام ويسمي المتدينين بهائم وقال له تسلر لندعه إلى برلين.

فهم هنا يكرهون الإسلام كراهية عميقة ويتصورونه فى صورة هجمة بدوية جاهلة جاءت من الجزيرة وأضاعت بالثقافات العظيمة وهي خرافة تبيح الفساد للرجال وتبرر الكسل والتواكل، فإذا ما قرأ كاتب بضعة كتب أوروبية وبدأ

يهاجم الدين والعادات فهو كاتب عظيم ويجب رعايته.

وهم يكرهون الدين الإسلامي لأن فيه قدرا عظيما من الحس القومي، لا يتصور أحد تصورا حقيقيا ما بذلته فرنسا لفرنسة الجزائر وفشل الحزب الشيوعي فى قيادة المقاومة، وقادتها عناصر متدينة، وأبو مدين الأزهري هناك الآن يقود حملة رهيبة للتعريب، كان الدين إذن هناك ولا يزال، صياغة للقومية أيا كانت هذه الصياغة وهم يكرهونه كراهية مرعوبة أن قومية أخرى جنب أوروبا وفي العالم العربي بالذات معناها القضاء على أوروبا فى ظنهم، من هذا المنطلق يحقدون على الدين الإسلامي، وعلى ثقافتنا القومية أيا كانت، إلا إذا كانت انعكاسا لما تراه أوروبا. وهم يجدون هنا توجه من الناس، نماذج فاشلة لا قيمة لها تقدم لهم وجوها مصرية وأيد مصرية تردد دعواهم ومن هذه النماذج ناجى نجيب الذي قرأ روايتي وترجم فصلا هو الليلة الكبيرة (ليس الخبيز مثلا وهو أجمل فصل فى الرواية) وكتب لها مقدمة، فكرة الأساسية أن بلاد الري النهري (منها مصر) قدرها هو التأخر، وهذه (فيما أعلم) هي فكرته الأساسية (عن فوجل وآخرين) فى رسالته للبروفيسيرية.

وهكذا بدأ خلافى مع تسلر ومن حوله من المصريين والألمان منذ اللحظة الأولى عندما قلت أن روايتي هي دفاع عن الدين، إنني لست ضد عبد الناصر، إن منهجه هو المنهج الوحيد لتطوير مصر (انتصار الدولة) وقال تسلر إن المشروع الخاص هو الديمقراطية، إن أوروبا قوية ويجب التعاون معها، وقلت إن مصر أقوى وثقافتنا قديمة ومتماسكة وقادرة، وبدأت الحملة من المصريين والألمان.. لكنني أيها الأخ الحبيب من تعرف، ربيب على ظهر الفرن فى الغرفة المعتمة وأكلت اللقمة وسبحت فى الترع الآسنة وما عاد يخيفني شيء.

وبدأت أغيب عن اجتماعاتهم، ما جدواها، يشاورنا تسلر فأقترح أن ندعو محمود العالم ويقترح ناجي دعوة (العظم)[1] السورى الذي وضع كتابا للهجوم على الإسلام فيرسلون له الدعوة، ويفكرون فى شيء عن الأدب المصرى وأقترح لغة الآى آى ليوسف إدريس ويترجم له ناجى نجيب قصة عن إمام

---

[1] للمفكر السورى الشهير صادق جلال العظم ويقصد كتابه «نقد الفكر الدينى»..والكتاب ليس هجوما على الإسلام كما يتصور قاسم فى رسالته.

يصلى بالناس ويشغله التفكيرفى فتاة فيفر تاركا المصلين سجودا لا يستطيعون حتى النهوض دون الإمام.[1] وأكون وحيدا لكننى أيها الأخ الحبيب لا أحس الوحدة أبدا.

وحينما كنت بعد أتعلم اللغة بعد قبولى فى الجامعة كان ناجى يدرس تاريخا للأدب المصرى فى المعهد الإسلامى (أحب هنا أن أقول لك إنه ليست بينى وبين ناجى نجيب عداوة شخصية بل هو فقط نموذج لنوع من المصريين والعرب يملأ معاهد وجامعات أوروبا وليس لويس عوض عنا ببعيد) وناجى نجيب يحضر للبروفيسيرية عن الأدب العربي وكلما أعد شيئا ألقاه فى محاضرات فى المعهد ويتقاضى على ذلك أجرا، غير أنه يدرس العربي بمقابل وخلافه، المهم أنني حضرت له بعض دروس تكاد تكون تنكيلا وزراية بكل ثقافتنا (راجع مقالة للويس عوض عن أن مؤنس طه حسين طلب منه اختيار بعض كتب من الثقافة المصرية ليترجمها اليونسكو وأنه تفكر وقلب فلم يجد كتابا واحدا يستحق الترجمة ونشر هذا فى أهرام الجمعة منذ بضعة أعوام). ودأبت أن احضر دروسا للبروفيسور شتيبت فى اللغة العربية لأقوى ألمانيتى ووجدته يقرأ نصا من كتاب لا أعرفه عن تعسف العرب الأوائل فى فهم الإسلام،لا شيئ صالحا لتقديمه لمبتدئين فى دراسة هذا الدين.

(.....)[2]

.. وأعيش بينهم مكرما لكننى منفى عن دائرتهم، ليس لى أحد، ليس لى صديق، أحيانا تمر بى ثلاثة أيام لا أتكلم، كان هذا أقسى وقت علىّ فى برلين، أمشى وحدى صموتا فى الشارع، أتجول فى الغابة أركب المواصلات ثم أعود إلى غرفتى لأجد الصمت المخيم،وأسأل نفسى لماذا لا أعود إلى مصر، كان شيئا صلبا فى داخلى يجعلنى أستمر وأرفض بكل حسم فكرة العودة مرة أخرى.

كان تسلر فى هذا الوقت يدعونى إلى كل مناسبة ويقدمنى للناس هذا كاتب مصرى بين مجموعة من الكتاب كانوا ثائرين على عبد الناصر، وكان تسلر يعطينى كل شهر حوالى ٤٠٠ مارك يكفونى وأدخر منهم، ولكننى بدأت أجد

---

[1] يقصد قصة «أكان لابد يا لى لى أن تضئ النور» من مجموعة إدريس «بيت من لحم»

[2] سطور غير واضحة فى أصل الرسالة

لسانى وبدأت أقول إن ما يقوله تسلر عنى أشبه بالحقيقة ولكنه ليس الحقيقة، إننى ضد دكتاتورية عبد الناصر ولكننى لست ضد التأميم ولا مع تبعية بلدى لأوروبا قلت هذا فى المرة التي دعيت فيها إلى بندورف القرية الصغيرة قرب كوبلتر، وبدأ تسلر يتبرم بى حتى تنازعنا بصوت عال وكانت قطيعة استمرت فترة، ثم عدنا لكن ثمة أساس غريب لعلاقتنا هو الفتور والعداء المهذب الأنيق، لكنه للحق لم يقطع هذه المعونة عنى أبدا حتى التحقت بالجامعة وأصبحت أكسب قوتى من العمل عن طريقها (مكتب الوساطة بين الطلبة ومن يريد استخدامهم من شركات أو خلافه) وهو أيضا قد ساعدنى على أن أدعو زينب لبرلين، إننى أعتقد أنه يفهمنى تماما، إن هؤلاء الشاذين فيهم شيء إنسانى، شيء يتمرد على ما هو موجود ومقنن فيهم حساسية مرهفة لإدراك ما هو صادق، هذا تفسيري لموافقة الإنسانية أحيانا مني، لكنه فى النهاية جزء من هذا الجهاز الهائل، وهذا هو الفتور إلى العداء.

في وحدتى هذه كنت أسعى لأن أتعرف على العرب هنا، وأختلط بهم كثيرا حتى انتخبت مسئولا ثقافيا فى رابطة الطلبة العرب وصارت لى بينهم صداقات وحكايات وسهرات، ثم تركت الرابطة بعد ثلاثة شهور وتقلصت علاقاتى بالناس إلى حد كبير حتى أصبحت بعد مجيء زينب والأولاد شيئا يحدث كل بضعة أسابيع وجلسة حول بيره وأحاديث قليلة، وأنا أريد أن ألخص لك قضية العرب هنا، أو على الأخص الشباب العربى هنا دارسا أو عاملا.

أول حقيقة تلاحظ هي غربة هؤلاء العرب المريرة هنا، وهذه الحقيقة هي التفسير الوحيد وراء كل مظاهر حياة هؤلاء العرب هنا إننى هنا جربت شيئا غريبا لم أكن أتصور أنه ممكن أن يتحقق فى أي مجتمع إنساني، المجتمع الألماني مجتمع مقفل، مقفل بإحكام لا يتيح بأى حال أن يدخل أجنبى وخاصة أجنبى من العالم الثالث الذين يتصورونه هنا ناس من الهمج وهذه صورة لا يمكن تغييرها فى عقلية الأوروبي حتى لو سافر للقاهرة وعاش فى هيلتون وناقش كبار أساتذة الجامعات والمهندسين والأطباء المصريين، إنه يعود حتى لو كان عاملا جاهلا ويقول لك، لقد عشت شهرا مع ناس من الهمج، إن أوروبا يهراق ماء حياتها لو خرجت من هذا الدرع، هذا الاعتقاد الراسخ الدينى بأنهم هم الناس والآخرون الهمج وهذه هي نظرية هيجل فى

فلسفة حيث قسم الشعوب إلى ثلاثة، شعوب لم تقم بأى دور تاريخي (أفريقيا السوداء) وهذه قدرها الاستعباد وشعوب انتهى دورها التاريخى (الهند والصين ومصر) وهذه قدرها الاستعمار وشعوب تتحمل مسئولية تحقيق حكمة الكون (Weltgeist) وهي شعوب أوروبا، هذا هو دين هؤلاء الناس وهم فى هذا حاسمون حسما لا يمزق، بل إن الألماني الذي يسقط من عجلة الإنتاج التي تدور بسرعة مروعة نتيجة للمرض أو للإدمان ينتهي نهائيا ويموت فى ملجأ أو مستشفى دون أن يسأل عنه صديق، وهذه المستشفيات والملاجئ لم تنشأ بأى غرض إنساني بل لمجرد المحافظة على جمال المدن ومحافظة على (المنتجين) من الإزعاج، فالناس هنا مغلقون تماما وقد تعيش مع واحد فى معيشة واحدة مئة عام ولا تعرف رأيه الحقيقى فيك، بل هو قد يموت ولا يقول رأيه فيك لأحد إطلاقا.. هذا هو المجتمع الذي يجده العرب هنا... لقد عشت تجربة غريبة مع مجموعة من الشباب المصريين والعرب حيث بقينا معا ٣٦ ساعة كاملة فى غرفة مغلقة نأكل ملوخية وكوارع ونسمع أم كلثوم وندخن ونتناقش دون أن يأتي ذكر ألمانى أو الألمان مرة واحدة وأخيرا صحت فيهم إننا فى ألمانيا ولم تكن صيحتى مما يستحب سماعه، لكنهم يعلمون أنه مقدور عليهم أن يقوموا ويخوضوا هذا المجتمع الرافض.

هذا هو إذن أحد مظاهر حياة العرب (وغيرهم) هنا، هو العزلة التامة عن المجتمع الألماني إلا فى حدود الضرورة القصوى،تجاهل اللغة الألمانية كلية إلا الكلمات الضرورة، تجاهل الطعام الألمانى وأكل الطعام العربى حتى يوجد من يخبز عيشا عربيا، ويعيشون فى أحياء كاملة مغلقة (خاصة الأتراك وهذه تمنعه سلطات برلين تماما الآن خوفا من إنشاء أحياء مغلقة أجنبية داخل المدينة) وإلى تمسك شديد بالدين (وهذا تشجعه السلطات هنا وتقدم الكنائس مساعدات للجمعيات الدينية لصرف هؤلاء الفقراء عن الشيوعية) أو تمسك بزعامة عبد الناصر أو ياسر عرفات الذى أصبح اسمه هنا عرفات زعيم الإرهابيين.

ولكن هذه العزلة باهظة على العرب بالذات لأنه هنا لا يوجد مجتمع عربي يشبه مجتمع الأتراك هنا بل هنا تجمع من عناصر شابة عربية غالبيتها من أصل برجوازى صغير، هذا الطراز من العزلة غير شائع إذن، بل تحاول العناصر

العربية عادة الوصول بأي شكل إلى لغز المجتمع الألماني المغلق وأول شيء وأقرب سبيل هو الزواج من ألمانية.

ولتكن عندك صورة حقيقية لزواج كهذا، تخيل مصر وحاول أن تتصور من هي المصرية التي تقبل الزواج بليبى مثلا، هذا مع ملاحظة الفروق الشاسعة بين الوضعين، بين المسافة التى تفصل الزوجين هنا وفي مصر، هي هنا مئة ضعف على الأقل، فالتي تقبل عربيا هي عاملة حثالة الألمان هنا، ثم هي تبقى طول الوقت تعتبر هذا فشلا فى حياتها، وتظل تطالب رجلها بالابتعاد عن ناسه والتخلص من لونه حتى يتحول إلى لا هو ألماني ولا هو عربي شيء شائه ممزق فاقد كل فعالية وقيمة ورجولة.

هناك طبعا عدد من الفتيات التقدميات تزوجن بأجانب بدافع الثورة على قيم مجتمعهن، وبحثا عن رجولة حارة حقيقية لم تذهب ببهائها طرز الحياة هنا، لكن هذا وقت انتكاس التقدمية، وانكشاف حقيقة رجلها شخص يبحث عن لجوء سياسي واجتماعى، أذكر زيارتى لمصري هنا واسع الثراء من اتجاره فى الأحجار الكريمة، زوجته المانية، نحن ثلاثة أغلقنا علينا غرفة وقدمت لنا زوجته أرزا وبامية، ودارت أكواب الشاي وأغنيات أم كلثوم، إن الزوج قد يغلق عليه بابا ويبقى وشيج الصلة بزوجته لكن الباب حينما أغلق علينا أحسست أن المسافة بينها وبين غرفة الزوجة أربعة آلاف ميل، المسافة بين القاهرة وبرلين وفى الصباح جلست معنا على مائدة الإفطار، غريبة عنا شاردة وحتى الابن الصغير ينظر للاثنين فى حيرة وخوف كأنه معلق على ذلك الخيط الذى طوله أربعه آلاف ميل.

وأيا كانت الزوجة من الحثالة أو من الصفوة فإنها بعد آن من الزواج يستيقظ حسها القومي، يوقظه فيها نفس الزوج بما تجده فيه من رغبة ملحة فى الالتصاق بالمجتمع الألماني أو العودة إلى بلده ومعه زوجة بيضاء، إذ هى تجد هذه الرغبة منطوية على خوف من هذا المجتمع وكراهية لهؤلاء الناس، تجدها على أي حال رغبة لزوجة غير مبدئية وغير مخلصة، تمسكه من هذا الحطام وتجره وراءها وتمرغه وتذله حتى يكون شيئا لا طعم له ولا لون لا هو ألمانى ولا هو عربي ولا يستطيع أن يكون أيا من البشرية.

ثمة طريقة أخرى من طرق هؤلاء الشبان للالتصاق بالمجتمع الألماني،

وهي الانضمام إلى المنظمات السياسية هنا، ولقد كان من الأشياء العظيمة التي جاءت بها حركة الشباب أو ثورة الشباب هى الاهتمام بالعالم الثالث، مستعمرات الآباء، يريدون أن يوفوا دينا على أوروبا لهؤلاء الناس، وانتشرت لجان لمناصرة الحركات التقدمية فى هذه البلدان (فلسطين، ظفار)، وبعد انكسار موجة حركة الشباب تلقفت الأحزاب أو الكنيسة لجان المناصرة هذه وتحاول كل جهة أن تضم للجانها ناسا من أهل هذا البلد وأن تقدم لهم هنا المساعدة، وينضم العرب لهذه اللجان وإذ تتقلص الحركة الثورية فى العالم الاشتراكي والغربي الآن يعود الحس القومى فى أوروبا إلى التضخم ولا يكون الشباب أعضاء هذه اللجان بمعزل عنه وسرعان ما ينمو لديهم الاحساس بالوصاية على هذه الحركات الثورية أو على الشباب من هذه البلاد، وتكون عضويتهم عبارة عن تبعية وأحيانا تصير إذلالا يتقبلونه هربا من العزلة والنفي، ويكون خضوعهم هذا دافعا لزيادة ممارسة التعالي عليهم سواء كانت هذه اللجان تابعة لأحزاب سياسية أو للكنيسة الايفانجيلية وما اختلف الأمر، وأعتقد دائما أنها من وسائل المخابرات الغربية الآن للحصول على معلومات عن هذه الحركات والوصول إلى مطبوعاتها أولا بأول، وقد لا يعي الشباب العربى بهذا وقد يعونه ويشتركون فيه، إنها الغربة القاتلة.

شيء ثالث هو الجمعيات الإسلامية هنا، وهذا شائع بين الأتراك والباكستانيين شيوعا كبيرا، وبين العرب أيضا يوجد هنا شخص اسمه صلاح عيد وهو يعمل مع أو لحساب الكنيسة الكاثوليكية، وقد أعطوه أخيرا ٣٥ ألف مارك لإنشاء جمعية دينية ومسجد، وهو إنسان متأثر جدا بفكر الإخوان المسلمين، وهو متصوف أو مجنون قليلا وانتهازي ورخيص وحاصل على الدكتوراه من جامعة برلين إنه خليط غريب، إن الكنيسة تشجعه لصرف العمال الأتراك والعرب عن الشيوعية، إنه مركب غريب، لكن وراء كل هذا شيء فيه لا يخطئ الإنسان فهمه والإحساس به وهو غربته القاتلة المضنية.

والسؤال الآن لماذا كل هذا، لماذا لا يعود هؤلاء الناس إلى الوطن، وإذا صرفنا النظر عن الفلسطينيين الذين لا وطن لهم الآن الحقيقة والذين تسهل لهم الإقامة هنا تخفيفا للعبء عن إسرائيل، وفي ذات الوقت (ويا للعجب) تسهل لهم سبل الانحراف والإجرام حتى يكونوا محط احتقار الناس الألمان

وهم كذلك مثلا هنا.

إذ صرفنا النظر عن الفلسطينيين وتساءلنا عن الآخرين، ولماذا يتحملون كل هذا ولا يئوبون وجدنا الإجابة كامنة فيهم أولا، ثم فى الوطن ثانيا، نعم فى نهاية الأمر عناصر من البرجوازية الصغيرة قليلة الارتباط بالقضايا الكبرى، وأنا هنا لا أدين إدانة أخلاقية، إنما أقول إن هذه القضايا الكبرى إنما تهم جماهير عريضة تتشابه ظروف أفرادها إلى التطابق أحيانا، من منا تكون أهميتها لهم ولمن يحشد نفسه لهم ولهذه القضايا من حيث أنها شيء مستقبلي وباق، أما هذه العناصر التي تختلف مصالحها من واحد إلى الثاني اختلاف بصمات الأصابع هذه العناصر تجد بقاءها هنا خيرا لها، فهذا الضبط الشديد فى المجتمع والانتاج، والذي يشبه أن يكون علمانية يعطي الإنسان غالبا على الفور نتيجة عمله، وهم عناصر شديدة الذكاء دؤوبه سرعان ما يصلون إلى نجاح مرموق، حينئذ يركلون إلى الجحيم الزوجة إذا أصبحت غير لازمة، أو التنظيم السياسي إذا أصبح معوقا.

أما عن الوطن فأنت تعرف ولا تحوجني لأن أشرح، والرجل يعرف أكثر إذا سافر إلى الغرب أدرك المأساة أعمق، إننا نعيش هولا كأنه يوم القيامة، يقتل بعضنا البعض ويحرق زرعه ويزنى بزوجته ويلوط بأولاده، وكلنا تعيس الجاني والمجني عليه، نتبادل الأدوار فى دراما لم يكتبها بشر، كلنا نعي هذا ولا نستطيع له إيقافا ولا نريد له عوده مهما كان جرح الغربة غائرا، أليس هذا ما يكون فى عيون المودعين حينما يلوحون للمسافر من بعيد، إذهب لا تعد أبدا لما نحن فيه، وكل غريب هنا يحاول أن يتخيل ما يكون فى عيون المستقبلين إذا آب، السخط على فشله، السخط على أنه نكس آمالهم فى الخروج، وسخطهم هذا يتحول إلى عداء، إلى رغبة فى التمزيق كل واحد هنا يعيها ويرهبها.

هؤلاء هم العرب الذين خرجت من عزلتي فى برلين أسعى إليهم لأجد عندهم بعض العزاء والسلوى، وكان من المجتمع ألا تتطور علاقتي بهم وأن تذوي آمالى فى العمل السياسي وأن أعود إلى غرفتي بعد كل تجربة متألما، لكننى فى الحق عرفت قلة طيبة وناسا ممتازين آمل يوما أن يخرجوا من المأزق وأن يئوبوا وأن يكون الوطن خيرا قليلا عما هو الآن.

إلى بطرس الحلاق

برلين الغربية فى ٦ /١٩٨١/٥
أخى بطرس

تحيات قلبية

آن الأوان أن أكتب لك. كنت أؤجل ذلك كل حين حتى أقرأ مقالتك التى أعطيتها لى كرما منك وفضلا فوجدتنى إزاء هذا الكرم مدين بأن أقرأها وأن أحدثك، اعترافا بقدر هذا الإهداء الكريم.

قبل ذلك أشكرك على اهتمامك بى فى باريس اهتمام أخ وصديق لم أكن أتوقع منه أقل من هذا. ولقد كان الوقت بين طلابك سعادة لى. أعدت قراءة مقال برنارد لوكاش وكتبت له. كذلك كان وقتى فى دارك فى سو وقتا سعيدا. خرجنا من عندك نحمل أمير النائم حتى المحطة فوصلناها محطومين وعدنا إلى الفندق لننام دون وعى. فى الصبح التالى كنا نعلم أنكم فى طريقكم لقضاء أجازتكم. نرجو أن تكونوا قضيتم أجازة سعيدة وأن تكون الآن فى أتم صحة أنت وأستر وأياد وأن تكون مقبلا على عملك المثمر لنا وللأدب العربى عامة.

ولقد قرأت مقالتك «نشأة الرواية العربية بين النقد والإيديولوجية» قراءة مهتمة ولا أزعم بأى حال أن فى وسعى التعليق عليها وإن قلت شيئا الآن فإننى اعتذر عنه مقدما وأرجوك أن تعتبره نوعا من حرص الصديق على أن يكون ما يكتبه صديقه على درجة من الكمال لا يطولها الانتقاد. تلك هى النية والنية وإن لم تبرر التجاوز إلا أنها توجد مجال للفهم والغفران.

والحقيقة أننى أريد أن أقول بضعة تعليقات صغيرة حول المنهج دون أدنى تطرق للموضوع ذلك أن رواية «زينب» ليست تحت يدى وأنا قرأتها منذ زمن طويل وما أذكره منها لا يصلح أساسا لمراجعتك فيما تقوله عنها. كذلك لا أستطيع أن أقول أننى محيط بالنقد الأدبى المصرى إحاطة تبرر لى مراجعتك فى أحكامك عليه. الأمر فى هذا هو ذكريات لا تصلح مرة أخرى أساسا علميا لموقف مناقض لموقفك.

تبدأ مقالتك بأن اثنين لا يختلفان فى أن «الرواية العربية نشأت فى العصر الحديث فنا مقتبسا من الغرب أو أقله متأثرا به تأثرا شديدا»... وأنا أختلف

مع هذا... إعذرنى ولا تشتم حماقتى وجهلى، ذلك هو الطريق السهل - لكن تسامح معى وعلمنى - قلبى مفتوح لأن أفهم وأنا وحياة أولادى مخلص شديد الإخلاص – لكننى أرى الأمر رؤية أخرى. وسأوضح فهمى بمثال من مصر، لا تعصبا قوميا لمصر...ولكن لأن معرفتى بها أكثر من معرفتى بغيرها، أقول إن الكتاب يكتبون لناسهم.. تلك قضية بسيطة لكنها أساسية فى فهمى... وعليها ينبغى نفى أى تأثير خارجى بين الكاتب وجمهوره وإلا فإن الكاتب يفقد هذا الجمهور... والناس قد تقرأ كتابا مترجما من لغة أخرى مكتوبا لناس آخرين لكنهم يقرأونه بهذا الشرط... وإذا عُرب الكتاب وأعطى أسماء مصرية فهو يقبل بقدر مطابقته لحال الناس وكلامه عنهم.

أنتقل خطوة أخرى حصرا فأقول إن مجتمعات المدينة فى مصر (القاهرة والإسكندرية على الأخص) نشأت تحت تأثير السفر والتأثير الأوروبى بشكل عام من أيام محمد على وإسماعيل والاحتلال الإنجليزى، لكنها لم تكن مدنا أوروبية، وهذه هى قضية جوهرية جدا، وعليه فإن المجتمع الجديد يفرز أشكالا أدبية جديدة تحمل سمات أشكال أدبية فى مجتمعات أخرى لأنه يوجد تشابه بين بنية المجتمع الأول والمجتمع الثانى... لكن الرواية المصرية ليست الرواية الأوروبية وليست متأثرة بها.

إنك بالقوة تستطيع أن تنشئ شارعا تجاريا فى القاهرة ملئ بالمحلات الأوروبية وعلى غرار المدن الأوروبية وتلغى تماما الشارع التقليدى أو السوق القاهرى القديم، وقد تستطيع أن تنشئ دار نشر وتمولها وتترجم.. لكنك لا تستطيع أن تنشئ بالقوة أثرا فى وجدان الناس، تلك المنطقة الخاصة هى التى تستطيع أن تنشىء أدبا وإلا لما كان ثمة حاجة للتأليف وطوفان الرواية كاف جدا لحاجة القارئ عندنا.

بنية الرواية المصرية والرواية الأوروبية تتشابه نتاج من تشابه مجتمع المدينة فى مصر ومجتمع المدينة فى أوروبا لكن التأثر بهذا المعنى غير وارد (فى رأيى) وإذ تسألنى ما الفرق بين القول بالتشابه والقول بالتأثر أقول إنه كبير جدا. ذلك بأن المجتمع الخارجى هو بالنسبة لى كتاب ومجتمعى هو الحقيقة والعملية الفكرية هى حوارى مع الواقع وليست حوارا مع الكتب. هذا الفهم هام جدا فى ممارسة العمل النقدى. وهو هام كذلك لممارسة نقد العمل الفنى.

هذا النقد هو بلورة لتلقى الجمهور وليست قوة مفروضة من أعلى. وهو يعزل العناصر المضافة إلى العمل الفنى من خارج التجربة اليومية المعاشة ثم يمارس تقييم محاولة السيطرة على التجربة من قبل العمل الفنى ويلاحظ العسر الذى مرت به أو الاضطراب أو الشعور الفردى أو الذى يغلب شعورا غير شامل فى المجتمع أو يفسر العملية الاجتماعية تفسيرا خاطئا.

وعلى ذلك تبدو كلمات مثل الرومانسية والبرجوازية وغير ذلك من المصطلحات غير منطبقة تماما على العمل الفنى. إن هذه مصطلحات تدل على تجارب فنية واجتماعية نشأت فى غير مصر ولها تاريخها ومعناها الدقيق الذى لا ينطبق أبدا تماما فى تفسير عمل فنى مصرى.أرى أن النقد الذى يستعملها يعرف أن الجمهور القارئ غير عالم بها تماما، وهو يقوم بتطبيقها على العمل الفنى استسهالا وتغاضيا عن الفروق التى تنشأ من هذا التطبيق.

إن ما فى (زينب) مما تسميه رومانسية ليس رومانسية، إنه شئ يشبهها لكنه ليس هى، تسألنى ما هو... أقول لك أنت الشاب الفتى القوى الأمين لماذا تطرق الطريق السهلة وتطلب من العجائز أمثالى أن يشيروا لك على الطريق الصعبة... صغ لنا كلمة جديدة يا رجل... فإن لم تجد فصف الحالة وصفا دقيقا ولو فى كلمات كثيرة... لكن لا تطلب منى أن أصدق أن الرومانسية الأوروبية فتحت لها فرعا فى مصر.

تلك ملاحظة على الكلمات ربما تكون غامضة غموضا لم يضايقنى كثيرا لأننى أدرك أنك ستفهم منى ما لم أقله فأنا أتكلم معك همس صديق محب لا محاورة مناقش يريد أن يبز مناقشه وهذه الكلمات هى كلمات رسالة إخوانية وليست كلمات مقالة أدبجها لأدحض بها رأى خصم يواجهنى.

أخطو خطوة أخرى فأتساءل عن الهدف العلمى من هذه المقالة. لم يكن من السهل علىّ أن أراه.. ذلك أنه كان مختفيا وراء بخار هائل لعاطفة ملتهبة فائرة ثائرة. إننى مفتون دائما بالشباب القوى الفائر العاطفة... لكننى أحب منه قبل أن يرفض رفضا نهائيا أن يسأل نفسه مرة واحده وأن يدعنى أرى أنه سأل نفسه... من ذلك أعطيه الحق فى السخط.

العاطفة الساخنة الملتهبة الفائرة تبدو فى كلمات مثل (ويحطون الرحال عند زينب - أنت تعرف أن زوجتى اسمها زينب ولهذا أحب الاسم - وكأن كل

ما سبق لا يتعدى كونه مدخلا لهذا الحدث الذى يأتى كأنه ثورة فلكية فى عالم الأدب... لا يبررون حكمهم هذا وإن فعلوا فبعبارات مبهمة لا تدخل فى باب النقد الصارم وبإضفاء هالة من القدسية على العمل الأدبى تحول نقدهم إلى ما يشبه الحفل الدينى الخاشع فكأننا أمام ولادة عجائبية)

إنك إذن ترى النقد المصرى كأنه حركة من البله والتأتأة والانبهار من ١٩١٤ حتى عام ١٩٧٩ تاريخ كتابة المقالة وأنه أعمى معصوب العينين يقدس كتابا واحدا ويقيم له "طقوسا" فى اليوم ذلك بأنه يصف المناظر الطبيعية المصرية وليست اللبنانية... أليس هذا كثيرا... إنه كثير بل إنه لون من احتقار الشعوب، أعتقد أنه ليس فى قلبك ولا روحك شئ منه على الإطلاق. لكنك قلته ومستمر فيه حتى تصل إلى قمة أرعبتنى... أقول بالحرف أرعبتنى.

مؤدى المقولة التى وصلت إليها أن النقاد المصريين منذ عام ١٩١٤ وحتى عام ١٩٧٩ تاريخ كتابة مقالتك، لبواعث قومية أقصد إقليمية ظلموا رواية «الأجنحة المكسورة» لجبران لحساب رواية هيكل وأن هذا موقف ثقافى وجهه السياسى هو اتجاه أنور السادات.

لقد ارتعبت لأن الذى يقول هذا هو بطرس الحلاق الأخ الصديق الذى أعتز به وسأظل أعتز به دائما.

الأمر ليس كذلك يا بطرس... إن كل ما سقته من نقد على رواية «زينب» أتذكر أننى قرأته لنقاد مصريين... وزينب كتاب صدر فى مصر وصدرت غيره من ١٩١٤ وحتى الآن آلاف الكتب، عشرات منها كانت هامة وهذه الكتب صادفت الرضا والقبول والسخط... والمصريون شعب ينكر.. يخطئ ويعيب... لكنهم ليسوا بالصورة التى تصفهم بها والسادات ليس وجه مصر... أحيلك على تصريحات الساسة الإسرائيليين فى هذا الصدد.

نقطة أخرى أثارت حيرتى هى ما تقوله من أن المغاربة كثيرا ما شكوا من أن المشارقة لا يأخذون الجهد العلمى فى اعتبار جاد...فعجبت لأن موضوعك موضوع مشرقى خالص هو نزاعك فى قيمة «زينب» وإيثارك «الأجنحة المكسورة» عليها... الأمر أمر لبنان ومصر.. فما دخل المغرب... أنا لم أفهم هذا التلميح لماذا ؟

هذا البخار الحاجب من عاطفة ملتهبة (يا أسفى) ضد المصريين حاولت أن

أرى خلالها القضية التى تناضل من أجلها. فإنه أن تجلس أياما لتقرأ «زينب» وتبحث عن عيوبها ذلك حقيقة لا يستأهل ذكاءك وقوتك... جدير بك أن تصرفهما فى شئ آخر.. هذا موضوع مستهلك.. هناك أمر مهم أعتقد أنك كنت تقصد إليه وهو أنك تريد أن تحول الأدب المصرى عن اعتقاده بأن رواية هيكل هى البدء وأن «الأجنحة المكسورة» لجبران هى البداية الحقيقية للرواية العربية...ذلك موضوع جيد... والسكة لذلك أن تعقد مقارنة بين العملين والرجلين والبلدين فى إطار ثقافة عربية واحدة وظروف عالمية ومحلية فى البلدين متقاربة ثم تخرج بنتيجة هادئة قيمة ستجد بالقطع صدى فى مصر بين معارض وموافق مما يخضع مرة أخرى للبحث العلمى.

لكن الهدف العلمى لديك كان أكثر غموضا من العاطفة المتأججة ولذلك كانت المقالة أقرب شئ بالدعوة إلى تعليق المثقفين المصريين على أعمدة النور فى باريس فهم يجعلون «زينب» بدء الرواية العربية ثم يعقدون صلحا مع إسرائيل.

هذا الغموض فى الهدف العلمى فى المقالة وتأجج العاطفى فيها حدا بك إلى استخدام لغة غير أكاديمية، لن أضرب لك أمثلة عليها فهى شائعة فى كل سطر. ثم حدا بك مرة أخرى إلى الكلام باستخفاف شديد عن يحيى حقى وعن عبدالمحسن طه بدر. هذان رجلان أحبهما شخصيا من كل قلبى لكننى لا أنصب نفسى مدافعا عنهما ولا أحسبهما أيضا فى حاجة لهذا الدفاع إزاء مقالتك... لكننى أتصور أن ثمة ما يسمى بالأسلوب الأكاديمى... وثمة ما يسمى بالزمالة فى العلم... وأنت وبدر أساتذة فى الجامعة...وإذا أخطأ بدر فمن حقك أن ترد عليه من غير أن تفترض أنه متعصب أو ضيق الأفق أو..... إلخ!

ثم إذا صادفت كلمة «النقد الصارم» علمت عليها بالأحمر فى صدر رسالتى...ولم أفهمها جيدا....ما هو النقد الصارم ؟... إننى أفهم أن النقد عملية فكرية محلها العمل الفنى تهدف إلى تعميق وعينا بالواقع من أجل السيطرة عليه...هذه العملية ينبغى أن تكون مخلصة عميقة جادة بصيرة... لكن صارمة ما معنى هذا؟!

أم من قبيل النقد الصارم مقالة فيصل دراج (المناضل الفلسطينى) الذى

سمانى عبدا ورواية «محاولة للخروج» ثقافة عبيد... أمن قبيل النقد الصارم مقالتك التى تنتقد فيها رواية «زينب» ثم تتهم النقد المصرى بضيق الأفق.

القضية أخطر: ما يهدد الناقد هو إساءته لفهم دوره وهناك فرصة نادرة للناقد العربى أن يسئ فهم دوره منابعها: أولا أنه أكثر اتصالا بالثقافة الأوروبية من الفنانين وهو يسئ استخدام هذه الإمكانية باتهام الجمهور دائما بغبائه رغم أن النقاد أكثر الناس حديثا عن وجوب اعتزازنا بثقافتنا العربية. ثانيا: نتيجة لتفرق التجمعات الثقافية فى عالمنا العربى ليس على أساس ثقافى فكرى بل على أساس التبعية لتجمعات سياسية تكاد تكون قبلية مما يستتبع أن يكون الناقد العربى لديه إمكانية وصول هائلة دون أن تكون فكرته ذات وزن كبير. ثالثا: أن السلطة فى عالمنا العربى وسادتها الخوف والمثقفون أكثر الناس مهانة فى عالمنا والواحد منهم يريد أن يثير رعبا فيما حوله عله يصل إلى شئ من السلطة حتى ولو موهوم.

إن قراءة المقالة أحزننى أقول لك الحق... لكننى كنت دائما واثق أن بطرس الحلاق ليس هو هذه المقالة.... إنه شئ أكبر وكل ما فى الأمر أن حمية الشباب لها بعض الأحيان مسالبها.

هذه الحمية حملت المقالة بطاقة من العاطفة أفسدت لغتها العلمية وبناءها العلمى وضيعت هدفها حتى حولها إلى هجوم صارخ لا لزوم له على رواية ضعيفة دون أن تقول لنا لماذا هى ضعيفة كرجل قوى عظيم القوة ينهال لكما على رجل مريض فلا يثير فى الناس إلا الشفقة عليه وهو كان يريد أن يبرهن على مرضه، ثم اتهام العروبيين بالشعوبية وهو إتهام كل ما يثيرنى فيه أنه من صديق يعز علىّ أما لو جاء من غيرك فلا يهمنى.

أتذكر أنه كانت مقررة علىّ فى الثانوى رواية «نداء المجهول» لمحمود تيمور وهى رواية تدور فى لبنان وشخوصها لبنانيون وكلها تمجيد فى لبنان... لماذا لم تلغ هذه الرواية ويفرض بدلها «زينب» التى تمجد الطبيعة؟!

حكاية تافهة حكيناها لك مداعبة... سامحك الله

تحياتى لك ولأستر ولإياد وتمنياتى لكم بالصحة والسعادة....تحياتى لبرهان ولكل من يسأل عنا.

أرجو أن تعمل على نشر «سطور من دفتر الأحوال» وإن فكرت فى الكتابة

لى فليكن فى خطابك سطران عنها.

عبدالحكيم

برلين الغربية صباح الجمعة ٥/٦ / ١٩٨١
أخى بطرس

أخيرا جاءتنى رسالتك وانشرح قلبى. فإننى كنت فى ريبة مما كتبت لك. أقول فى نفسى إننى أسرفت، ثم أعتذر لنفسى عما فعلت بأننى لم أقصد إلا أن أكون صادقا وحارا كما أتصور الصديق. وإننى لأعيذ نفسى وأعيذ صديقى أن أسر عنه ما أراه تصورا عن الكمال، أكتمه عنه ويمضى الحديث وهو لا يعلم حفيظة نفسى. ثم جاء خطابك فسعدت بأنك فهمتنى على الفور وأرحتنى من شقوة أيام انتظار ردك.

لقد قابلت جمال الغيطانى فى باريس، أول مرة على المقهى تحت الفندق الذى نزلت به. نقل إلىّ خبر موت يحيى الطاهر عبدالله. ذعرت، بكيت، نشجت بصوت عال من قلب محروق كأنما أبكى كل الموتى والذين يموتون، كأنما أبكى غربتنا وتشردنا وعارنا. بكيت كاتبا بسيطا صادقا كان الموت يتربص به من سطر إلى سطر حتى صرعه... ونحن نكتب السطر تلو السطر ونرتب النهاية بقلوب مفطورة وعيون مقروحة.

وقابلت جمال الغيطانى بعد ذلك مرة أو اثنين. لم يكن أبدا لقاء طويلا أو حديثا شاملا، إنما هى خطفات تحيات وسلامات وعتاب وأسئلة عشوائية وإجابات سريعة، لكن كان جميلا أن أراه وأن نتواعد على المراسلة وأن نكون دائما على اتصال.

أما قدوم إدوار الخراط إلى باريس فقد علمت به، وبقيت أياما أتعشم فى أن يتصل بى تليفونيا ولكنه لم يفعل. وكنت أقول فى نفسى لعله يقابل الناس فى باريس الآن وتأتى سيرتى ويثنى علىّ الثناء كله، ثم يقوم فى جيبه رقم تليفونى وبيوت الهاتف الزجاجية الصغيرة فى الشوارع وهو لا يطلبنى. مهما يكن ما قلته فى نفسى فهو لم يعزنى عن أننى لم أسمع صوت إدوار ولم أسأله عن الدنيا والناس ولم أسمع حديثه فى ذلك.

أعود إلى مقالك فأقول إن ثمة حقيقتين أساسيتين أولاهما أنك أكبر من ذلك المقال، هذا شئ أعرفه ويقوله المقال نفسه فى تأكيده على نقطتين عظيمتين. الأولى: استبدال تعبير الرواية العربية بالرواية المصرية. ليس حبا

للعربية بل لأنه الحقيقة أن العالم العربى مجال ثقافى وشعورى واحد تقريبا رغم التنوع بين وحداته المختلفة. الثانية: أنك تحاول تحديدا دقيقا للتأريخ للرواية العربية وهذا هدف يستحق أن يجهد الباحث له.

الحقيقة الثانية أننى أعرف نفسى جيدا ولا أرانى كفؤا للاعتراض عليك، وإنما أنا صديق يعتز بصديقه وقارئ نشيط يعلق على ما يقرأ.

ملاحظة صغيرة هى أن عبدالمحسن طه بدر رجل ريفى مثلى وهو من جيلى تقريبا. ولقد نشأنا....غذاؤنا اليومى تلك الكتابات الدارجة عن الريف المصرى وقذارته وجهل ناسه حتى ليضطر الأثرياء وأولى السلطة من المصريين إلى السياحة فى أوروبا أو لبنان. فإذا صادف الفلاح الطيب عبدالمحسن بدر رواية مصرية ترى فى الريف المصرى جمالا فإن ذلك يفتنه. هذا إلى أن الافتخار بالمصرية كان فى الحقيقة قيمة معادية للاستعمار الإنجليزى وليس مباهاة على أقطار أخرى فى تعاستنا وأشد.

وأنه ليسعدنى ما تقوله من أنك تزمع كتابة مقال لتصحيح وضع كلمات ترجمناها عن اللغات الأوروبية إلى لغتنا ونستخدمها أحيانا فى سياق مخالف مثل رومانسية. هذا سيكون عمل عظيم. الأمر لا يقتصر على كلمة رومانسية، بل إلى غيرها كثير مثل نهضة وتنوير وبرجوازية وإقطاع وثورة ورجعية ومحافظة وغير ذلك مما يحتاج إلى جهد هائل لوضعه موضوعه الطبيعى.

الأمر فى الحقيقة أن نعيد: (١) قراءة تاريخنا.(٢) فهم تاريخنا. (٣) الالتزام به. إننا إذا فعلنا ذلك ستكون نتيجته الطبيعية أن نتكلم العربية.

الآن أشكرك على إرسال مجلة (الباحث) لى. وقد قرأت مقالك عن رواية صنع الله إبراهيم (نجمة أغسطس). وأبدى لك إعجابا بلا حدود بالمقالة لغة ومنهجا فى البحث ونتائج. هذا عمل جيد وعظيم.

لكننى أريد أن أحكى لك قبل أن أتكلم عن المقالة حكاية. أبدأ الحكاية بملاحظات هامة:

(١) أننى أعتبر السد العالى أعظم الأعمال المعمارية فى تاريخ مصر كله.

(٢) وهو ليس عملا معماريا بالمعنى الشامل لهذا التعبير. بل هو على الأدق جراحة تحويلية فى تكوين مصر الجغرافى، تشبه فى ذلك قناة السويس وإن كانت أعظم وأعمق تأثيرا فى كل طبقات الشعب المصرى وفى أرض مصر

ومناخها ونظام ريها واقتصادها.

(٣) إذا علمنا أن السد الآن لا يستفاد منه نهائيا وأن المشروعات المكملة له لم تتم وعليه فهو عنصر هدام للتربة المصرية... وعليه فالأصوات ترتفع للمطالبة بنسفه..؟ وأنا أتصور أن هذا ممكن... وإذا كان قد حدث أن السادات أصدر بيانا مشتركا هو وبيجين يدين سوريا فلماذا لا يكون متصورا هدم السد العالى ؟!

(٤) السد إذن أعظم عمل معمارى فى تاريخ مصر وهو يهم كل مصرى بصفة شخصية.... أقول مرة أخرى كل مصرى على حدة وبصفة شخصية... ومع ذلك لم يهتم به أى مصرى.... بل وعورض وكره حتى ليمكن نسفه دون أن يتحرك أحد.... هذه هى المأساة فما سببها؟

(٥) إن تفسير ذلك بالفرعنة والبيروقراطية شئ سطحى جدا. إن السد درس مؤداه التشكيك فى قدرية علاقة مصر بالنيل، فى قدرية عملية الرى، فى قدرية علاقة مصر الفكرية بالعالم الرأسمالى وهذا الدرس تجسد فى صورة صخرية. الكلام عن الهرم أو المساجد أو البيروقراطية والبوليس كلام سطحى. كل مصرى كان يعمل فى السد كان يعمل لصالحه الخاص... وضع البوليس كان مجازا فارغا، الهرم نصب للعبادة... السد نصب لضرب القدسية.

تلك الملاحظات قبل أن أحكى الحكاية وهى ملاحظات مختصرة بل ومبتسرة أرجو أن تقرأ ما وراء الكلمات.

أما الحكاية فهى عن صحفى... مراسل الازفستيا فى مصر... رجل نحيل شاحب... شديد الذكاء شديد الإخلاص.. شديد المرارة والسخرية... ويهودى.. كان يرى السد ويرى مصر ويرى روسيا ويسخر من كل شئ... كان يعرف أنه لا أحد يدرك شيئا...وأن الشئ الذى ينبغى أن يدركوه شئ يفوق الخيال فى عظمته...ولم يكن يدرك سر مصر...فكان يسأل كل الناس... يتجنب كل من فى يده سلطة...كل من فى مركز... كل هؤلاء مزيفون بشكل أو بآخر... يسأل ناس معينين، يلمس فى ملامحهم ذكاء وإخلاصا.

قابل صنع الله إبراهيم....شيوعى.. خارج من السجن.. ناقم على عبدالناصر... تلك هى العناصر الدرامية القادرة على خلق موقف قادر على استيعاب وجلاء اللغز... سأل صنع الله: هل رأيت السد العالى ؟.. قال: لا...

قال: لماذا لا تراه وتكتب عنه....لا يملك نقودا... إذن خذ خمسمائة جنيه واذهب واكتب.... اكتب ما تشاء...كل ما تكتبه سأنشره لك... فى مصر وفى روسيا بالعربى وبالروسى...كان ذلك فى ربيع ١٩٦٥.

لقد أصابنى الذعر عندما قرأت فى رواية صنع الله أنه أخذ معه إلى أسوان كتاب مايكل أنجلو... إن تجربة أنجلو مع الحجر غير تجربة مصر مع السد على النيل... ثم العصر غير العصر... كل شئ غير كل شئ... أنت تفهمنى طبعا وتعرف عن أنجلو وعن سد مصر.

لكن الشئ المخيف أكثر أن صنع الله لم يأخذ معه الكتاب عند سفره لأسوان فى الحقيقة بل قرأ الكتاب بعد ذلك وركب الأشعار على فصول الرواية.

لكنه قال إن هذا الكتاب كان معه، وسواء أكان الكتاب معه أو كان غيره فالآخر لم يكن على أى حال صلة بالموضوع.

أليست هذه بداية محزنة... الرحلة للسد بإيحاء من صحفى أجنبى... وبنقود أجنبية....والكتاب كتاب لا علاقة له بالموضوع (أيا كان)... ليس هذا طعنا شخصيا ضد صنع الله... إنه مأساتنا التى يجب أن نكتب عنها.... نحن فى عزلة عميقة عن التغيرات العميقة التى تحدث فى حياتنا...ونحن فقراء المحصول من لغتنا... السادات خائن...عبدالناصر ديكتاتور... الملك حسين عميل من باب التغيير نقول (.....) ويمضى فى حال سبيله.

وعليه يبدو التاريخ قطعة واحدة مصمتة...واحد على القمة...رمسيس... محمد على...عبدالناصر....ثم سجون وعمال مظاليم، بكائيات تلك هى اللحظة المروعة التى يكف فيها الأدب عن أن يكون أداة لاكتشاف الواقع... عملية معرفية.

ثم يكون الموقف من الآلة وموقف الإنسان (المنسحق) إزاءها...بهذا تبدو المجتمعات مكررات لشىء واحد....الأوروبى منسحق أمام الآلة وإحنا كمان والله العظيم منسحقون أيضا. والحقيقة ليست كهذا... السد ليس آلة، إنه جراحة جغرافية تحويلية والآلات التى عملت به مشروطة به كمشروع.... ليست كآلة المترو التى هى شرط للمدينة وليست المدينة شرط لها. السد ليس عالما آليا... بل هو قدرة جديدة أضيفت وذهل عنها الناس.... تلك هى القضية التى يجب أن تهتم بها الرواية.

الرواية لم تجد هدفا، لم تجد كلمة محددة واضحة لتقولها، اكتفت بالبكاء واللطم والإشارات الذكية واللمحات الجنسية... انعكس هذا على البناء.... وأنت بالتصاقك الحميم بالكتاب أشرت باقتدار إلى تكديس من الملاحظات دون أن يرى الواحد إلى أين تتجه السهام. وعليه فأنا أتصور أننا كمجتمع مصرى لم ندرك إلى الآن واقع مصر بعد السد العالى، وأنه سيمر وقت طويل قبل أن يستوعب الضمير العربى البطىء الحركة هذا العمل وعندما يتم ذلك سيعود الناس إلى الأرشيف لمحاولة التصور وإعادة الفهم والكتابة عن هذا العمل... كل ما يقدم على عجل من مفاهيم لتفسير السد العالى خطأ؟

(١) وضع عبدالناصر فى صف واحد مع كل الطغاة فى تاريخ مصر خطأ... كل مرحلة تاريخية لها قوانينها الخاصة... وعبدالناصر لم يبنى معبدا... ولم يحفر قناة لتيسير التجارة ولخدمة طبقة محددة بل أقام سدا لتغيير التكوين الايكولوجى والاقتصادى والنفسى للشعب المصرى.

(٢) الكلام عن مجتمع الآلة فى مصر أثناء بناء السد أو بعد السد كلام غير صادق وغير محسوس، والآلة فى المجتمع الأوروبى غير مرفوضة لذاتها بل لتجاوز الوسيلة للغاية التى وضعت من أجلها. شيئان كان يجب أن تقولهما الرواية أن السد عمل عظيم وأنه يتم والشعب المصرى فى حالة من حالات انعدام الوعى.

إن أهمية رواية صنع الله إبراهيم فى أنها لم تقل أشياء كثيرة وهامة وسجلت حالة الخرس التى عاشها الضمير المصرى تحت حكم عبدالناصر. لكن صنع الله لم يعبر عن خرسه بصدق وإخلاص بل أغرقنا فى (تحليلات) سياسية عن الظلم وستالين وعبدالناصر ورعمسيس والفتيات والجنس والمباحث.

المخيف فى الكتاب العرب أنهم حادوا السمع ويكثرون الجلوس على المقاهى وسماع المقابلات والتضادات والسجع والبديع والجناس الذهنى وينقصهم دائما اللمحة النافذة إلى العصر. هل هذا نقص صنع الله إبراهيم؟... لا... إنه جيل كامل كان فى عصر عبدالناصر مخبوط على رأسه وجاء السادات وصفى التركة والورثة لا زالوا ذاهلين ينظرون.

ما الذى يدفع ناقدا مثلك لأن يكرس هذا الجهد الخارق لكتاب مثل هذا، أنا لا أعتقد فى أهميته. أرد على هذا بعرض تصورى للنقد فى مجتمعنا العربى.

إنه تصحيح علاقة الناس بالكتب. ثمة كتب تنشر وتهمل أو يتحمس لها أو يساء فهمها. قليل هو الكتاب الذى يفهم ويلاقى اهتماما ما يوازى بالضبط قيمته الحقيقية. هنا يكون دور الكاتب أقصد الناقد... إنه يحدد قيمة الكتاب بالنسبة للحظة التاريخية التى تعيشها الأمة ويطالب له بما يوازيه من اهتمام. وتصورى أن الناقد تكون وظيفته إما واعية واضحة تماما له أو هى غريزة عنده بعد قراءة واطلاع واسعين. وأتصور أنك واع بوصفك كناقد أستشفُ هذا من جدول أتصورك وضعته لنفسك لدراسة أعمال متعاقبة مهمة فى حقل الرواية وأنك تحاول أن تصحح وضع المجتمعات العربية بالكتب العربية فى لحظات تاريخية مختلفة.

منهجك فى الحقيقة يجعلك تلتصق بالعمل التصاقا شديدا فتغفل أحيانا المجتمع الذى نشأ فيه أو الذى يقرأه والأسئلة التى يطرحها المجتمع على هذا العمل.... لكن إخلاصك الشديد فى الالتصاق بالعمل يجعلك تصل إلى نتائج حاسمة تدارى النقص الذى أشرت إليه... بل أقول تتلاشاه... وعليه أحس أن كل الذى آخذه أنا على رواية صنع الله إبراهيم قد أشرت إليه أنت بشكل أو بآخر... بل إن مقالتك تجعل أى نقد على هذه الرواية بعد ذلك عبثا.

ولكنك بشكل غير منطقى تنيط بها أهمية تاريخية ليست لها... أهميتها فى الحقيقة أنها أثبتت حالة الفصام بين (الفعل) فى المجتمع المصرى و(وجدان) هذا المجتمع فى فترة عبدالناصر. هذا الفصام هو الذى يوجد الثرثرة والتكرار والشطحات التاريخية والترابطات غير المنطقية والاستعارة من مجتمع الآلة الأوروبى ونقل ذلك إلى مجتمع مصرى ريفى فقير للآلة.

الرسالة طالت وأحس أنى لم أقل شيئا.... لم أقل ما أردت أن أقوله... أو قلت ما لم أرد أن أقوله... على ذلك أتوقف... وأثبت للحقيقة والتاريخ أنه مقال رائع جيد التركيب منصف، لغته رصينة ساطعة... إنه ينبئ عن ناقد كبير.

تحياتى لك ولأياد، استرد، أرجو لكم السعادة

تحياتى لبرهان وتمنياتى له بالصحة.

أشكرك على الاهتمام بنشر «سطور من دفتر الأحوال»... أنا أكتب الآن

«سطور من دفتر القبر» ثم أكتب «سطور من بكائية قديمة»[1] وأريد أن أنشر الثلاث فى كتاب... فقد صدروا عن حالة نفسية واحده وبينهم قرابة فى اللغة والشكل والبناء والمحتوى تقريبا. وأريد أن أنتهى من كتابة مقدمة لمجموعة قصصى القصيرة لنشرها ولقد بدأت فى رواية جديدة «دعنى فقد ملك الغرام أعنتى»[2] ولكنها سوف تستغرق وقتا حتى تتم.

فى الختام أشكرك على رسائلك... إنها تتيح لى أن أكتب... أن أعيش.

عبدالحكيم

---

[1] لا يوجد فى الأعمال المنشورة لعبد الحكيم قاسم عملين بهذا الاسم

[2] بعض فصول هذه الرواية موجودة فى الأوراق غير المنشورة التى تركها قاسم

إلى إدوار الخراط

برلين الغربية – صباح الخميس -٣/٥/١٩٨٤
عزيزى إدوار

وصلنى خطابك صباح اليوم. يوم شمس دافى آخر. الأشجار الشاهقة فى الرحبة التى تطل عليها شرفتنا أورقت بحق. أى كمية هائلة من اللون والنضرة اختزنتها الأرض طول الشتاء. وضعت بعض الحب والماء على السياج حيث يقع الطير. الآن يغرد بلبل، بينى وبينه الزجاج وطيات محزمات الستارة. وقبل ليلتين كان قد مر علىّ وأنا ساهر فى عملى كممارس مفتش من الشركة. ألمانى قصير ضئيل. كنت فى خلاء مشجر. قال الرجل إن البلابل هنا تُسمع كأحسن ما تكون، وقال إنها ستغرد بضعة أسابيع فقط، ثم تجد الأزواج إلى بعضها وتقل حرقة الشوق. اتصلت بى زينب من الخارج وسألت ماذا قال إدوار فى خطابه. قلت لها قال إن الأشياء القديمة مازالت كما هى.

ولقد ذكرنى خطابك، كنت قد دأبت لسنين طويلة فى القاهرة أن أقضى عيد القيامة فى المعلقة. أما هذه المعابد الأوروبية فإننى أستمتع بها كما أستمتع بالأوبرا تماما. موسيقى وثياب وطقوس. ولقد جهدت أن أشرح وجهه نظرى لألفريد: إن أمى مسلمة ريفية تقية، هى أكثر مسيحية من أى سيدة أوروبية مسيحية. لكن ألفريد قال: إن المسيحية هى الثالوث والأسرار... وهى فى مصر وفى أوروبا سواء...بهذا تركته. على استحياء أرجوك يا إدوار أن تأخذ مجموعة قصص «الأشواق والأسى» من الصديق عبده جبير وأن تعطيها لصنع الله إبراهيم أو رءوف مسعد بسطا أو ركسان شهدى عطية بنفسها فى دكانها ١٥ ش البرازيل بالزمالك وترجوهم أن ينشروها مثلما نشروا مجموعة محمود الوردانى... هل تقوم بذلك من أجلى وفورا. فإذا كانت دار شهدى غير مستعدة فابحث عن دار أخرى وقل لى... إن هذا الكتاب فى درجى منذ عشرين عاما تقريبا.

لازال الدفء وروعة ضوء الشمس..إن ذلك وصلنى إلى القاهرة التى هى فى ذاكرة أمير وإيزيس صيف فقط..صيف وحر وتراب ووساخة..نشتاق لهذا كأنه هو فقط الحياة الحقة وما غيره معصية.

تحياتى وإلى لقاء

برلين صباح السبت ١٩٨٤/٦/٢٠
عزيزى إدوار

أكتب لك من نوبة الحراسة الليلية، مرهق ومريض بنوع من التهاب مسالك التنفس، وما لم أسال فيه طبيبا قرفا وزهاده. أحاول أن أصطاد اللحظة الحالة وأن أسيطر عليها،وأصفها. نوع من الرياضة العقلية، ورغبة فى إطراف صديق بشئ من نفسى، وإذ أتشوف أبصر قصور جهدى، وقلة حيلتى إزاء تعقد المسائل وتشابكها. أستبقى تأملاتى فى خزانة صدرى.

لكننى قبل دقائق كنت أسمع الـ (BBC) وأتابع زيارة ميتران فى موسكو وانتخابات البرلمان الأوروبى وإضراب عمال الصلب والطباعة الألمان ووزارة رشيد كرامى فى بيروت وحرب العراق – إيران وغير ذلك. فإذا بعمال الشركة يدخلون غرفتى ويرجوننى أن أحول الموجة إلى إذاعة مباراة الكرة بين ألمانيا الغربية وأسبانيا التى انتهت بنصر الأخيرة. حل بالعمال حزن قاتل وانصرفوا إلى أعمالهم وبقيت أتفكر فى الأمر.

لم أنشغل كثيرا بمسائل الوطنية والقومية وعلاقتها بكرة القدم. الأمر بالنسبة لى (صورة): فرقتان تتباريان ومئات الملايين من الناس معلقة القلوب باللعب. وأعتقد أن كل واحد من هؤلاء كان يريد هذا المساء أن (يصطاد اللحظة وأن يصفها) ليس كنوع من الرياضة العقلية ولا رغبة فى إطراف صديق، بل لأن ذلك ضرورة حياة. هذه الضرورة البيولوجية حرم منها الإنسان العادى فى عصرنا وفى كل العصور التاريخية وانفرد بالقدرة عليها نفر قليل من رجال الدين والفلاسفة والعلماء. ذلك النقص الفادح ينبغى أن يداوى بأن يكون للجماهير فرصة للاستماع بنصر ما ومعاناة هزيمة ما. ألم يكن خلاصى من كآبة مسائى أن أتحمس للكرة. أجد نصرا أو هزيمة يشفى عجزى أمام استغلاق المسائل علىّ. إننى أحب أن ألعب كرة القدم وأشاهدها أحيانا. لكننى أبدا لست مشجعا متعصبا.

فإننى أحب أن أعيش هزيمتى أمام استغلاق العالم علىّ. لأنها هزيمتى أنا نتيجة عجزى أنا. لا أحب أن أكون واحدا من (الكتل)، بل أن أكون مؤمنا متعبدا فى (صومعتى) أصابر عجزى وهزيمتى وحدى. السؤال هو متى نشأت

(الكتل) ولماذا؟ ربما مع نشأة الساحر والقديس والشيخ والفرعون. أيا ما كان الأمر فإنه شيء مهين للإنسان أن يكون جزءا من كتلة جماهيرية، ولا يمكن تصور أى كمية من التضليل والقسوة حولت الإنسان الفرد إلى صفة أيا كانت.

إن الطبقات العليا فى مجتمعات العالم تتطور الآن بسرعة مخيفة. ونتيجة للوصول إلى اكتشاف الكهارب المجهرية (Micro Electronic)، فإن العالم الآن يستغنى ويضيق بالجماهير فى عمليات الإنتاج والتطوير. وإننى لأتخيل الآن العمليات التى ستتم لحل التنظيمات القديمة ولحل التجمعات الجماهيرية فى كل مكان. إن ذلك سيكون تطورا أكثر بشاعة من ذلك الذى أدى إلى نشأة هذه الكتل تاريخيا.

أليس رائعا ذلك الذى أنجزه الأدب والشعر والعلم والفلسفة حيث بقيت كلها انشغال الخالق وحده بعالمه ثم توجهه بالحديث إلى المتلقى باعتباره إنسانا فردا. هنا يكون الانتصار وتكون الهزيمة معا فى معنى أشمل هو النبالة.

أرسل إليك من مسائى هذا هزيمتى وعجزى أمام «اللحظة»... لا أستطيع اصطيادها ووصفها كنوع من الرياضة العقلية أو لكى أطرفك بشيء من نفسى، ولعله كان مأمولا أن أتم قصتى «رجوع الشيخ» وأرسلها لك، لكن الذى حدث أننى مريض فاقد الرغبة أتأمل الكلمات هامدا حزينا.

وأسأل نفسى أليس من الممكن أن يكون ذلك - حتى المرض — نوعا من التمرد الداخلى على الكتابة ذاتها. أليس من الممكن أن يكون ثمة فى القصة نغمة خاطئة نشاز تحول دونى والتدفق فى الكتابة. ربما !

إننى على أية حال لا أفسر نفسى على شيء، ولا أكتب إلا إذا كنت فرحانا بما يجرى به قلمى، وحمارتى السمراء القديمة... أعنى بذلك نفسى. هذه خدمتنى طويلا بطيبة وود. فإذا رأيت منها تلكؤا وعنادا لم أعنف بها، بل أحبها وأدللها وأرخى لها الحبل وأنا عارف أنها ستؤوب. فإذا آبت أكملت القصة وأرسلتها لك أو أحضرتها معى عند قدومى إلى القاهرة فى ١٥ / ٧.

بذلك إذن يفوتنى أن أشارك فى عدد الأدب المصرى من مجلة الكرمل. وذلك يحزننى لكن ماذا أفعل ؟ الحقيقة أننى تعودت على أن تفوتنى القُطر وأن أبقى على الرصيف أنظر لها توغل وتغيب فى الأفق. لكن يبقى للقاعد متعة

الحديث مع جيرانه. وهكذا فإننى قارئ لك من قصتى هذر فى مساء قاهرى: "ثم إنها نظرت إليه وكلمته: يا كمال أتقرأ ؟، فقال كمال: يا سيدتى أعرف كثيرا ولا أقرأ ! عند ذلك أمرت زبيدة بقلم ودواة ولوح. ثم إنها كلمت كمالا يا كمال خذنى إليك وأجلسنى على حجرك !.عند ذلك أمرت زبيدة بقلم ودواة ولوح ثم أنها كلمت كمالا: يا كمال خذنى إليك أجلسنى على حجرك ثم أنها قالت له: تقوس علىّ وضمنى أشد ما يكون الضم حتى يمتزج دفئى بدفئك ! ثم إنها قالت له: لف ساعدك الأيسر حول بطنى، وألصق قماش خدك الأيسر بقماش خدى الأيمن، وأمسك بيمناك يدى اليمنى ! ثم أنها قالت له: يا كمال إننى أريد أن أكون فيك، أن أكون لك العقل والقلب والعين واليد واللسان ! ثم إن زبيدة غمست الريشة فى الدواة وعلى اللوح كتبت: اقرأ ! ثم إنها سألت كمالا: يا كمال ماذا ترى ؟ قال: كتابة ! قالت له: نعم والكتابة خطوط، والكاتبون موكولون بإجرائها على مثال حسن موهوم وغائب، وكلما ازدادت جودة المثل ازداد قربه من المثال فى دأب لا ينتهى حتى تجف الأقلام وتطوى الصحف ! سألها كمال: وماذا تقول الكتابة ؟ قالت له: اقرأ ! وهى من الكلمات المعجزات اللواتى تحار فى فهمهن العقول والألباب. والأقرب أنها إرادة خيرة متوجهة إلى كرام النفوس، تعالىْ من الحياة الأدنى إلى الحياة الأعلى، إلى الكلمة. الكاتبون موكولون بتجويدها على مثال موهوم غائب، وكلما ازدادت جودة المثل ازداد قربه من المثال فى دأب لا ينتهى حتى تجف الأقلام وتطوى الصحف ! عند ذلك أخذ كمال القلم وكتب جنب كلمة: إقرأ كلمة أقرأ فأخذت زبيدة منه القلم وكتبت على ذات السطر عبارة: إن شاء الله "[1]

وفيما تبقى من الصفحة أحكى حكاية وأقضى مصلحة، أما الحكاية فهى أن أخى منعم يحمل إليك رسالتى حيث حضر مع زوجته وأولاده لزيارتنا فى برلين. وفى سكننا الصغير عشنا تسعة من الناس خمسة عشر يوما نأكل ونحكى ونطوف بالمدينة. عملنا مولدا وخدمة فى برلين الغربية لا تدرى أين تدوس بقدمك دون أن تجد شنطة أو طفلا أو حلة أو صحنا. وفى ذلك عشنا

[1] من رجوع الشيخ إلى صباه التى نشرت فى الكرمل أولا ثم فى مجموعة حملت الأسم نفسه. والمقطع المنشور هنا يتضمن اختلافات عن النص الأصلى المنشور فيما بعد. وهو ما يكشف عن اشتغال قاسم كثيرا على نصوصه قبل نشرها نشرا نهائيا

معا وتكلمنا واقتربنا فوق السنين التى فرقتنا. وأروع ما كان لى الرضيعة التى سعدت بها سعادة كنت أظنها فاتتنى نهائيا.

أما المصلحة فمدارها مجموعتى القصصية « الأشواق والأسى « والأمر أننى تكلمت تليفونيا مع سليمان فياض ووعدنى بصدورها من مختارات فصول. كذلك فإن صنع الله إبراهيم أرسل لى خطابا يقترح طبعها عند دار المستقبل التى يتصور أنها ستقبل المجموعة التى أوصى بها صنع الله وإدوار الخراط.

الآن أرسل مع منعم نسخة من المجموعة لك ونسخة لسليمان فياض وأترك لكم أمرها حتى أحضر فى ٧/١٥ عسى أن يكون الأمر حينذاك قد اتضح وعسى أن تصدر المجموعة قريبا فى كتاب. أرسل لك من برلين سلامى وأشواقى وإلى لقاء قريب.

عبد الحكيم

برلين صباح السبت ٨٤/٩/١٥
عزيزى إدوار

ها نحن فى برلين. عربة أجرة تقلنا ومتاعنا إلى بيتنا. الذين قابلونا حييّناهم باختصار، دخلنا وعلى الفور بدأت حياتنا العادية فى مسكننا. كل الأشياء فى أماكنها المألوفة، تمتد إليها أيدينا دون أن ننظر، نروح ونجىء فى المسارات القديمة. هكذا يلتحم الوقتان قبل الأجازة وبعدها حتى تسقط هذه فى نوع من نسيان متعجب مستغرب. هكذا كان الأمر فى القاهرة حيث عدنا لبيتنا وكأننا لم نبارحه أبدا. ضحكت جدا من استئناف عالمين تفرقهما مسافة هائلة. ولم أدر أأفرح بهذا أم أحزن له. أيا ما كان الأمر فقد وجدنا برلين باردة، ووجدنا ديونا وإن قليلة جدا بالمقارنة للعام الماضى وانتظمنا فى أعمالنا وما يحيط بذلك من خوف وحذر ولهفة. إننى أقرب للناس والأشياء فى القاهرة.

شىء خاص بيننا أريد أن أتجاسر عليه بالمناقشة، لدى يقين أنك غاضب علىّ. من ناحيتى أنا لست غاضبا عليك، هناك أشياء أنتقدها فيك كفنان، وهناك نظريات لك أختلف معك فيها أشد الخلاف. وثمة منهج لحياتك كمثقف مصرى قد أتعشم أن يكون غير ذلك. لكننى لست غاضبا منك، بل إننى أقدرك كإنسان وفنان ومفكر ومثقف تقديرا شديدا. وأذكرك أننى الذى سعى لصداقتك وأصر ويصر عليها. ثم إنك رجل يمكن الكلام معه فى كثير من الموضوعات والمحاذير قليلة ومحدودة. لكننى أحس أنك غاضب منى، لذلك فالموازين بيننا غير معتدلة وينبغى الكلام فيها.

عاتبتنى بشكل سريع وغامض إننى أتكلم عن كتابتك فى غير حضورك. وأنا قبل كل شىء دعنى أبصق فى وجه من نقل هذا لا لأنه كذب، بل لأنه بالضرورة انتقص الحقيقة من أطرافها. والناقص أن كلامى العالى النغمة فى نقده كان فصلا مليئا بالحب والتقدير. غير أننى أهملت «أصول الجدعنة» ولم أنتظر لتكون حاضرا. إننى لا أفعل هذا عادة ولن أحرص عليه مستقبلا. إننى إذا امتلأت بفكرة مضيت أتكلم عنها لا أكف. ولا أريد أن تكون صداقتنا إصرا علىّ، بل أريد لها أن تعطينى إزاءك حرية لم تكن لى.

أرسل لك صفحات لتلحقها برجوع الشيخ وتعدم مقابلها. إننى فكرت

طويلا فى (انبعاج البناء) الذى حدثتنى عنه، يشغلنى، أعتقد أن المسألة أعمق من ذلك. وأتصور أن النقلة من جو حضرى عربى إسلامى فى الأجزاء الثلاثة الأولى إلى جو فلاحى مصرى فى الجزء الرابع مفاجئ وحاد حتى ليشكل ليس فقط انبعاجا فى البناء بل أيضا فى المحتوى والمناخ الروحى للعمل. أرجو أن تتحدث مع محمود درويش ليتيح لى أن أغير مرة أخرى صفحة أو اثنتين وأرسلهما له على عنوانه فى باريس أو نيقوسيا أو غير ذلك.

رجاء أن تكتب أسفل القصة أنها تمت فى القاهرة ٣/٩/ ٨٤ وأن تكتب أعلاها: (مهداة إلى الأخوة الأصدقاء أعضاء اتحاد الكتاب المغربى شكرا وتحية).

أنت مدين لى برد على خطاب كتبته لك من برلين قبل الإجازة الآن أصبحت مدينا باثنين أنا فى انتظارهما.

عبدالحكيم

برلين صباح الخميس ١٨/١٠/١٩٨٤
عزيزى إدوار

سعدت إلى أقصى حد بأنك (لم تمر بقلبك منى غمامة ولا شائبة). إذن فإننى لفرط حساسيتى ومرضى فى القاهرة تصورت أشياء لا أصل لها فى الحقيقة. وكم أنا الآن مطمئن ومرتاح. ولنعد إذن إلى أشيائنا القديمة (as usual) كما قالت السيدة تاتشر بعد أن نجت من انفجار الفندق فى بريتون. أما التواضع الجم الذى هو فيك طبع أصيل فلا يجعلنى أهمل ملاحظة أن ما وجدته أمامى فى القاهرة من كلام عن «الحساسيات الجديدة» وعن «الحداثة» إنما أنت محركه والمؤصل له. وأنا أختلف معك فى الأمرين. لكن انظر، إننى إذ أختلف مع هذا الفكر فليس معنى ذلك أننى أسفهه أو أغض من قيمته أو الجهد الفكرى الذى وراءه. الحق أن شرط وجود الفرض وجود مخالفة هذا الفرض. وتصورى أن فكرى المخالف فى جدله مع فكرك يُكونان معا مناخا طيبا وصالحا يمكنه أن يقضى بحسم على كثير من الترهل واللغو فى حياتنا الثقافية والمتمثل فى الترديد الببغاوى لمصطلحات لم يبذل العناء الكافى فى الانشغال بها بالرغم مما يبدو من افتعال جدية مكذوبة وتعالم سخيف.

أما عن «المحاذير» التى أشرت إلى وجودها بينى وبينك فإنما قصدت بها التحوط حيث لا يسعنى أن أقول ! إننى أتكلم مع فلان فى كل شىء ! هذا لا يكون! تلك عاطفة وبحبحة شرقية! إننى لا أتكلم مع نفسى فى كل شىء ! هناك محاذير مع نفسى ! هل فهمتنى ؟!

ويوسفنى أنك تألمت مما قلته أنا من أنّ لك منهجا كمثقف، أن ثمة منهجا لحياتك كمثقف مصرى أتعشم أن يكون غير ذلك، إننى لازلت على رأيى ! لكن بداية يجب أن أنفى بشدة أية موافقة من ناحيتى على ما تقترحه من أن منهج الحياة هو لبها، لا ! إنه ببساطة الطريقة فى التصرف، تلك التى قد لا تعبر بحال من الأحوال عن لب وجود الإنسان وموقفه من الحياة. وأنا رأيى أن كاتبا مصريا يملك التأثير على الحياة العقلية المصرية من ناحيتين: بقلمه أولا ولمرة قد تطول أو قد تقصر، ثم ثانيا بوجوده المادى بين الناس. وأنا أعرف أن لك بوجودك المادى دورا هاما ومؤثرا وجيدا. لكن ما لا يعجبنى أنك تمارس

هذا الدور بنوع من الإطلال من برج عاجى على الأشياء التى تدور تحت. وحصاد ذلك أننى كنت مضطرا لأن أقوم أنا بالمرور عليك رغم مرضى الشديد أكثر من مرة لأنك تقريبا لا تزور أحدا. لا تحك لى عن أنك لا تسوق العربة وأن المواصلات رديئة وغير ذلك. إننى أتحرك فى برلين النظيفة الهادئة بعربة. وفى القاهرة المرعبة أجرى فى التراب والحر لأرى الناس. فإذا وصلت أنا القاهرة ورفعت السماعة أطلبك فأنت تفرح جدا وتقول لى: تعال !

وكنت أتمنى أن أسمع منك مرة: أين أنت يا عبد الحكيم... سأكون عندك فى دقائق! أتمنى أن أسمع هذا مرة، لكنه لم يحصل. ذلك منهج يحد من فعالية دورك كمثقف مصرى فى الحياة المصرية. إنه قد يعطيك بعض سمات أبوية قد تكون مفيدة أحيانا، لكنه قد يخلق بينك وبين ناس آخرين مسافة وحساسيات ليس لها أصل واقعى فى العلاقة بينكم. ذلك ما قصدته بالمنهج وأظنه لا يمس لب الحياة من قريب أو من بعيد.

أما خلافى معك فى طبيعة إنشائك فلست أتعمده بحثا عن الإثارة أو لأن التطابق ممل، بل لأنّ لى مثالا فى الفن يختلف عن مثالك وحياتنا المصرية محتاجة لنا معا وبنفس الدرجة. لكنها محتاجة بشكل أكثر إلحاحا لشىء ثالث: للجدل بين رؤيتينا. أنا لا أريد أن «نُرص» متجاورين كأننا فى متحف، بل أريد ككائنات حية أن نتجادل. وأقول لك على المستوى الشخصى إنك يجب أن تحمد الله وتبوس إيدك وش وضهر لأنك تجدنى إلى جوارك أقرأ لك بهذا العمق. كان جابر عصفور موجودا حين تكلمت عن أعمالك فقال إنه لم يجد قبل ذلك من يقرأ بهذا الشكل. أنا يا إدوار لا أجد من يقرأنى هكذا ! أنا لا أبحث عن ناقد مأفون من إياهم يكتب عنى سطورا مملة، بل أبحث عمن يقرأنى....ولم أجده للآن..... إلا فيك... وكم سعدت حين كلمتنى عن رجوع الشيخ... ليس للمديح، فأنا قد اهتممت بالنقد أكثر.....ولكن لأنك رجل يقرأ....مرة أخرى يغضبنى منهجك فى المجاملة....على سبيل المثال. أحس أن الشاعرية والتجويد فى لغتى تحوشنى عن أبعاد فى الواقع قلتها لى مرة أنت عن رواية «محاولة للخروج» (فلاحين متعلمين) ولا أجد من يأخذ بيدى بقوة وبحق وبإنصاف ووضوح. هل فهمتنى أيها الصديق ؟!

أما عن خطابى السابق وردك عليه فلن أمس هذا الموضوع خوفا من طول

رسالتى. لكننى أرجو أن يكون لنا حول الموضوع حديث فى مساء قاهرى جميل لا تشاغلنا عن ذلك مواضع أخرى تتزاحم علينا بلا رحمة. فى السطور الباقية أسالك عن التعديلات التى أضفتها إلى «رجوع الشيخ»، هل نجحت فى معالجة الانبعاج الذى لاحظته أنت فى بناء القصة ولاحظت أنا بعد ذلك أنه يشمل المناخ ويكسر الاضطراد الروحى للعمل... وهل حضر محمود درويش وأخذ الأشياء ؟ وأخيرا هل أجسر على أن أترجاك ترسل لى نسخة أو اثنتين من مجموعة قصصى «الأشواق والأسى» الذى قال لى جميل عطية أنها تصدر عن مختارات فصول أول نوفمبر ؟ إن ذلك يكون رقيقا منك جدا يا إدوار ! وهل أطمع فى العشم أن ترفع سماعة التليفون وتسأل دار المستقبل عن مجموعتى «الظنون والرؤى» وهل هم متجهون لقبولها أم أنها لم ترق لهم ؟ تلك أمور ثلاثة أرجوك فيها أنا الرجاء الرابع فيأتى من أمير ابنى.

حكى له صديق أن عالما مصريا فى عصر محمد على أو إسماعيل أو غيرهما قاس محيط الأرض أو أثبت أنها كروية أو ما يشبه ذلك عن طريق ملاحظة ما تلقيه الأشياء جنبها من ظل ودرجة ميله أو ما هو قريب من ذلك. وأمير يريد أن يتكلم فى فصله عن هذا الموضوع فى حصة الجغرافيا. هل لك أن تجلو لنا الأمر يا إدوار حتى أترجمه لأمير ؟

ودمت لنا أيها الصديق.

عبدالحكيم

إلى محمود الوردانى

برلين الغربية صباح الاثنين ١٩٨٢/١٢/٢٠
أخى محمود الوردانى

أخرجتنى رسالتك من حالة (العزم على أن أكتب لك) ودفعتنى لأن (أجلس وأكتب). ولقد كانت الحالة الاولى نقمة ونعمة. أعزل نفسى عن صخب الدنيا حولى فى البيت أو فى العمل أو فى الحافلة على الطريق وأشرد أنشئ لك الخطابات تنسطر على لوحة خيالى فى لمحة كما تنسطر الكتابة على لوحة المرناة، وبهجس خواطرى يتغير البدء والوسط والختام.

الحلم بالكتابة أجمل من الكتابة ذاتها. إن قوانا إذن لا تكون معطلة بالخوف ولا باستلزام الإجازة. إننا إذن نكون متحررين من القلم والصفحة والجمهور الذى يقرا والكتاب الذى قرأناه. ونحن إذن نكون قادرين على اصطياد الأنغام الطائرة بأجنحة شفيفة، خفاف فى سماوات لانهائية، الأنغام العائمة كأسماك ذهبية فى محيطات لانهائية، الحلم بالكتابة هو أنا بكل بربريتى، بكل لامحدوديتى واقتدارى.

العذاب أننى أعيش أسير بقعة من الضوء مسلطة على جزء من ضميرى، أتفحصها بكل ما أملك من دربة واصفها وأكتب عنها وأعيش عليها وأتآمر على حقيقتى التى هى المتاهة المظلمة الهائلة خارج بقعة الضوء هذه المحدودة. أتآمر بالصمت والتجويد والحنكة. لا تسألنى عن الذى كتبت، وأعرف أنها كتابة المقعد للمقعدين. لكن الحلم لا يبارح خيالى ولعلى يوما أملك حريتى.

ما لهذا أكتب، إنما لكى أرد على رسالتك. وإذ تحكى لى أنك رأيت ذراعى فى الجبس أقول لك إنه لم يكن جبسا، إنما كان ضمادة والفرق كبير فى نظرى، ومن ناحية اللغة أيضا. فالكسر شئ جليل ومهيب ويؤتى له بالـ(مجبراتى) وهذه الكلمة كانت لها عندى وأنا طفل رنين عميق. أما الجرح فهو شئ مفضوح دام فيه تهتك وربما تقيح و(شمسان) وغير ذلك، ويؤتى له بالـ(مزين). والذى فى ذراعى كان جرحا. إذ أننى ثرت فدفعت بقبضتى الاثنتين من زجاج مصراعى باب البلكونة فتحطم وطرش الدم فى كل اتجاه. أما عن روايتى «محاولة للخروج» فأنا أحبها ولازلت أقراها أحيانا

وأفرح بها جدا. وزوجتى لما قرأت خطابك قالت لى: أرأيت.. محمود الوردانى لم تعجبه الرواية أيضا.. قلت لها: طظ فيك أنت ومحمود الوردانى.. نعم يا سيدى.. لماذا لم تعجبك الرواية..؟

لان فيها إفصاح اكثر مما يجب!!

يدهشنى أنك تقول ذلك وأنت كاتب فنان.. فالكاتب فى الحقيقة صناعته الإفصاح.. بالذات ذلك الإفصاح الذى هو أكثر مما يجب.. والعلاقات العاطفية الأكثر مما يجب. إن المنطقة الفنية هى فى الحقيقة واقعة مباشرة بعد ما يجب وليس قبله.

والريفى والخواجايه ستظل تثيرنى إلى أن أموت.. والحقيقة أنا لازم أسألك:

- أنت منين يا جدع أنت ؟

أما أنا فمن ناحية البندرة مركز السنطة غربية وكان فى بلدنا عمدة والعمدة له ابن والابن تزوج من عيلة سالم من الدقهلية وانجب صبيانا وبنات عماليق بيض شقر لم يكونوا يأتون البلد إلا فى عربات، ويأتون نادراً ولا يخرجون من بيتهم ذى الحديقة الشاسعة إلا لماماً.

لكن مرة جاءت(توتو) اسمها هكذا، جاءت بالقطار لأول مرة فى حياتها. نزلت فى محطة سابقة. بلد اسمها القرشية حيث ولد ومات الشاعر الوطنى أحمد الكاشف.. المهم نزلت توتو تسأل عن البندرة وتاهت فى الحقول وخرجت من وسط أعواد الذرة وعلى جماعة من العيال وهى طويلة شقراء على رأسها أجمة من الشعر الذهبى.. طار العيال ذعرا يقولون: عفريتة !!!

وأحكى لك حكاية لكن لا تقولها لأحد أبداً. كنت فى باريس وقابلت محمود العالم إننى احب هذا الرجل بكل عيوبه.. هل تستطيع يا محمود أن تحب شخصا وأنت تعرف عيوبه؟.. إذا فعلت فانك تكون قد حَصلت من الدنيا فائدة مجربة. أقول لك بعد أن تكلمنا أنا ومحمود العالم فى شئون الدنيا ورسمنا خطة النضال للعشر سنوات القادمة.. بعد ذلك بدأنا نحكى عن الحريم.

قلت له: إن من أجمل تجاربى ما كان مع امرأة سوداء.. قال محمود: لا.. إننى أبدا لا تسرنى امرأة سوداء.. إننى محمل بالعقد.. والانتصار عندى هو

امرأة شقراء هى المرأة فى نظرى.

محمود.. لابد أن لك اعتراضا آخر على « محاولة للخروج»... كم أنا شغوف لأن اسمعه.. وحتى ذلك الحين أقول لك.. إنها منطقة فى نفسى بجانب منطقة «أيام الإنسان السبعة».. فهى رواية غير منتحلة.. بل هى أنا. أما عن رواية المهدى فتجد نسخا منها عند صبرى حافظ وشوقى خميس وعبد المحسن بدر وإدوار الخراط وحسنى عبد الفضيل.. عند هؤلاء تجد (١- قدر الغرف ٢- الأخت لأب ٤- طرف من خبر الآخرة ٥- سطور من دفتر الأحوال) ذلك حمل بعير ستقرأ حتى تقرف.

لكنك لو قرأت» خبرا من طرف.. كلام فارغ.. اسمها: طرف من خبر الآخرة.. لو قرأت هذه القصة وكتبت لى عنها فان ذلك سيسعدنى جدا.. كل من قرأها من الأصدقاء قال عنها كلاما مائعا.. وأنا كتبتها بكل نبضة فى عروقى.. وكنت أرقص وحدى فى الليل حتى أقع على الأرض منهوكا.

أتصل بى جميل عطية اليوم تليفونيا.. وسألته عن الكتاب الذى ارسلته لى.. قال آه.. إنه تذكر.. وسيرسل لى الكتاب فورا.. سأقرا القصص وسأكتب عنها. فإننى كنت قد قرأت لك قصة فى اليسار العربى، وأرسلت لهم مقالة كاملة لتقييم القصة كنت أعرف أنها أول مقالة تكتب عن قصة قصيرة... وذلك من غباء القيم النقدية عندنا... عن القصص القصيرة ما يمكن أن تكتب عنه الكتب... ومن الروايات ومجاميع القصص ما لا ينبغى الالتفات اليه.. لكننا لا نزال نزن بالأقة.. والله هو الغفور.

أضاع أهل اليسار مقالتى.. وبقى إعجابى الذى بلا حدود.. وحينما يصل الكتاب.. إننى محتاج لأن أكتب عنك.. إننى أراك كما لم يرك أحد وكما لا يستطيع أحد غيرى أن يراك.. والله اعلم.. لا يعلم الغيب غيره.

حينما قرأت قصتك أدركت أننى أحب الكتابة أكثر من أى شئ فى الدنيا.. إنها قضيتى. هذه الكلمة تقال فى كل مناسبة حتى تبتذل.. لكننى أمسح عنها تراب الابتذال وأقولها لك: هى قضيتى.. ومن خلال ذلك أحبك بكل قوة واعرف موهبتك وأعرف الذى يعوقك وأعرف الذى يكبلك والذى يثقلك ولا أستطيع أن أفعل شيئا سوى أن أقول لك: اعلم أننى صديقك بلا حدود وبلا تحرج.. ثق من هذا دائما.. واعلم أنه لا يتغير أبداً.. اذا أجداك هذا فإننى

سعيد.. وان لم يجدك فهو لن يضرك.

أما عن مجلة إبداع مرحبا بها.. الاسم لا يسعدنى كثيرا.. فالإبداع كلمة مسحت بها مقاهى مصر.. لكن أنا مش زعلان..بل فرحان.. ومستعد للكتابة.

عندك من القصص ما ذكرت لك خذها من الناس وانشر فيها ما تراه(صالحا للنشر) غير ذلك مستعد لكتابة مقالات ورسائل من برلين وأخبار من كل أوروبا.. المهم ترسلوا لى المجلة لأرى شكلها وموادها وأوائم نفسى معها واكتب لها ما يلائمها. الآن أقول لك إنني أنوى أن ينتهى خطابى عندما تنتهى هذه الصفحة.. مع أننى كنت أريد أن أحدثك كثيرا عن حياتى هنا.. عن الغربة المريرة.. وعن المسرح الألمانى والأوبرا والفيلهارمونى.. عن ابنى أمير وبنتى إيزيس.. لكننى لا أستطيع الآن بدء أى حديث وأنا أحس أننى كلما كتبت السطر نقصت الصفحة سطرا.. لكننى فرحت جدا برسالتك التى قلت إنها مفككة.. إنها أسعدتنى جدا.. وعلى عكس ما تتمنى أنت أرجو أنا أن تكون رسائلك القادمة لى أكثر تفككا.. إنما أنا سأحكى لك فى السطور الباقية حكاية صغيرة.. كنت كتبتها لك فى خطاباتى الكثيرة الخيالية.. فأصل الحكاية أننى أحببت بنتا وأنا تلميذ فى الثانوى وكان أخى يحب أختها.. وتقابلنا نحن الأربعة خارج القرية وكان الليل مقمرا.. وإذا كان الليل مقمرا فان العالم يكون عالما آخر.. تكون البيوت من مادة أخرى حلمية.. وكذلك أوراق الأشجار وتراب الأرض وعيدان النباتات.. ويكون صوت العالم آخر.. وتكون ألوان الوجوه أخرى ولمعة العيون.. وحاصل كل ذلك ما يسمى جنون القمر.. ليلتها تمشينا.. وكانت ثمة مكنة طحين قديمة.. وأنا ركنت البنت على الجدار واحتضنتها. ضغطتها على الجدار وهى متوسدة كفى. تمزق ظهر يدى تماما من خشونة حائط المبنى. مشينا معا ويداى ملطختان بالدم.. عندما كنت فى بلدنا هذا الصيف مررت بالمكان ظهرا.. لا ضوء حلمى.. الشمس فاضحة والأشياء متربة مكسوفة تحت هذه الكمية من الضوء.. والواقعة تقع على بعد ثلاثين سنة إلى الوراء.. والبنت الآن سيدة غبية لها ست عيال وزوج بليد عصبى ويداى سليمتان لا تقطران دما.. أيهما الحلم.. وأيهما الحقيقة؟

أتعرف خَطرتَ على بالى ساعتها.. وأتعرف.. كان ثمة سؤال محدد أريد

أن أوجهه إليك.. أنت بالذات.. ذلك عن التحول.. إنه كان بالقطع كامنا فى اللحظة عند حدوثها.. لا أدرى كيف.. ولكننى أتصور أن الكتابة من غير ملاحظة سحر التحول عنه تصبح نوعا من الخداع.. ولكنى كيف تثبته دون أن تقع فى أخلاقية دينية تعطل الرؤية وتحشو الكثير من الأحكام المسبقة الجاهزة والمواعظ الحسنة.. مهما يكن من شئ فإن رسم البنت على الجدار لا يزال وأنا قبالتها أسال وتبقى أسئلتى بلا إجابة..لك تحيتى.

عبد الحكيم

برلين الغربية فى ١٩٨٣/٣/٨
يا أخى محمود الوردانى

أنا زعلان قوى عشان محمد سفينة وابنه كريم[١]، أنا أعرف محمد سفينة منذ سنين، وكنت إذا قابلته قلت له: «أقرا لى من شعرك يا سفينة» كان يقرأ لى، وكنت أدهش واسمعه وأجرب نعمة الحب والسعادة والانبهار. فمحمد سفينة ساحر كلمات وصور يملك سرها كما يملك الكيمائى سر الكيمياء وهو عارف بهذا مختال به وكانت تسرنى فرحته بنفسه لأن فيها صدق طفولى خال من أى عدوانية أو إدعاء. أقرا لى يا سفينة يقرأ لى فى الأتيليه ونحن نشرب البيرة. ويعرض على كراسة صغيرة فيها قصائد له: لا أزال أذكر شكل الصفحات ويرن فى أذنى صوت سفينة هو الآن عاكف على سرير كريم.. آه يا للآلم.. إنى لا أومن.. مثل الناس العظماء.. بالإمكانيات النهائية للإنسان. بل أعرف أن له حدودا ولاحتماله حدودا والألم قادر على أن يصيبه فى مقتل.. لذلك أدعو لسفينة من قلبى أن ينجو ابنه كريم.. تلك معجزة ينبغى أن تحصل.

أحمل فى قلبى مشاعر ربما هى تدين قديم أو خوف قديم أو أزلي نابع من تربية حازمة قاسية. لكننى أوشك أن اتهم نفسى إذا ما رأيت معاناة أصحابى.. شعور لا أستطيع التحرر منه يتلبس جسمى كالمرض يفسد كل المتع وكل الطعوم ويخلط بالمرارة كل الضحكات.

إنني حاولت أن أرى سفينة فى أجازتى الماضية فى القاهرة ولم أوفق كذلك لم أر إبراهيم أصلان ولم أر روميش إلا ساعة قبل أن أسافر ولم أرك إلا لحظة وعدت إلى برلين والقاهرة تفور وكل وجوه الأحباب لائمة معاتبة.

زرت أمل دنقل فى القصر العينى. ومن كل الكلمات التى قيلت لم تكن واحدة منها قصدت أن أقولها أو أردت أن أسمعها. إنما رأيتنا كما كنا دائما دائخين مخبوطين بوجع غامض يجعلنا العمر كله نقول وأقل ما نقوله نقصده ونعنيه ونسمع أقل ما نسمعه ونحن مهتمين به أو راغبين فيه لكننا نفتعل

---

[١] هو الشاعر المصرى محمد سيف وكان ابنه كريم مصابا بالسرطان وكانت غرفته بجوار الغرفة رقم ٨ فى معهد الأورام التى كان يسكنها الشاعر أمل دنقل.

حماسا مريبا ونتحزب تحزبا شائها ونحضر وننصرف ولم نعرف من أين أتينا ولا أين نحن ذاهبون. فى دراما تعيسة لا تجذب أحدا ولا تستحق حب أحد ولا احترام أحد.

لكننى قلت لنفسى إنها حياة لتأكيد معنى الموت ولنفى معنى الحياة. احتضار منذ الولادة وفى أعماق الوجدان. تدق كعوب النساء ذات خلاخيل الفضة الأرض على إيقاع دفوع الجنازة والنائحة.. نائحتنا الأزلية.. يأتى صوتها من فوهات قبور مفتوحة أبدا، يحكى وجيعتنا التى بلا طب. وفى غرفة أمل دنقل تدور علبة الملبس على العواد أتناول وأمضغ وعلى وجهى قناع غباء وذعر وقلة حيلة إلى آخر ما فى قعر الكلمة من معنى.

أعيش الموت من يوم أن ولدت وقرآن الجنازات وكعكات المقابر ومناحات النسوان، وكلما حاولت أن أكون كانت الحقيقة الكبرى هى الخراب والعدم. وفى ذلك اليوم البعيد القريب الغائب الحاضر كنت قد خرجت من الواحات وحرم على أن أغادر قريتى. لكننى قلت أن زيارة لمحمد أبو هاشم من ناحية زرقان منوفية عمل يستحق المغامرة. لبست جلبابى وبلغتى وطاقيتى الصوفية وأخذت خيزرانتى وسرت فى الطرق الريفية الى زرقان.

دفعت بابا صغيرا فى سور جنينة صغير.أقبل على أولاد نعيمة لم ينسونى بطول المدة، أقبلت نعيمة. كما هى. امرأة هائلة سمينة تفيض عليك من كيانها كله مودة وإشراقا. وأنا كعادة الضيف الفرحان بمضيفه أكاد أطير بأجنحتى من السرور:

- أمال فين الواد محمد؟

- تعيش أنت...!

وشب الذعر فى جسمى كما تشب النار فى جلابيبى أردت أن أعود وأفر. أجرى وأسرع الجرى حتى دارنا فى البندرة. وهناك أحبس نفسى وحيدا عن الخبر المريع، لكن نعيمة واقفة مثل شجرة كافور ظليلة مباركة وأم محمد أبو هاشم خرجت إلى الشرفة واقفة بين عامودى الشرفة الهائلين القديمين المقشرى البياض. وأنا صعدت إليها الشرفة كالمحكوم عليه بالموت. وفى غرفة الجلوس كنت أنا قد سهرت قبل ذلك عشرات الأماسى ولم يكن محمد أبو هاشم يجلس على كراسى المخمل القديمة أبدا. كان يجلس على البساط

وأمامه وابور الجاز يصنع الشاى ويحرق قوالح الجوزة ويجلس الليل بطوله. نشرب الشاى وندخن الجوزة وأنا أحكى وهو يسمع لى فى حنان لم أجرب مثله فى دنياى أبدا.

الآن حكت أمه أننى بعد أن تركت كلية الحقوق حيث كنا ندرس معا ووجدت عملا فى هيئة البريد فى القاهرة قرر محمد أبو هاشم زيارتى فى القاهرة. حمل سلالة فيها القرص والخبز والأرز والحمام والخير والمودة وذهب إلى محل عملى ثم عاد راجعا إلى زرقان فى نفس اليوم. وسألته عن الخبر. قال لها:

- تعاركنا أنا وعبد الحكيم.. أنت تعرفينه ضيق الخلق..!

- لكن أيليق هذا مع ضيف نازل عليه.. ثم يرفض أن يقبل ضيافتك ويحمل عنك سلتك.. إن رأيته يوما عرفته كيف.. أسأله الحساب !

لكن محمد أبو هاشم نام فى سريره وثقلت عليه العلة وبدأ يحتضر.. والأم كلما أشتد بابنها المرض شتمت على... حتى قرر محمد أبوها شم أن يقول لها الحق.

فإنه لما دخل مكتبى فى هيئة البريد وسأل عنى ذعر الناس وخافوا منه. وابن الحلال قال له: يا بنى لا تسأل عن مثل هذا وإلا رحت فى داهية..!

ومحمد فهم المقالة وعاد أدراجه لبلده. والأم سمعت المقالة وبكت مر الدموع ودعت أن يخفف الله عنى أيام السجن. ودعت لابنها بالشفاء.. لكن هل يجدى دائما دعاء الأم وهل يصل أبواب السماء ؟

كان محمد أبو هاشم يحمل سلاله ويذهب إلى المدينة كعادتنا نحن أبناء الريف نحمل سلالتنا ونذهب للمدينة التى هى ذئب ضبطنا نحن الشياه فى أم رؤوسنا بنابه. نحن مفتونون بالمدينة الشريرة ذاهلون بها عن أنفسنا. وبعد سنين طويلة فى المدائن، بعد أن حفل قلبى وروحى وعقلى بالجروح التى لا تبرأ، أرى أسراب العيال من أولاد قرانا أراهم يحملون سلالهم ويذهبون للمدينة يتخطفهم الذعر. ماذا سيفعلون هناك؟ ماذا سيقرأون ؟لا شئ مهم. سيبكون وحدتهم بالليل، أو يسرقون أو يكتبون القصص القصيرة هذا قلته فى رواية « محاولة للخروج».

حمل محمد أبوهاشم سلالة عائدا من الإسكندرية إلى زرقان منوفية. فى

الطريق عرج على طنطا. قبالة المحطة كان موقف عربات كارو، تزحلق محمد أبوهاشم وقع وتلوث بنطلونه. أخذ جلبابه من سلاله وغير به بنطلونه المتسخ. رآه مخبر. إنقض عليه:

- أنت عمال تغير كل ساعة طقم.. يا نشال يا وسخ..!

ثم أخذه على القسم. ومحمد قال للضابط أنه طالب حقوق وأن البنطلون توسخ والضابط أطلقه. لكن من يحرر قلبه من القهر والمذلة. حكى لى القصة وأنا بكيت بحرقة كأننى أذنبت ذنوبا لا تمحى هى أساس بؤس هذا العالم.

كان محمد أبو هاشم يحكى لى دائما ويبكينى. كان مريضا بمرض عجيب. الأغشية المخاطية فى الأمعاء شديدة الرقة حتى لا توفر حماية لجدران الأمعاء فيظل يعانى من إسهال مستمر ليلا ونهارا عمرا كاملا. أحيانا يكون نزيفا دما أحمر قانيا فيسرع للمستشفى. العلاج هناك نوع خاص من الطعام خال تماما من التوابل أو الأملاح أو أى مواد مهيجة لأغشية الأمعاء وهو طعام مغذ جدا ليساعد على إعادة بناء هذه الأغشية والأدوية ليست سوى مهدئات.

فاذا خرج من المستشفى عاد للطعام المالح الحريف وعادت المأساة من الأول. وهو يحمل علته ويمشى بين الناس تقتحمه العين فهو قمحى نحيل شاحب حائر العينين يرتبك إذا فوجئ بسؤال ويعتقد فى الخرافات. يشرب الشاى الثقيل ويشرب الجوزة ويأخذ الأفيون لأن ذلك فيه شفاء كما يعتقد وأنا أدور فى الإسكندرية أبحث له عما يحتاجه وأشرب معه وهو يقول لىَ يا عبد الحكيم:

- أنا أموت كل يوم بمقدار..!

وأنا أبكى عليه يا محمود يا وردانى وأصرخ لماذا لا يشفى ؟ لماذا؟ وعدت لغرفتنا مرة وجدت ورقة منه أنه قرر أن يقابل الموت فى منتصف الطريق. وأخذت الورقة فى يدى وانطلقت أبحث عنه فى شوارع الإسكندرية من أول الشارع حتى الفجر حتى وجدته فى بئر سلم بيت مهجور مختبئ كأنه ذئب برى. أخذته من يده دون كلمة وضعته فى سريره نام حتى الصبح. ثم دخل المستشفى للعلاج. كان له قدرة غير عادية على أن تقع البنات فى حبه، أجمل البنات. ذهبت لزيارته، كانت الممرضة تمثالا للجمال المصرى الخارق كانت مولعة به لا تترك سريره أبدا وكانت تتستر عليه وتتركه يذهب

للسينما القريبة تفريجا عن نفسه.. ذهب ودخل فيلم «الأخوة كرامازوف» حفلة الساعة الثالثة. عاد منفعلا بالفيلم جدا حتى فاجأته نوبة النزيف الدموى بشكل لا مثيل له. دخلت عليه فى سريره يحتضر احتضارا حقيقيا. والممرضة إلى جواره شاحبة كالموتى. لا يستقر دقيقة حتى يسرع للمرحاض. هناك آثار عليه، المكان غارق فى الدماء كأنك ذبحت ذبيحة. ومحمد ينظر لى بوجهه الصغير وعيونه المعذبة وشعره المتهدل على جبينه.

فررت منه نزلت أجرى فى شارع السلطان حسين جاهشا بالبكاء صارخا مولولا. بكيت حتى جفت دموعى، فى الصباح ذهبت له مرة أخرى. كانت الممرضة إلى جواره. فى الصيف كان يكتب لى خطابات بالقلم الكوبيا يبدؤها دائما بعبارة: (أخى الفاضل الأستاذ عبد الحكيم قاسم). وأنا أرد عليه (عزيزى محمد) لكنه يجيب (أخى الفاضل الشهم الكريم الأستاذ عبد الحكيم قاسم) ويدعونى لزيارته ألبس جلبابى وبلغتى وطاقيتى وخيزرانتى وأذهب إليه يجلس على البساط وأمامه وابور الجاز نشرب الشاى والجوزة طول الليل ويحكى لى وأنا أسمع وفى الصباح يأخذنى لأصحابه فقراء الناس يشرب شايهم وجوزتهم ويحكى لهم وانا أحس بنعمة وجوده فى قلبى.

كان شغوفا ببنت قابلة فى مستوصف القرية وكانت البنت مجنونة به حبا لكن الأم رفضت الزواج لان والد البنت كان حلاقا ولكن الأم حكت لى أن والد محمد كان شيخا مدرسا فى مدرسة القرية. وكان يحمل دائما فى جيب جبته زجاجة عطر وكانت النساء مشغوفات به. يقابلنه فى السكة ويسألنه نقطة عطر. يخرج زجاجته من جيب جبته ويعوص إصبعه ويلمس النساء خلف الأذنين وعلى الجبين. وزوجته لم تنسى له هذا أبدا أحبت محمد ابنها حبا خارقا، حبا خنقه وحرمه الحياة. كان يتلوى عذابا وينتحر بقصد ويبيد جسده قطعة قطعة وأمه تتفرج..وكانت الأم ترقب موته وتعرف انه بهذا الموت يعود إليها نهائيا ولا يمت قبر الابن إلا للأم الثاكلة الحزينة.

وأنا كنت شابا صغيرا مصروعا بالغباء ومشغوفا بالحياة، أراها تهزم وتهزم ويتمزق قلبى. فى ليلة رأس سنة كانت دنيا الإسكندرية زائطة وأنا وهو جالسان على كتب الحقوق، فجأة قلت له قم يا رجل نحتفل مع الناس. لبست بنطلونى وقميصى وبلوفر وجاء هو بجلابيته الكستور المخططة الشهيرة

وكان خواجات الإسكندرية عندهم عادة إفراغ زجاجات الخمور من النوافذ والشرف فى الشارع.فلما رحل الخواجات بعد ٥٦ كانت فى نوافذهم وشبابيكهم وجوه مصرية.وفى رأس السنة يدلق المصريون من هذه النوافذ والشرف ليس خمرا بل ماء.ليس شيئا قليلا بل صفائح..وحينما يحتدم المزاج يكون الماء وسخا نكاية بالعابرين وبحثا عن سرور مفقود.

انطلقنا أنا ومحمد أبو هاشم نجرى فى الشارع فرحين فأنا عيد ميلادى ثانى يوم حيث أننى مسجل فى دفتر المواليد تحت ١٩٣٥/١/١ وفجأة سقطت صفيحة ماء وسخ على محمد بإحكام مروع من رأسه حتى قدمه رأيت أضلاعه تحت جلبابه.عدت به بعد أن احتفالنا حوالى سبع دقائق انتهت نهاية مؤلمة.

أمه تحكى لى عن احتضاره الطويل.يتقلب ويسال:

- ترى هل يعذبون عبد الحكيم فى الواحات يا أمى..؟ إن بقى على قيد الحياة وخرج من الواحات سيأتى ليزورنى.. خذيه الى قبرى يا أمى..انه سيبكى علىّ طول عمره...!

تعذبت أمام السيدة عذابا لم أجرب مثله عمرى قلت لها:

- أبوس رجلك.. أريد أن أقوم!

ولم تتركنى.. عرضت على ثياب محمد وكتبه وشهادة ليسانس الحقوق التى أدى امتحانها من فراش مرضه ومات قبل ظهور نتيجتها. ثم أصرت على أن أتغذى قبل أن أمشى..عشت المحنة كلها حتى قمت أغمضت عينى وأسلمت نفسى للطريق حتى عدت الى البندرة.

لماذا أحكى لك كل هذا يا محمود يا وردانى.. لأنى كبرت.. والقلب امتلأ بشواهد القبور.. أبى وأمى وعمى وخالى وأختى ومحمد أبو هاشم شواهد قبور طينية فى قلبى تطن فيها الذبابات الخضراء مثل مقبرة بلدنا. وأنا أحمل كل هذا وأمشى.

وأنت حكيت لى عن كريم ابن محمد سفينة وعن أمل دنقل فآلمتنى كما لم يؤلمنى أحد. هؤلاء الناس أمل دنقل وسفينة جعلوا من الكلمة المصرية إبداعا، فرحة وحزنا، جلالا ووقارا، جعلوها معرفة، علمونا أن نقول وأن يكون القول انتصارا ودواء للفزع وكشفا عن الآتى. صلاة وورعا، خرقا للمألوف وقطعا

للمطرد المتكرر.

وأنا منذ عرفت الكلمة كانت صحابتى وقرابتى. أقرا للواحد فيكون أخى أبد الدنيا يكون فوق تقلب المزاج وتغير الأحوال والأزمان. وفى ذات ليلة فى جوف المساء قرأت الليل الرحم لمحمد الصادق روميش ثم قرأتها وقرأتها. ولو كنت أعرف أين يسكن لذهبت إليه فى صميم الليل ولما كنت أريد أن أحدثه فإنني بدأت اكتب له خطابا. كتبت خطابا طويلا جدا. ولم تهدأ بلابل نفسى إلا عند الفجر فنمت فى الصباح خرجت من عملى مشيت فى شارع عماد الدين وجدت روميش يمشى وحيدا عانقته بكل شوق ومشينا معا فى الشارع قال لى:

- تعرف يا عبد الحكيم.. قبل نصف ساعة.. صعدت سطوح المبنى حيث أعمل.. وفكرت أن ألقى بنفسى من حالق.. إننى إنسان زائد لا قيمة له.

كدت اصرخ:

- يا أخى أنا قرأت بالأمس فى جوف الليل قصة الليل الرحم.. وأنها منحتنى السعادة، ستظل قادرة على أن تمنح الناس السعادة حتى أبد الآبدين

شكرنى لأننى قلت له ذلك. تصور. وأنا الذى مدين له إلى آخرأيام بفضل أنه كتب الليل الرحم. أقراها إذا ثقلت على الآحزان ولم يكن لى على تصريفها قدرة.

وذات يوم قرأت قصة الخطوبة لبهاء طاهر. وكرهتها جدا. قابلنى الصديق العزيز إبراهيم منصور . ذهبنا لنسكر فى باب الحديد. قلت له:

-إنني قرأت الخطوبة ولم تعجبنى !

قال لى:

أنت غبى.

وظللنا الليل كله نشرب و نكرر الكلمتين بلا كلال وأنا عقلى يعمل فى القصة يعيد ترتيب كلماتها ويتحسس كل كلمة ويتذوق... فجأة صرخت:

إنها قصة هائلة!

ابتسم إبراهيم منصور وقال لى:

- إنك بطئ الفهم !

لكننى قرأت القصة بعد ذلك كثيرا. كنت أرى بهاء طاهر كمسئول فى

البرنامج الثانى. لكننى رأيته بعد أن قرأت القصة وأحببته من كل قلبى.

وحينما قابلت إبراهيم أصلان للمرة الأولى صحت به:

يا إلهى إنك شديد الوسامة.. هكذا يحب أن يكون كاتب القصة القصيرة فعلا!

وأنا وزوجتى نقرأ إبراهيم أصلان معا ونردد عبارات قصصه فى حياتنا اليومية وأنا كلما ضجرت قمت أذهب إليه. أمر فى شارع السوق أرى المأكولات وأشم الروائح وأرى البضائع تحت الأضواء الساطعة ثم أميل فى شارع قطر الندى. شارع هادى فائض البكابورتات. ثم أجد بيته. إن إبراهيم فى حارته معروف ككاتب وهو محترم ومحبوب من الجميع وحين يكتب يكتب بهذا الحس هؤلاء الذين يكتب عنهم متعلقون به ويتوقعون منه أن يعرف عنهم ما لا يعرفه أحد. أتذكر اللعب الصغيرة. أتذكر العازف. أتذكر كل ما كتب إبراهيم أصلان كل ذلك الاستقرار والنظام فى عالمه. صنعته أم ريفية وأب ريفى، الجميع عاشوا فى بيت من غرفتين، لم يعطل نمو موهبة إبراهيم بل منحها ما يستطيعه من نظام.

هؤلاء وناس كثيرون غيرهم هم عالمى. وأنا بعيد عن مصر تقتلنى غربتى فيأتينى منك خطاب يذكرنى بمرض أمل دنقل وتحكى لى عن كريم بن محمد سفينة تغلب على سوداوية مدمرة.

وأنت تقول لى فى خطابك: (وفى اعتقادى أن الإقامة فى بلد مثل ألمانيا- إقامة دائمة- أمر لا يمكن استيعابه بالنسبة لى) لكنك لو تعرف اللحظات التى سبقت سفرى من مصر إلى ألمانيا. إن تلك لحظات قد اكتب عنها يوما. لكن عنصر البشاعة فيها عنصر لا يمكن أن تحيط به الكلمات. فالفن ليس الحياة، بل هو محاولة لمعرفتها، محاولة تستقل بذاتها لتتحول إلى قطعة عمل جميلة. إن تلك الخاصية هى غربة الفن عن الحياة وتلك هى الفجوة التى تمتلئ بقلق أبيد يحركنا إلى آخر العمر من الركون إلى الراحة.

حينما سافرت إلى ألمانيا كنت فى التاسعة والثلاثين من عمرى. أتعرف ما معنى ذلك. معناه أن الواحد كبر فى السن. وذلك معناه شدة انتمائه إلى المجتمع. إنك فى الثامنة عشرة أو العشرين تستطيع أن تكون خارجا ومغامرا وصاخبا ومحقرا لكل القيم. فإذا استطعت فى هذه السن أن تبنى على أنقاض

ما هدمته خطابا آخر تعود به للمجتمع وترغمه على الاعتراف به فذلك عظيم. فإذا لم تستطع أن تفعل فلابد أن تعود تحت أى ستار وان تعيش وتتحول إلى جزء عادى من المجتمع الذى يكرر نفسه بلا نهاية.

أنا لم استطع فى شبابى أن احدث شيئا جديدا. كبرت ونلت شهادة واشتغلت واصبح لى بيت وعمل اذهب له كل صباح وزوجة وبنت ثم ابن. بالتدريج بدأ المجتمع يجردنى من كل ما أتميز به. يدفعنى لأن اسحق عبد الحكيم القديم وينشئ داخل جلدى عبد الحكيم آخر مجتهد فى عمله مهتم ببيته متأنق فى ملبسه... ويدفعنى لشئ مروع آخر.. هو النجاح.. والنجاح ليس سوى شئ واحد بعد أن مرغت كل القيم فى الوحل..النجاح هو أن تكون ميسورا.. أن تكون لك صلة بأصحاب السلطان.. أن يكون لك منصب مهم.. أن تظهر صورك وتسمع أحاديثك.

وكان المجتمع ينذرنى.. إذا لم افعل فانه سيحولنى إلى مسخ شائه يسحق بلا رحمة.. وكنت أرى الذين نجحوا.. الذين تظهر صورهم وتسمع أحاديثهم- الذين لهم صلة بأصحاب السلطان.. الذين يقابلوننى فيقولون لى:

- عامل إيه يا عبد الحكيم.. أحوالك كويسه.. أنت فين.. فى المعاشات.. أه عظيم.. هبعت لك واحد والله شوف موضوعه.. أنا مشغول فى الجورنال زى ما أنت عارف وما أفهمش فى الحاجات دى.. ودا طبعا حاجة أنت خبير فيها.. هبعت لك وأنت شوف الموضوع..!

وكنت أرى الخواء المروع الذى يعيشون فيه.. وكنت أقرأ لهم وارى مأساة عجزهم المطلق.. أعرف عذابهم وعدم قدرتهم على التراجع وأعرف أيضا عدم قدرتى على الصمود وأن أكتب ما أريد.

فى هذه الفترة كتبت قصتين هما «البيع والشراء» و «الموت والحياة» وسمات هذه المرحلة موجودة فى القصتين لمن يتأمل ويحسن القراءة. كان يجب أن تكون بداية جديدة فى أرض جديدة وسافرت إلى ألمانيا.

إننى لم أحدث شيئا عبقريا فى شبابى أفرضه على المجتمع، لكننى لا أريد الحسبة أن تمشى حتى آخرها. بمعنى أننى بالرغم من أننى لم آت بشىء عبقرى إلا أننى لا أريد أن أتحول إلى نموذج متكرر مصبوب فى قالب معروف سلفا وعليه سافرت.

لكن إبراهيم أصلان استطاع هذا دون أن يسافر. نعم كذلك أمل دنقل لكن إبراهيم أصلان دفع ضريبة هذا فى أن إنتاجه قليل جدا وهو تحمل ألما مروعا لا يعرف به أحد. ثم أن الحارة والبيت قدما له دعامة نفسية نادرة أعانته على أن يقف على رجليه. أما أمل فان نجاحه المبكر ساعده. وأقول لك رغم هذا انه فقد كثيرا جدا فى شعره.. وفى صمته فى النهاية.. هذا بالإضافة إلى روميش الذى توقف كلية عن الكتابة وبهاء الذى توقف مدة طويلة جدا وغيرهم كثير.

المهم أننى سافرت. هنا لا يعرفنى أحد. بدأت أعمل وأتعلم. استعدت شبابى وقدرتى على القلق. وبدأت أرى مصر من بعيد وارى ألمانيا من قريب تجربة خارقة. بقيت مدة طويلة لا أكتب. لكننى حين بدأت أكتب أدركت أننى ولدت من جديد.

هنا كتبت: المهدى+ الأخت لأب+ طرف من خبر الآخرة+ سطور من دفتر الأحوال+ قدر الغرف المقبضة+ ورواية طويلة هى دعنى فقد ملك الغرام أعنتى.

هذا قليل فى تسع سنوات لكن فيه شئ مهم جدا أننى تغلبت على ذلك الخرس الذى كان ينهينى.. ثانيا أنني تغلبت نهائيا على ذلك الخوف من النجاح أو الخوف من الفشل أو الخوف من الانصياع للمجتمع.أصبحت قويا فى داخلى وغير خائف من الدنيا وأصبحت واثقا أننى سأحب الكتابة فقط والكتابة الجيدة فقط إلى آخر عمرى وأننى أبدا لن أضطر فى عمرى لأن أضحى بهذا الحب الذى يملؤنى توهجا وكبرياء فى مقابل أى شئ آخر.

لكن ذلك كله كان فى الابتعاد عن مصر والنظر للوطن من البعد. ثم الانغماس فى الحياة هنا. تضرب جذورك فى الأرض هنا، وتنشأ الغربة رويدا رويدا بينك وبين بلدك حتى تصبح مسألة العودة صعبة. لكنها قادمة.وحينئذ ستكون أمامى وسأحكى لك الكثير الكثير.سأحكي لك عن أننا سافرنا إلى باريس وأقمنا فى فندق صغير بجانب سوق (داجير) مثل سوق التوفيقية تماما وكنت أنا وزوجتى ننزل نشترى كميات هائلة من النبيذ والجبن والبصل الأخضر ونظل نأكل ونشرب حتى تهتز المرئيات وتزول الفروق.

ثم جاء لزيارتى جمال الغيطانى وقال لى: يحيى الطاهر مات وصرخت

على المقهى حتى التفت الناس. أسرعت إلى مجلة اليسار العربى وقلت لهم أريد أن اكتب عزاء بأسمى. اتصلت بجميل عطية فى بازل بسويسرا وإبراهيم منصور فى فينا وقالا لى ضع اسمنا على العزاء الذى تكتبه. جلسنا فى حديقة اللوكسمبرج وأولادى وزوجتى خائفين من دموعى المنهمرة وأنا اكتب نعيا للكاتب الحبيب.

كان فى ذهنى حكاية حكتها لنا سيدة لا أذكر اسمها الآن ولا حتى شكل وجهها حكت أن يحيى الطاهر عبد الله كان يقيم فى لوكاندة وأنها زارته هناك وفتحت دولاب غرفته ولم يكن فى خزانة ثيابه شيئا على الإطلاق وقد أذهلني هذا. إن يحيى الطاهر لم يملك أبدا إلا الثياب التى على جسده. ذلك عادى. غير العادى انه أبدا لم يكن وسخا ولا نتن الرائحة!!

كتبت كلمة بعنوان. (رجل كانت داره الكلمات) وقد نشرت اليسار العربى الكلمة: لكن هؤلاء (...) اختصروا الكلمة اختصارا مخلا ثم أنهم تجاهلوا أسماءنا نحن الثلاثة تماما.

وحينما نشروا قصتك اتصلت بهم تليفونيا وقلت إننى أعجبت بالقصة جدا وأريد أن أكتب عنها. ليس معتادا أن تكتب عن قصة قصيرة كاملة. لكن هذا تقليد غبى والأشياء ليست بالأقة. وافقوا وكتبت المقالة ولتسرعى لم احتفظ بأصلها وهم لم ينشروها وأضاعوها ذلك بائس. لكننى مازلت على قيد الحياة وقادر على القراءة وعلى الكتابة وسوف أكتب.

الأمر أننى لما قرأت القصة أدركت أننى أمام كاتب كبير. لا شئ فى قاموسى اسمه كاتب ناشئ او كاتب لازال صغيرا ذلك قد يكون فى كادر درجات هيئة المعاشات أو مصلحة الدمغة والموازين لكن الكتابة شئ آخر والكاتب يولد كبيرا أو يولد قزما. لكن بلدا تسمى ثروت أباظة كاتبا كبيرا والبساطى أو غيره كاتبا شابا والوردانى كاتب مبتدئ.. بلد كهذا لهو أتعس البلاد. إن الناقد العظيم بدر الديب كتب المقدمة الأساسية لديوان «الناس فى بلادى» لصلاح عبد الصبور وقال عن الشاعر الذى لم يكن يعرفه أحد: هذا شاعر كبير خرج من بيننا.

ذلك هو النقد، الكشف والاختراق والرؤية والإبداع لكن فى بلدنا حيث النظام منذ الأزل سلطوى ينطبع هذا على كل العلاقات ومن حيث أن الناقد

يصدر رأيا فى عمل فهو سلطة وهو بشكل أوتوماتيكى يتمثل فى ذاته كل الجوانب السيئة فى السلطة بمعنى التعالى الأحمق وقصر النظر والأبوية الفجة والسطحية. ثم هناك شىء مروع فى النقاد المصريين هو أنهم لا يعرفون اللغة العربية. وفى أمسية فى بيتى فى القاهرة قرأت على الناس رأيا لناقد فى إبراهيم أصلان، يمدح ابرهيم أصلان، لكننى قرأت الرأى جملة جملة وطلبت كل مرة معنى الجملة ولم يستطع أحد أن يفهم شيئا مع إجماعهم على أن الرأى جيد وأنا سوف أسوق لك هنا بضع جمل من مقالة نقدية وأستحلفك بالله أن تدلنى على معناها: «ومن ثم فهو ليس وحده تفسيرا مستغرقا، أى أن للطاقة الإبداعية للكاتب الفردى دورا خاصيا ومؤثرا.. فيصبح الخطاب شعرا منثورا يصل إلى ذروة التمازج اللغوى لحظة الاحتضار الأخيرة. فتنداح الحواجز بين الفوارق كافة وتتداخل الألفاظ والمعانى معبرة عن اختلاط الرؤى وتقطع الأنفاس واستحضار الآم العمر وأحزانه فى لحظة شديدة الكثافة».

ولو أردت أن أسوق لك جملا أخرى تشهد بعدم معرفة العربية لاستنفدت خطابى لك. لكن إلى جانب ذلك نظريات ومصطلحات غير مفهومة لنا وغير متعلقة بواقعنا مثل (البطل التقريبى) وغير ذلك من طراش ما أنزل الله به من سلطان. لكننا نقيم النقاد عندنا من طريقتهم فى التدخين والصمت والكلام وتسريحة الشعر ثم من علاقتهم وإدارتهم لهذه العلاقات بشكل مثمر.

والخطر الداهم لهذا الأمر هو تشويه عملية القراءة عند الجمهور المصرى القارئ وأضرب لذلك مثلا بنجيب محفوظ. إن أى رواية له كانت تصدر أولا مسلسلة فى مجلة كبيرة يومية أو أسبوعية أو شهرية ثم تصدر فى كتاب ثم تقدم فى سهرة تليفزيونية ثم تمسرح ثم يعمل منها فيلم. والمتلقى المصرى بهذه الطريقة يوحى له أن هذا كاتب تريده السلطة فيشترى كتابه ويحرص على مشاهدة أعماله.ويوجد كتاب آخرون من جيل نجيب محفوظ وهم جزء أخر من التجربة المصرية مثلما نجيب محفوظ جزء مهم منها لكن هؤلاء يعيشون مجهولين. بل يوحى للمتلقى أنهم غير مرغوبين بشكل أوبآخر. بذلك لا تكون القراءة أبدا اختيارا حرا بذلك يكف الجمهور القارئ عن القراءة. يقلب الصفحات ويرفض عقله الفهم.. بذلك كانت حكمة عظيمة من كتاب جيل الستينات أنهم يقرأون لبعضهم فالقراءة ليست اختيارا حرا

وليست استعدادا ناضجا للفهم. لأن ثمة فريقا من الأغبياء المعدومى الموهبة الممسوحى الملامح يصرخون ويتقافزون ويحتلون المناصب ويقبضون الفلوس ويشربون الخمور الرخيصة ويتعاركون فى أماسيهم ويضربون بعضهم وليس لهم ولاء سياسى معين ولا مبدأ أخلاقى معين تراهم فى كل حفلة وكل عمود جريدة وعلى كل منبر وتحت كل حكم. والناتج النهائى لهذا تخلف الأدب فى مصر. كتاب مهمون جدا يتوقفون عن الإنتاج فى أول الطريق مثل روميش. كتاب يبدأون عظماء ثم يدركون أن الكتابة الجيدة لا توصل لشئ فيبدأون فى الاسفاف وفى الكتابة بالأقة من أجل الفلوس والشهرة. نظام القيم الذى يحكم الظاهرة الثقافية فى مصر إما مترجم ترجمة رديئة أو هو دينى مغرق فى الدينية أو هو فهلوى يلعب حواجبه ويغمز بعينه أو هو ترديد لكلام سخيف عن الجماهير العريضة والفقراء والأدب للشغيلة وغير ذلك من هذا الهراء.

الى جانب ذلك فلا يوجد وعى حقيقى بتاريخ الأدب المصرى وتاريخ تكون الكلمة المصرية ولا توجد نصوص حقيقية متداولة من فترات قبل العربية فى مصر ولا توجد نصوص حقيقية لبدء تعليم المصريين العربية والكتابة بها ولا يوجد فصل حقيقى بين الأدب المصرى والأدب العربى فى مصر. ويوجد خلط بين الآباء الحقيقيين للأدب المصرى وبين عمالقة الأدب العربى فى الحجاز والشام وتوجد محاولة لطمس الظاهرة المصرية. ويوجد تجاهل للتميز المصرى بازاء الثقافة الأوربية تميز له أساسه المادى فى الفروق الاجتماعية ودرجة التطور التاريخى. وهناك نقص فادح فى المعرفة باللغة العربية والكسل فى الكتابة حتى أن بعض كلمات تفهم خطأ دون العناية بالرجوع لأصلها. كذلك السطحية المروعة فى المعرفة باللغات الاجنبية حتى لتشيع لأجيال عديدة تصورات خاطئة وموهومة مثل قضية مسرح العبث التى شغلت مصر بلا مبرر ولا تزال تطل برأسها أحيانا.ولست أريد أن أكون من الذين يشتمون ليلا ونهارا ولا يرون ما هو طيب لكن هؤلاء الطيبون يجب أن يجلسوا معا. يجب أن تتكون مجموعة من الناس تربطهم حقيقة أنهم مبدعون نقادا أو شعراء أو قصاصين أو فنانين تشكيليين.يجب أن يسأل كل واحد بوضوح عن إبداعه. عن القيم الجديدة الخاصة به التى كتب عنها وأبرزها وأصبحت دالة عليه وهو دال عليها. لا مراعاة لسن ولا لمنصب ولا لتدخين البايب ولا

لإطلاق الشعرولا للكلام الغامض الذى لا يفهمه أحد. بل بكل وضوح يجب أن يكون وراء كل جالس إبداع خاص ولا يكون وراءه موقف واحد خان فيه إبداعه أو باع فيه كرامته كمبدع، وتكون بعد ذلك الفروق فى الدين والفكر السياسى والمزاجى والعاطفة لكن أن يجيد الجميع العربية ويهتمون بها وتدل كتابتهم على اجتهاد وحرص وأمانة وصدق. فإذا جلس هؤلاء معا فيجب أن يعيدوا تقييم ما هو كائن وليس ذلك بهدف إصدار(مانشتات) يوافق عليها الجميع بل بهدف حصر نقط الخلاف وبدء الحوار حولها حوارا منتجا يبلور كل وجهات النظر ويدعو الجمهور القارئ للمشاركة بوعى وانفعال تشجعه على أن يعيد اكتساب عادة القراءة.

ثم يكون التفكير فى تاريخ الأدب المصرى وحصر كل المادة الموجودة فى هذا الباب وتبويبها ونقدها لا بهدف تكوين رأى شامل بل بهدف حصر كل الاتجاهات الجيدة والحوار حولها. ثم تكون على قدر الوسع تحديد علاقتنا بثقافتين كبيرتين شديدتى الأهمية هما الثقافة العربية والثقافة الأوروبية ثم إبراز السمة المصرية فى مواجهة ذلك. ليس ذلك بهدف تكوين نعرة فارغة بل بهدف الوصول لتصور حقيقى لوجداننا الذى هو شاسع الآفاق والذى تتعدد إمكانيات التعبير عنه بلا نهاية.من هذا الموقف يكون إصدار مجلة يعرف الجمهور القارئ ما الذى تريد هذه المجلة أن تقوله بمجرد الاطلاع عليها. ثم يرتبط بها ويساهم فى تطويرها. أما إصدار كشكول جديد أو الوقوع فى براثن الدبابير التى لا تكف عن الطنين حتى تنشر لها فذلك لن يقدم ولن يؤخر ستوجد ميزانيات وسيكسب ناس بضعة جنيهات وسيشترون قمصانا وبدلا ويشربون خمرا رديئة وتظل الحال كما هى عليه.ثم يجب أن يكون هناك طبع للكتب فى اتجاهين اتجاه إحياء الكتب التى أغمطت حقها والكتاب الذين لم يقدموا تقديما جيدا حتى يعاد التوازن لمفهوم الثقافة المصرية فى جهد واع ضد النجومية والتهريج وتجنيب بعض الناس لأنهم ليس شطارا كما ينبغى. كذلك إعادة طبع الكتب القديمة فى أدبنا بمفهوم حقيقى وجيد لهذا الأدب وجمع الأعمال الكاملة للأدباء المصريين الذين ماتوا مع تقييمهم تقيما صحيحا.

لماذا أكتب لك عن هذا كله لأنك غير راض عن إبداع ولا أنا فكان على أن

أقول لك رأيى بشكل موسع قليلا فى المشكلة كلها.وأنا أكتب الآن للمجلة مقالة عن أوبرا عايدة التى رأيتها هنا. وسأرسل لك مع شخص مجموعة قصصى القصيرة، والمهدى والأخت لأب و طرف من خبر الآخرة. وتستطيع أن تقدم ذلك للمجلة بما تشاء علما بأن كل هذه أشياء منشورة لكنها نشرت فى مجلات لا تدخل مصر. لكننى لن أحزن ولو رفض نشرها على هذا الأساس وأتوقع أن تصدر قريبا فى كتاب.وكم كان يسرنى أن تصدر عن دار القاهرة القصص الثلاث المهدى+ الأخت لأب + طرف من خبر الآخرة. ولازلت أتمنى ذلك.أننى سعدت بصدور «قدر الغرف المقبضة» من دار القاهرة. رغم أننى لم أر الغلاف إلى الآن.ورغم أن الورق رخيص إلا أن الحروف جيدة والأخطاء المطبعية قليلة. وأتصور الآن أنك انتهيت من قراءة هذه الرواية ولا أعرف رأيك فيها لكننى أحدثك عما أردت قوله فى هذه الرواية.. إنني قصدت أن أقول أننى ومعظم ناس هذا العالم نسكن فى مساكن قبيحة وان الإنسان إذا سكن طول حياته فى سكن قبيح فإنه لا يكون أبدا إنسانا جيدا ولا يكون أبدا قادرا على أن يبدع. تلك هى قضية أولى، القضية الثانية أن عالمنا يزداد اتساخا ورثاثة وأن هذه العملية لا ترى لها نهاية وان مصيرنا كبشر مرتبط بها.وفى هذه الرواية أحاول فقط فتح العيون على الكارثة.

(يا الهى كم هى كئيبة ومظلمة ومهينة لنا جميعا هذه القاهرة المومس.إننى مستسلم تماما لما تفعله بى، بل وأصبحت مقتنعا أنها لا يمكن إلا أن تكون كذلك..) المهم أن نرى أن القاهرة هى نحن.

ولقد قرأت كتاب القصة القصيرة فى السبعينات.ولم يجرحنى شيئا مثلما جرحنى هذا الكتاب.إن المستوى ومهينة فى ضحالته وخاصة واحد اسمه إبراهيم الوردانى انه يستهبل بحق ويكتب أشياء ذات سخف مقيئ ويكتب بثقة عجيبة كأنه يكشف لنا عن الكون.وقرأت مقدمة إدوار فلم أفهم عن اى شئ يتكلم.

فقط قصتك أعجبتنى.لكننى لم أعرف أين يكون التشئ الذى تكلم عنه إدوار. أنا أتصور أن فكرتها ببساطة هى أن موت الشهيد يكشف من موت المحيطين به لحظة بلحظة حتى تمضى العربة وكأنها جنازتهم هم.وذلك هو عمق مشاركة «الأحياء» فى جنازات «الموتى».

اعجبتنى أيضا قصة سحر توفيق أتمنى أن تعرف طريقها للنضج وان تبقى كذلك. أرجو أن تتعرف عليها وان تتحدث معها طويلا.إنها تحتاج لتبادل حقيقى عن الفن وعن الحياة.أتمنى ألا تسحقها ابتذالات حياتنا وتحرم ثقافتنا منها.

(تعرف أنا قاهرى وهذه مسألة بالغة الفظاعة) ولقد كتبت مرة قصة قصيرة اسمها القاهرة حبيبتى قرأتها لبضعة ناس ثم مزقتها.حاصلها عودتى بالقطار للقاهرة. المسافة تقصر وأنا أزيد انفعالى وتسرع نبضات قلبى وتتوارد خواطرى حول القاهرة ثم أنزل أسرع الى ايزافيتش فى ميدان التحرير لأقابل الأصحاب حافظ رجب وغيره.

مزقت القصة ثم فكرت اكتبها رواية تصف علاقتى بالقاهرة مرحلة مرحلة حتى اليوم..ثم الحلم الكابوسى لمستقبل القاهرة المخيف.وفى اعماق الرواية صوت أبى يحكى لى.فان جده لأمه كان يرحل للقاهرة وينزل ضيفا على تاجر فى الفجالة كانت له مندرة يقابل فيها الضيوف والعلماء ويتحدث معهم. ويحبه الجد ويتزوج ابنته وتنجب هذه البنت ثلاث إحداهن هى جدتى أم أبى. ولقد رأيت أنا بقايا سلسال هذا التاجر الطيب أحببتهم ناس جزارين وأصحاب دكاكين وصناع يدويين فى الفجالة.تلك هى صورة القاهرة التى كانت تسحر أبى فيأتى كل عام لمولد الحسين ويزور أقاربه وأنا فى يده أرى حبه الصوفى للمدينة وارثه عنه.

إن ثنائية الريفى والخواجاية شديدة التعقيد، وربما هذه إحدى أبعادها، لذلك فإن رواية (محاولة للخروج) تضم قطبا صامت هوالبنت وقطبا متحركا هو الولد الريفى. لذلك فهى قصته هو وليس القطب الاخر سوى المثير والمحرك.

وأنا سأقرأ روايتك بشغف وأنا سعيد أنك تكتب رواية.إنك ستجرب ميدانا يعطى لإمكانياتك فرصة أكبر.ولا أوصيك بشئ قبل أن تستمر فى الكتابة إلا أن تبتعد طول مدة الكتابة عن أى شئ يشغلك انشغالا كبيرا. إن ذلك يضمن للرواية الدفقة الشعورية الواحدة لذلك تكون متماسكة ومتجانسة وقادرة على الفعل. وأنى لأرقب بشغف أن أقرأ الرواية عندما أحضر للقاهرة.

سأحضر حوالى ٦/١٣وسأبقى حتى أوائل أغسطس وإننى لأرجو أن تكون

لدى هذه المرة فرصة أكبر لرؤية الناس، المرة الماضية استغرقنى موت أمى الحبيبة وأشياء أخرى كثيرة حتى لم أر الناس.

هذه المرة سأزورك فى بيتك وسأرى كتبك وكراريسك وسأرى زوجتك وابنتك أننى فرحان بك ككاتب جدا.

ذلك أن أملنا هو أن يكون لدينا كتاب جيدون وهو مهم تماما مثل أن يكون لدينا أطباء ومهندسون جيدون ورجال أحزاب نظاف وعقائديون لا يبغون نجومية ولا شهرة ولا قوة بل تغيير إلى الأفضل.

ولقد كانت صدمتى كتاب القصة القصيرة فى السبعينات. إن الكتاب يكذبون ويصطنعون حب الشعب ويستهبلون ويكتبون عربية مقرفة.وإدوار يطلق عليهم أسماء ما أنزل بها من سلطان وكان عليه أن يزجرهم حتى يفيقوا. إننى أحن لقراءة إبراهيم أصلان وسوف تسعدنى روايته. إنه صادق ومخلص للحقائق ومنبهر بالواقع ومشغوف به. نعد الأيام حتى يوم زيارة القاهرة. وقبل ذلك سيسافر من هنا شاب ألمانى إسمه جرت شيفر سيصل القاهرة السبت ١٩٨٣/٣/١٩ ولقد أعطيته تليفون إدوار الخراط ليتصل به ويسأله عنك وسوف أعطيه لك بعضا من قصص ومقالتى عن عايدة لنسلمها لمجلة إبداع.ويمكنك لو لديك وقت أن تصحبه لزيارة القلعة وجامع ابن طولون والمنزل القديم المجاور للمسجد.هذا لو عندك وقت. وحذار حذار من أن تتكلف فى سبيله مليما واحدا، وأى مشوار تأخذ تاكسى على حسابه هو أو أوتوبيس ويدفع هو التذكرتين ولا تقدم له أكلا ولا أى شئ.. هذه مسألة شديدة الوضوح وأرجو ألا تتصور أننى سأفرح لأنك أنفقت عليه. تلك عادات شرقية أضحكت علينا الدنيا فتجنبها أرجوك. يكون طيبا جدا منك لو أنك لديك وقت وصحبته للقلعة وابن طولون والجوامع وغير ذلك فهو ولد طيب ومهذب.

تحياتى

عبدالحكيم

برلين ٢٦- ٥ -١٩٨٣
أخى محمود الوردانى

وصلنى خطابك صباح اليوم. وقبل ذلك كنت دائب الاتصال بمنزل الشاب الألمانى الذى سافر مصر ولما عاد كلمنى عن القاهرة باحتقار صادر من القلب، أثار فى عينى الدموع ثم قال انه عاد بالأشياء لأنه لم ينجح فى الاتصال بأحد. عليه بقيت أنتظر خبرا منك حتى جاءت رسالتك صباح اليوم، قرأناها أنا وزينب فى (نوNU) وهذه كلمة ألمانية معناها زمن بلا مساحة.وأصبح البيت بعد قراءة كلماتك غيره قبلها. أتذكر أخر كلمة فى خطاب لروميش أرسلته له أخبره بقدومى(تسألنى عن حالى أقول لك لقد وهمت الأسباب بكل شئ، أرى ذلك فى عينى زوجتى وأولادى وفى قلبى. أتذكر شيئا عن كاتب مسرحى أمريكى نسيته يصف طيورا عجيبة، بيضاء، شفيفة ليس لها أرجل ولا محط على أرض هذه الدنيا، تظل طائرة حتى تفنى.. فيالها من حالة عجيبة وأليمة)...الآن أندم على ما كتبته لروميش وأراك فى رسالتك وأرى سفينة ومحمود عبدالوهاب ومبروك. إننى فرح بشفاء كريم، وأقول لك أنها ليست معجزة، ليست معجزة توراتية، بل هى معجزة الأب فى مصرنا، لا أريد أن أقول لك كلاما فى علم النفس لا أعرفه، فأنا حقوقى وأحب ذلك، ولا أريد أيضا أن أقول لك أين هو الخير، لكننى أقول إننى صنعتنى النظرات فى عين أبى، أرغمتنى على أن ابرأ من مرض وقد كنت طفلا معلولا وأرغمتنى على أن أبقى صامدا وأنا داخلى مفرغ كغابة، وعلمتنى ان استعذب الفقر والحرمان مادمت على صلة بشئ غامض مهم نبيل ورائع يلخصه الريفيون تحت كلمة رجولة. ذلك ما فعله محمد سفينة مع ابنه كريم أمره أن يبرأ. فإن محمد سفينة حكى لى عن أبيه. كان اسمه سفينة لم يظفر باعتراف اجتماعى رنان، لكنه لخص كل حياته، ربما فى بضع نظرات أو فى بضع لفتات، كوم هذا كله ومر عليه ووضعه فى قلب ابنه محمد. كتب محمد شعرا رائعا (فى حدود حكمى أنا) لكن دوره الأكبر أن يكون أبا يملك القدرة على شفاء كريم. أنا فرحان بذلك وحينما أكون فى مصر أزوره أبارك له. واذكر مبروك. كنا نعود من جلسات المقهى نمشى طويلا معا.. وكان يزورنى.. يبقى صامتا وأنا

اثرثر بلا نهاية إنه جميل أن يكون ثمة صديق تثرثر قدامه شئون قلبك دون خوف. قل لمبروك يا محمود أن يقبلنى كاتبا عنده، عندى مقالات عن الأوبرا والمسرح كنت أريدها لإبداع ولكن نفسى أنسدت عنها أحرق الله صفحاتها. أما محمود عبد الوهاب فأنا أعرفه. هو يعرفنى وقد كنا تقابلنا يوما وقد رأيت فى وجهه تعبيرا عن فزع ما واندهاش ما وازدراء ما واستعلاء ما.ذلك بأنه فى كل جماعة من الناس منطقة صمت، كما انه بجوار كل قرية جبانة. وكما أنك تعرف الناس من أضرحة موتاهم، فإنك تعرفهم ليس من الذى يقولون بل من الذى يسكتون عن قوله. والصمت عندنا مريب متآمر قحب بلا ضمير وأما الكلام فمسجوع وتقى ومهذب وودود ومجامل. ومحمود عبد الوهاب ينصت لهذا الصمت وليس لهذا الكلام وهو ينظر بعينين مليئتين سخطا من خلف نظارته الطبية. ذهبنا الى داره وجلسنا قدامها فى الشارع على كرسيين وكان حديثا طيبا. ثم انه أرسل لى خطابا هنا.

وقرأت له شيئا فى الطليعة زمان وكتب كلاما عن «رامة والتنين» كلمنى عنه روميش من الكويت وتبادلنا عنه خطابات. أما انه يكتب عن روايتى فأنا فرحان بذلك وأحدس انه سينظر فيها إلى ما سكت عنه أكثر من نظره فى الذى قيل. أما عن محمد المخزنجى فقد عمدت بعد خطابك إلى قصته قرأتها وليتنى اقرأ له أكثر فأنا أثق فى حكمك على الأشياء ويؤسفنى ألا تكفى المادة التى تحت يدى من كتابة او تجربة شخصية، لدفعى الى مشاركتك لحكمك. وأريد أن أقول لك عن جيل الستينات شيئا خطيرا، وجه خطورته انه داء كل جيل وأكثر من ذلك أنه شئ يشبه القدر صعب جدا الخلاص منه.وحاصله ان الجيل صناعة الوقت الذى وجد فيه ومارس فيه نيته. وكان عبد الناصر سمة عصر جيلنا. والانتقال الى السادات كان شيئا لا يتحمله عقل. فحدث ما يسمى(بالجب) فانقطع الجادون لمدة طويلة حتى يعيدوا فهم الموقف واستمر الانقطاع لمدد طويلة، مستمرة حتى اليوم عند روميش الذى حول حزنه السياسى الى ظرف شخصى متمثل فى ارتباطه شبه الأسطورى بوالده المرحوم الحاج صادق روميش. إن الكتبة وغير الموهوبين والتافهين وكلاب الحكام كما حددتهم لا يستطيعون تحطيم أحد، هم يعرفون أنفسهم وخواء داخلهم ورعبهم، إنهم منذرون لنا لنبول عليهم مثل حيطان شارع الجلاء وذلك فى

أمسياتنا الفقيرة المفعمة بالكبرياء. يطن فيها كما تطن حول الشواهد ذبابات المقابر. وكلامك عن « قدر الغرف المقبضة» أثار عندى تساؤلات كثيرة. هل ينبغى أن يكون الفن كابوسا وبذلك أتذكر رواية العبيط التى قرأتها فى زنزانة فى أسيوط وكانت ليلة مخيفة.

القضية إننى أرى أننا نحيا الكابوس ونعتاد عليه فإذا ما كان ثمة فن ينبهنا إليه فهو فن كابوسى. ولكن انظر إلى المستعمرات السكنية فى شبرا الخيمة وعزبة دلاور وعزبة البرابرة فى حلوان إنها كابوس حقيقى. والقضية عامة وعالمية مخيفة. ففى ألمانيا كتبت فتاة سنها ١٦سنة رواية عن الإدمان بعد أن غرقت فيه وخصصت صفحات طويلة للعمارة التى كانت تقيم فيها وشككت فى أن فن العمارة بهذا الشكل يمكن أن يدفع للجنون. وأنا أذكر الليلة التى قضيتها فى المنزل الملئ بالأكلان. ثانى يوم ذهبت إلى الشغل وكأن شيئا لم يحدث. وهناك حقيقة علمية أن الواحد إذا تنفس هواء رديئا فان القلب يحدث فيه جروح، تندمل بعد ذلك لكنه يبقى قلبا مجروحا ونحن نعيش بقلوب مجروحة مندملة جروحها، فإذا جاءت صورة الأشعة لتنبئنا بالحقيقة فإنها صورة كابوسية. وعليه فإن، الفن الشبيه بالحياة هو أقل الفنون حديثا عن الحياة أما عن روايتك. فأنا لست مفجوعا انك توقفت عن كتابتها. فقط أريد منك ألا تركن إلى الاعتقاد بأن رغباتك مقدسة وعليه تترك الكتابة إذا لم يكن لك نفس أو إذا كانت الظروف غير مواتية، ولا أقول لك ارغم نفسك على الكتابة.لا. فقط أقول لك حاول أن تعرف لماذا حدث التوقف.وليكن البحث فى العمل نفسه. اقرأه بصوت عالى لزوجتك، ستجد لماذا توقفت فأحيانا يعزف الواحد نغمة غير متطابقة مع همه عند ذلك لا تطاوعه موهبته ولا يلين له قلمه. وتلك حالة فؤاد مؤلمة واذ يخطر على بالى أنك تعانيها. أملى راجيا أن تمر منها الى الكتابة الى ان تجد بيرق كبريائك ترفعه وتمشى به فى عرض بر مصر. حينما أكون فى مصر سوف أقرأ ما كتبت وسوف نتكلم كثيرا وسوف تكتمل الرواية. الرواية عمل حقيقى إنها تستوعبنا وتجعل لقضايانا أسماء وعناوين فلا تضل ولا تضيع ملامح وجوهنا فى الزحام.فلا تنشغل عن القضية بشىء آخر.أما عنى فإننى سأصل القاهرة فجر الثلاثاء ١٩٨٣/٦/١٤ ستكون القاهرة نائمة نوما مؤرقا بالأحلام الفزعة وسأمضى فى الشوارع مع سائق

تاكسى يكرهنى دون أن يعرف من أنا حتى أرسى على كوم الزبالة أمام شقتى فى ميت عقبة، وهناك أجد نفسى وحد وجاره ما أسعدنى هناك.وهناك ألقى الناس كلهم وأتمنى لو أخذتهم معى إلى البلد وجلسنا فى نادى الشباب نتكلم مع أولاد بلدنا من الجيل الجديد وفى المساء نعمل ذكرا وحضرة مع دراويش أبى ثم نأكل لحم جديان ونعيش لحظات تدق فيها قلوبنا على السبسب والدفوف وعلى صوت المنشد الريفى المبحوح الصوت المكسور القلب:

سر تم وسار دليلكم يا وحشتى
العوق اشجانى وصوت الحادى

عبد الحكيم قاسم

برلين الغربية فى ١٩٨٣/١٢/٢٣
اخى محمود

تحياتى ومودتى، كل سنة وأنت طيب بمناسبة مولد النبى الكريم والعام الجديد وعيد ميلاد المسيح المجيد. إننى تعيس جدا لأنك فى ظروف لا تسمح لك لأن توظف كل طاقتك فى عملك الفنى، بينما مصر تحتاج فى ظروفها الراهنة إلى ألف كاتب والى ألف كتاب حتى تكون الحياة العقلية ممكنة وحتى تكون القراءة إحدى إمكانيات الإنسان المصرى..

قلبى معك يا محمود. سعيد أن عائشة أصبحت تذهب إلي مدرسة قريبة وان ذلك فيه حل لجزء كبير من مشاكلك.. ألا ترى أننا تكلمنا كثيرا عن عائشة وعن لينا وأنا لم أراهما أبدا.. فى الصيف القادم نراهم إن شاء الله.. أتصور أننى عندك يوم فتضع أمامي كومة من الورق وهى روايتك.. التهمها دفعة واحدة وأجلس دائما لمدة عشر دقائق قبل أن أبدى لك فيها رأيا.. ربما.

وصلتنى أسئلتك وأنا فى حالة يرثى لها من الانشغال وضيق الوقت والأزمة المالية..كانت الإجابة عليها مستحيلة.. وكان مستحيلا أيضا أن أخيب رجائك.. الإجابة على الأسئلة غير كاملة وعصبية..لكن لا قدرة لى على تحسين أى شئ. أرجوك اجتهد ألا يرسل لى أحد آخر أسئلة أخرى..فقد فعل فؤاد حجازى ولم أستطيع أيضا أن أرفض طلبه.أعلمني بعد النشر..أرسل لى نسخة من الجرنال.. ولا تحذف كلمة واحدة.. وقل لى.. هل تسمح لى بان أنشر باسمك فى مجلات أخرى مثل الآداب أو الكرمل التى يصدرها محمود درويش؟

أوصل الأسئلة المرفقة إلى الأخ فؤاد حجازى مع تحياتى أرسلتهما معا توفيرا لنفقات البريد.. ولعلك أنت اطلعت على إجاباتى على أسئلة أخرى أفادك هذا فى تكوين رأيك عن عملى.

وتحياتى وحبى لأخى الحبيب إبراهيم أصلان.. وللإنسان الرائع عبد الفتاح الجمل..تحياتى للأخ العزيز إبراهيم فتحى له حبى وتقديرى بلا حدود.

ماذا تكون مصر من غير هؤلاء من غير روميش ومبروك وإبراهيم منصور والآخرين..رب اجعلنى أول من يموت.. أخر من يحيى وحيدا

عبد الحكيم قاسم

إلى سامى خشبة

برلين الغربية مساء الاثنين ١٣/٣/١٩٧٨
أخى سامى

فى خطابك رنة الحديث عن الأيام الخوالى، أتراها تعود ؟ والشباب ؟ إننى لأحس الفرح ويندر أن تكذبنى الرؤيا.

أكتب لك من مساء برلينى عجيب، ومن موقع الخدمة، فأنا أعمل حارسا ليليا فى قصر شارليتنورج، وهو تقليد ألمانى لفرساى، ومحتوياته تقل عظمتها عن اللوفر ولكن ليس كثيرا. فإن تر هذا القصر وتعاين كنوزه ذلك رائع. أتمنى أن تتجول فيه ليالى بطولها، وأن تقف أمام كل قطعة على حدة حتى تنسى نفسك، ثم تمضى عنها، ثم تعود إليها، فإن هذه التجربة شئ لا ينسى.

كنت قد اتصلت حالا بالبيت، كما أفعل كل مساء من الوصول للعمل لأطمئن عليهم، وثرثرت قليلا مع خيرية[1]، لم تكن مصادفة سعيدة لها أنها لم تجد محلا على الطائرة المسافرة الخميس ٩ / ٣ واضطرت للبقاء إلى الخميس ١٦ /٣، وأعتقد أنها لم تسعد بذلك كثيرا بسبب الزوج والعمل والعيال، لكننا سعدنا بوجودها بيننا، ومن ناحيتى وجدت بينى وبينها قرابة غريبة، قرابة أبناء القرى الريفيين القدامى، وأعتقد أنها المرة الأولى فى حياتنا وفى حياتها أيضا فيما أظن أن يقترب منا إلى هذا الحد من لا تجمعنا به قرابة، وسوف نفتقدها بعد سفرها كثيرا، وسوف يظل لها عندنا مكانة الأخت العزيزة.

أضع أمامى خطابك الأخير، أقرأه وأحس من خلال ما حكته لى خيرية عن دوامة العمل التى تغرق فيها، ويثير إعجابى حقيقة انشغالك بموضوع نظرى على جانب كبير من الأهمية هو البحث عن مفهوم قومى خاص بنا للدراما، وإننى لشديد الحماس لعملك هذا، ويسعدنى أن نتبادل حوله الرسائل، وإن كنت لم تشر لى به فى خطابك إلا عابرا، إلا إننى فهمت أنك تغرق فى ركام من أعمال فنية وروائية وأنَ فى حسبانك ابتداءا السيرة الهلالية وسيرة الزير سالم، وهذا منهج صحيح إلا أنَ لى تحفظين، وقد تعجب من تحفظى وأنت لم تقل شيئا تقريبا، الأدنى للصواب أن تحفظى وارد على تصورى أنا للموضوع: واحدة: أن السيرة الهلالية والزير سالم من جنس الملاحم تقريبا

[1] خيرية البشلاوى الناقدة السينمائية وزوجة سامى خشبة

والبحث فيهما عن مفهوم الدراما قد يكون مضللا.

الثانية: إننى أرى أن يكون البحث عن مفهوم للدراما فى أعمال مصرية بحته، أقول هذا رغم علمى أنك تعنى السيرة الهلالية والزير سالم فى صياغتهما المصرية، لكننى أجد أن تاريخ الأدب المصرى يبدأ بالشعر الجاهلى عند كثيرين، والصحيح أنه يبدأ بحكاية الفلاح الفصيح مع ملاحظة الزمن وما صار بمصر من تغيير العصور واللغات والديانات.

والشعر الجاهلى بدء ردىء ومغلوط لتاريخ الأدب المصرى، وحتى القرآن، وإن كان عاملا عظيم التأثير على عقليتنا ولغتنا وكثير من مفاهيمنا وتصوراتنا.

ولا أدرى إذا كان هذا سياق منطقى لكننى أمضى إلى ما حكيته لى عن الأبنودى وجهده العظيم فى جمع السيرة الهلالية وإذا كنت لم أفطن تماما إلى ما يريد بعمله هذا إلا أننى أظن أنه يحاول أن يكتب ملحمة.

ولست أزعم أن ظنى هذا صحيحا، كما أننى لا أستطيع أن أصادر على رغبة الأبنودى فى كتابة ملحمة، لكن من حقى أن أتشكك كثيرا فى عمل كهذا، وألا أتوقع أن يثمر خيرا كثيرا.

الملحمة قد اختفت تماما من الأدب الغربى- كما تعلم- فى العصور الحديثة، بل إنها لم تظهر فى الأدب الإنجليزى أو الألمانى أصلا إلا فى صورة هزيلة بالمقارنة إلى جلالها فى أدب الإغريق أو عند الفرس أو الهنود –وأنت سيد العارفين بهذا – ولقد حلت الرواية الآن كجنس أدبى محل الملحمة التى لم يعد الذوق الحديث ولا قيم المجتمعات القائمة تحتملها.هكذا فى الأدب الغربى، وهذا الأدب الغربى هو واجهة الأدب فى العالم وقيمه ومدارسه ونظرياته هى الحاسمة لكل كتاب العالم. والعالم الشيوعى لم يستطع أن يقدم الأدب (الآخر) وكل ما قيل عن قيم جديدة وعن بطل اشتراكى ورؤيا متفائلة وأشياء من هذا القبيل طار كالهشيم، والنظريات الماركسية فى علم الجمال والتفسير الاجتماعى للأعمال الأدبية، هذه النظريات الماركسية دخلت فى ظاهرة الأدب الغربى كتيار من تياراته الأساسية و أصبحت مدرسة من مدارسه فى التفسير، ويدرك الدارس أنها بذاتها ليست كافية لفهم عمل أدبى كبير.وغنى عن البيان أن العالم الثالث أيضا لم يقدم شيئا يخرج عن ذلك الأدب الغربى.

والخوض فى التفسير لهذا الظاهرة ممتع، ويسرنى أن أتبادل معك حو له الرأى، فعلم الجمال الآن أضيق من هذا، وهو غير ضرورى حيث أن القضية لا تحتمل الملاحاة وعليه فإذا كان الأدب الغربى قد هجر الملحمة فلا أظن أن أدبا (آخر) بقادر على أن يخرج هذا الجنس الأدبى من مخازن التاريخ ويعيد له بهاؤه وقدرته على القول، لكنه حيث أن الله لم يصدر عنه بيان بانهيار عصر الخوارق، فربما كان الأبنودى قادر على أن يكتب ملحمة وأن يغرى العالم بالاستماع إليها.اشك فى هذا، وأجد أن السكة التى سلكها جمال الغيطانى فى تثوير أهل الورى بما جرى فى المقشرة وغيرها مما على شاكلتها، هذه السكة أسلم، فهى لا تبتعد عن الأجناس الأوروبية الحديثة (القصة القصيرة- الرواية القصيرة – الرواية) لكنها تستخدم شخوصا مضمخة بعطر التاريخ شديدة الثراء وقيمتها الرمزية عالية، وهى حبيبة إلى قلب القارئ المصرى وفاتنة إلى قلب القارئ الغريب.

سكة محمد الصادق روميش أيضا، حيث حاول أن يستبعد من لغته الفنية (فى قصة الليل الرحم) تماما مصطلح المثقفين، وأن يصطنع خيال ورؤية القرويين للغة وأن يثبت أن هذا قادر على أن يقدم (فى حدود تجربة القصة) عالما شعوريا حافلا وعظيما، وهذا ما فعلة الأبنودى بنفسه إذ يستحضر لغة الناس فى مصر العليا ويكتشف جمالها وكمية الشعر فيها وقدرتها على الوصول إلى قلوب الناس الذين زهدوا لأسباب شديدة التعقيد القوالب اللغوية التى سادت فى الأدب المصرى مدة طويلة.

وتصورى إذن أن الأبنودى ليس لديه إلا إمكانية واحدة هى أن يفكك هيكل السيرة الهلالية الهائل إلى أجزاء صغيرة يستخدمها فى كتابة عصرية، أى أن يحيل السيرة إلى شخوص ولغة ورموز وحوارات يبنى منها قصائده أو مسرحياته أو قصصه وأنا أكاد أكون على يقين أن الأبنودى بحسه المرهف سوف يصل، أو ربما يكون قد وصل فعلا إلى مثل هذا الحل من خلال معاناته للكتابة، ومن خلال معاناته للقراءة أو الاستماع.

ومن المؤسف أن أقول أن الأبنودى سوف يصل إلى حل قضية الذاتية، قضية الإبداع عنده، سوف يصل إلى الحل بنفسه، وكان المفروض أن يكون عونه فى ذلك حركة نقد قصائده موجها فى الحياة الثقافية المصرية، لكن الأمر

مؤسف وحركة النقد باهتة وفقيرة، وأنا أرى أن هذا طبيعى من ذات المقدمة التى انطلق منها، فإذا كان الأدب المصرى لم يخرج بشكل عام عن الأدب الغربى عجزا، إلا أننا فى ذلك نجد فارقا فى الإنشاء والنقد ونجد أن الأخير صورة باهتة لمدارس النقد والتفسير فى الغرب بينما الإنشاء استطاع أن يتمايز ولو إلى حد قليل.

فإذا كان الراوئى المصرى والإنجليزى مثلا يستخدمان الشكل الفنى نفسه، إلا أن كلا منهما يستعرض واقعا مختلفا، لكن الناقد المصرى وهو يفسر أدب بلده يستخدم أدوات النقد الغربية، وهو لهذا باهت وفقير وعاجز عن القيام بدور قيادى فى عملية الإبداع ومن هنا تكون مسئولية الفنان فى مصر أن يتخذ لنفسه وعلى قدر جهده نظريته النقدية ومفهومه الجمالى وسائر العدد المطلوبة، وهو كثيرا ما يخطئ وكثيرا ما ينقطع نفسه ولا يكمل سكته الفنية (يوسف الشارونى-عادل كامل.....وكثير) وكثيرا ما يكرر نفسه حتى تصبح قادرا على التنبؤ بما سوف يقول.

وفى موضوع الكتابة بالعامية شعرا ونثرا، والشعر على وجه الخصوص، رغم أن هذا الشعر كثير جدا، ورغم أن لدينا شعراء عامية مجيدون (جاهين – حداد – الأبنودى – حجاب وغيرهم كثير) ورغم أن الشعر العامى فى مصر قديم جدا، رغم هذا نجد أن الأعمال النقدية والتنظير و الترشيد والتنبؤ كل هذا فقير فقرا مدقعا. قيل إن مفهوم اللغة العامية حتى الآن لم يتناول تناولا علميا حقيقيا (فى حدود علمى) وليس فيه سوى رسائل دكتوراه مضجرة تتكلم عن العامية كدسيسة من الاستعمار لمحاربة القرآن الكريم، وإذا كان الأمر كذلك فإن حركة الشعر العامى تأخذ شكل التجميع الحرفى ولم تتحول إلى تيار يخصب ثقافتنا وخيالنا الفنى.

أننى أحىّ فى الابنودى اتجاهه للدراسة الأكاديمية، إنها تعبير عن احتياج الفنان المصرى لان يعرف بنفسه لأن النقد لن يقدم له ما ينبغى أن يقدمه للفنان من ترشيد وتبصير، فلنسأل أنفسنا ماذا قدمت مقالة لويس عوض عن أمل دنقل[1] لهذا الشاعر، لم تكن سوى إعلان غال الثمن فى الأهرام وسع شهرة أمل، وقدم له على سبيل المنحة من لويس عوض بعد إلحاح ناس كثيرين

---

[1] نشرت فى جريدة الأهرام تحت عنوان «شعراء الرفض» بتاريخ ١٩٧٢/٧/٧

عليه... هكذا..وعلى هذا الشكل حالات كثيرة.

شئ فى الأبنودى أقوله لك وأنت تعرف ذلك هو حبه الشديد للشهرة وللمال وللتقرب إلى السلطة ولا ألومه كثيرا، فالوجاهة فى مجتمعنا ليست عن نصيب الفنان مهما كان إبداعه إلا إذا أضافت له السلطة من لدنها شيئا، وأنا فى الحقيقة بينى وبين نفسى ابتسم، إن الابنودى ريفى ماكر وهو فنان حقيقى وهو فى ظنى على قدر من الموهبة اكبر من ضعفه، بل قادر على تجاوز هذا الضعف وأن يحقق شيئا.لقد ثرثرت كثيرا، أرجو أن تكون لديك طاقة نفسية على استساغه هذا الخلط بين الأشياء، وأن تعذرنى فإن الحديث مع الأصدقاء مازال يلذ لى، وأنا هنا أعانى من الوحدة والضجر وعليه فإننى فرح جدا بقدومك فى هذا الصيف وسوف أرتب مع خيرية الوسائل الكفيلة بجعل إقامتك فى برلين الجميلة مثمرة وممتعة.

سوف تحكى لك خيرية (بالتفصيل الممل الذى عاشته معنا) إننى حصلت على منحة دراسية صغيرة، ولن أضطر بعد ذلك للعمل لكسب عيش، وسوف يكون لدينا عند حضورك كثير من الوقت لأنفسنا، فى انتظار أن تقدم إلينا أو أن تكتب لى. لك ولكريم ولحسين شعلان كل حبى وتحياتى.

عبدالحكيم قاسم

إلى سعيد الكفروای

برلين الغربية عصر الثلاثاء ٦ مارس ١٩٨٤
أخي سعيد

فرحت بخطابك كأننى رأيتك وأخذتك فى حضني ورأيت الذي كان رأى العين... يا سلام يا عالم..والله العظيم يا سعيد إحنا أجدع ناس..صوتك يملأ سمعي ووجودك يزحم وجداني وأنت لازلت أنت.. طاقة لا تنفذ.. رقيق كطفل..طيب كأم..شديد الذكاء..شديد الدهاء..مبدئي بلا لحظة مساومة.. شديد الاحترام لذاتك.. أنا فرحان أنك صاحبي..وسأجتهد أن أحتفظ بصداقتك طول العمر.

كل الذي حكيته عن مصر، عن البلد، وعن القاهرة، عن الأصدقاء والمقاهي والأرصفة والمآذن، كل هذا رأيته وجربته وعرفته..وندوب الجروح في قلبي يا سعيد وفى هذا أريد أن أقول لك.. إن مصر عوقبت بجريرة نظام السادات عقابا لم ينزل بأمة من قبل ذلك أبدا.. يكفيها ما رأت. لا ينبغي أن نسخط أو نشتم... إلى ذلك فمصر تعود إلى نفسها رويدا رويدا..ومصر تعرف بشاعة الذنب..وتعرف فداحة التوبة، لكنها صادقة النية على أن تكفر.. تلك هى الحقيقة فلا تخدعك أى مظاهر أخري.. وأنصت للنبض الحقيقى وأعد قلبك للفرح.

شئ عجيب..كلنا بشكل أو بآخر..وفى وقت متقارب غادر مصر فى غيبة طويلة: إبراهيم منصور، جميل، بهاء طاهر، روميش، صبرى حافظ، سعيد الكفراوي، محمد صالح، جار النبى الحلو، عبد الحكيم وناس كثيرون آخرون لا أذكرهم. تغريبة مثل تغريبة بنى هلال.. حدث كبير لابد ان يدرس من ناحية الدافع إليه ومن ناحية أثره.. من ناحيتى أنا شخصيا اقول لك إننى لو لم أسافر لكانت أصابتنى أضرار فادحة وربما صح ذلك أيضا بالنسبة لمحمد صالح ولك ولبهاء طاهر ولجميل ولكثيرين..لكنه رغم ذلك فإن الفراغ الذي تخلف من هذه التغريبة كان فادحا.

أحس ذلك من خطابك، كل الذى ذكرته جربته على محمل قلبي..» الناس الذين لم يعودوا فى انتظارى..» بل أكثر من ذلك أحس السؤال الجارح الموجع أين كنت؟. وأحس الكراهية والعداء وأقول لك الحق إننى أسلم نفسي

فى صمت للجرح والوجع. نعم، إننى سافرت وهجرت، كان لازما لى. كأن الذى سافر ينبغى أن يدفع أجرة السفر. معه احبتنا كبشر كما لم تحب أحدا قبلنا(اقول مصر وأنت تفهمنى) ومصر أحبتنا كما لم تحب أبدا قبلنا والآن تلك جفوة نستحقها.. علينا أن نشق سبيلنا رجوعا إلى الوطن. سيكون الأمر شاقا لا مناص. لا ضير أن تسقط أسنان إبراهيم أصلان، سيظل بالنسبة لى جميلا كأجمل ما يكون الرجال. لا ضير من البلى والرثاثة والوسخ. الإنسان إذا هرم اقترب من الموت ومات. أما الوطن فإنه يولد من جديد ثم يصير إلى الشباب والفتوة. ونحن فقط الذين سنكون شموع السبوع، ونحن الجدعان الذين يدقون الكفوف فى الفرح.

الذي هو رائع حقا ظهور مجموعة مبروك، إنه الآن رجل أصلع أكثر مرارة وأكثر حدة وأقول مراسا. لكنه مبروك الذي عرفناه والذي أحببناه، وصدور مجموعته هو عودته إلى الكتابة وذلك مكسب هائل لجيلنا.. هل ترسل لى مجموعته يا سعيد؟

ولقد فرحت بديوان محمد صالح، إنه شعر مجيد وأنا سأكتب عنه، فلو أن أحدا كان قد كتب عنه للآن فقص لى المقالة وارسلها لى.

أما مجموعتك « حكايات عن الأطفال والوطن والموت» فسأفرح بها كما فرحت بـــ « أيام الإنسان السبعة». يا إلهى انا الجدير بأن أكتب لها دراسة، لا يوجد فى الدنيا من يحس بفنك مثلين لكن لا بأس، سأكتب عنها بعد صدورها. والصديق إدوار الخراط سيقوم بالواجب وأكثر، ولكن عدنى بأن ترسل لى نسخة على المكنة لو عندك واحدة زيادة وسأكتب فورا مقالة تصدر يوم صدور المجموعة. فماذا تكون الدنيا لو لم أكن أنا صاحب النصبة يوم فرحك.

أحوالى هنا على ما يرام، سكن جيد ومدرسة قريبة وعمل مريح وأحوال متيسرة وعندى عربة. لكن لا حساب فى البنك، إيزيس قطعت ثلاثة اشهر فى عامها الثالث عشر، وكذلك أمير فى عامه الحادى عشر. صبية وصبى فى غاية الطيبة والانطلاق والفرح بالدنيا. اليوم خيطت أنا جلبابا فلاحيا لأمير ليظهر به على المسرح فى المدرسة متحدثا عن مصر وعن القرية. إيزيس تدرس موسيقى غربية (فلوت) وأمير كمنجة ويقرآن كثيرا ولا يذوقان لحم الخنزير.

زينب تعمل مدرسة للاجئين الفلسطينيين واللبنانيين. العمل شاق لكنها تحس أنها تؤدى رسالة مهما كان الأجر متواضعا.

أتقدم فى دراستى ببطء، لكنى مصمم على الانتهاء منها. تزحمنى الرغبة فى الكتابة وأحاول أن أكتبها حتى انتهى. الحياة هنا مثل الحياة فى بهو مستشفى نظيف لامع معقم، لكنه بارد ويملأ القلب رجفة، لكننى عرفت الأشياء التى كانوا يذلوننا بها، عرفتها حتى آخرها، فأنا أكثر مصري على الإطلاق من أول الحكيم وحتى الآن، أنا أكثر مصري شاهد أوبرا ومسرحا وسمع موسيقى وزار متاحف ومعارض وعرف السياسة والحياة والأدب والفن والناس فى أوروبا.

سأجي إلى القاهرة فى الصيف، أتمنى أن أبقى نهائيا، لكننى سأعود لألمانيا، ربما للمرة الأخيرة، وفى صيف ١٩٨٥ أبقى نهائيا. انتظر بعد قراءة « الأخت لأب» و «سطور من دفتر الأحوال» « وقدر الغرف المقبضة» أن تكتب لى.. وارجو أن تكون رفيقا بأخيك فرأيك يهمنى جدا.

سلامى لزوجتك وللعزيزين حوريس وعمرو.. احك لهم عنى يا سعيد حتى إذا زرتك لم ينظروا لى كغريب..سيؤلمنى هذا.

سلامى لإبراهيم أصلان وإبراهيم فتحى وعبد الفتاح الجمل وكل من يسأل عنى.

عبد الحكيم

إلى محمود عبد الوهاب

برلين الغربية مساء الأحد ١٩٨٤/٩/٢٣
أخي محمود عبدالوهاب

أليس سعيداً أن يكون أول ما يصلني من بريد بعد رجوعي من الإجازة خطاب منك؟ إنني فرحت برسالتك وقرأتها مراراً وكتبت في رأسي ردوداً عليها وهأنذا أكتب وأريد أن أضع علي الورق أجمل ما خطر علي بالي. لعل وعسي.. أياً ما كان الأمر فإنني قد فردت ورقة خطابك أمامي وأرد كلمة كلمة.

أما أنك لا تريد أن تروض أنفعالك كي تتخذ سمت النقاد ذوي الرصانة والوقار والترفع(تلك كلماتك) فإنني أجد في ذلك رداً علي رأي أبديته لك بعد أن قرأت لي مقالك عن «الأخت لاب» وأنا أتذكر أنني أعجبت بالمقال وكان رأيي عن الحماسة في الكتابة رأي جانبي جداً وأنا مندهش أنك تتذكره بهذه القوة، إما أن تكون عنيداً جداً، أو أن تكون حساساً من ناحيتي. الاحتمال الأول يخوفني عليك، لأنني أخشي أن يضع العناد حائلاً بينك وبين الحقائق مصنوع من الاعتزاز بالنفس. ونحن نجد عزائنا وشرفنا وكرامتنا في الحقيقة لا يحول بيننا وبينها شيء ولا حساسية من أي نوع، الاحتمال الثاني يخوفني منك. لأنني منه أتحقق أنك تراني غير ما أراك. وأنا بعد أن عشت في هذه الدنيا طويلاً اكتشفت أن الصاحب إنما يحب في صاحبه أو يكره أشياء يحبها ويكرهها ربما لا يكون لها من بعيد أو قريب علاقة بشخص صاحبه. هذه فكرة تروعني وأريد أن أكتب عنها يوماً ما قصة.. لكنني أريد أن أجعل هذا الاحتمال بيني وبين من أعرفهم أقل ما يكون. وعليه أقول لك إنه لا مبرر أن تكون حساساً من رأي أبديته لك في عمل من أعمالك. إنني لا استعدي أحداً ذلك ليس طبعي أنا أريد الأحسن. أرجوك أن تصدقني علي أي حال أريد أن أوضح لك ما عنيته. إنني ألاحظ منذ فترة أنه سواء بوعي أو بغير وعى أخرجت الحركة الثقافية والأدبية المصرية القارئ المصري من حسابها كلية. هكذا أصبحنا نكتب ونقرأ لبعضنا. أما القارئ فقد استأثرت به الصحافة والكتب الدينية وكتاب الجنس ذلك خطير وعلينا أن نتجه بالتدريج لاكتساب القارئ مرة أخري. لذلك حينما أنصت لمقالتك فكرت بهذا الشكل. لو كانت نغمة

الحماس أقل لكان ذلك أكسب لثقة القارئ. هذا رأي ولا دخل له بأن تتخذ سمت النقاد وذوي الرصانة والوقار.

أعجبني جداً ما كتبته عن قصة رجوع الشيخ وكنت أعرف أن القصة ستعجبك، لكني لم أكن أتوقع هذه الدرجة من التأثر التي تجعلك تكتب لي وبعد سفري بقليل. إن هذا يذكرني بليلة قرأت فيها قصة (الليل الرحم) لمحمد روميش.. أرجو أن تكون أنت قد قرأتها.. قرأت الليل الرحم ذات مساء وأعجبتني إلي أقصي حد حتى إنني وددت في ذات اللحظة أن أري روميش وأخاطب فيه المنطقة السرية التي خرجت منها القصة.. لكن ذلك كان صعباً فقررت أن أكتب له رسالة. فعلت وطويت الورقة وضعتها في جيبي. وتصادف ثاني يوم أن قابلت روميش في شارع شريف. صرخت من الفرح وأعطيته الورقة. قال لي إنه منذ ساعة وقف علي ظهر العمارة التي فيها عمله. وقف طويلاً يفكر في إلقاء نفسه من آخر دور لأنه إنسان غير فعال وغير مجد وأن الحياة سخف.. تصور! قلت له: إن من يكتب الليل الرحم خليق بأن يقام له تمثال، وهو إنسان أكثر قيمة من بشر آخرين يملأون الدنيا زعيقاً.

فرحت بخطابك جداً علي المستوي الشخصي ومن ناحية تحليلك للقصة أجده رائعاً. لقد قرأت زينب الخطاب وقالت إنه مقال صالح للنشر وأنا صدقتها وعليه فإنني محتفظ لك بالخطاب لن يضيع ربما تحب الرجوع له. وقد رأيت أنك ركزت علي ثلاثة أبعاد الأول قوة حضارة الغرب، الثاني إنبهارنا بها الثالث حضارتنا القديمة التي يجب أن نحبها ونعتز بها ونجيد امتلاكنا لها ومن ركيزة هذه الحضارة الباهرة فهمها للجنس وللعلاقة بين الرجل والمرأة فهما يميزها عن الحضارة الأوروبية وعن الحضارات الآسيوية، إنها تحب الجنس وتحب الاستمتاع به وتعلي صفات الرجولة والأنوثة وتميز بينهما تماماً، ومأساتنا الآن أن الحضارة الأوروبية التي بدأت في الأعوام الأخيرة تراجع وضعها من الجنس والزواج تتيح الطلاق وتعترف بالعشيقة إلي جانب الزوجة الرسمية وغير ذلك من صور أخري لا داعي لاحصائها، الحضارة الأوروبية لاتزال قادرة علي تملأنا بالحساسية ضد الجنس وتجعل ذلك من الآداب العامة، إنني إذ أقرأ كتاب طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي أو المحاسن والأضرار للجاحظ أعجب للحرية والخلو التام من الخيار الزائف

أو الوازع المصطنع. هذه كتب في يدنا نقرأها ونحن ممنوعين بقوة القانون من إمتلاك الحرية التي تحتلها الكتب. فما جدوي تحقيق هذه الكتب ونشرها تلك أكذوبة حاصلها الادعاء ببعث حضاري مع انك تمنع الناس من اعتناق الآراء التي في هذه الكتب عن العالم الذي حولها.

المسألة التي أردتها بهذه القصة هي السؤال الآتي: هل يمكن لإنسان ينتمي لحضارة مهزومة أن يحقق انتصاره الشخصي منطلقاً من هذه الحضارة. إنني فى رأيي أن ذلك ممكن علي كل الجبهات «كما يقال» يمكن لو أنه مشرعاً استنبط نظرية فقهية تقضي حاجات الإنسان المعاصر وتنطلق تماماً من تراثنا. لو أن معمارياً بني بيتاً عصرياً مستوحي من تقاليدنا في العمارة. لو أن صانعا طور آلاتنا القديمة حتي تواجه مطالبنا الحديثة. لا أدري كيف كانت تكون السيارة والثلاجة والفازة. بالقطع كانت تختلف قليلاً. أقول ذلك مثلاً وفي زمني الفرق بين العربة الألمانية مرسيدس والعربة الفرنسية ستروين. الأمر في الأدب هو أكثر هذه الأشياء سهولة، وأكثرها صعوبة في ذات الوقت لأنه يتضمن جدلاً عميقاً مع الثقافة المنتصرة يمكن خلال أن ينتج موقف متماسك إزاء كل تحدياتها. وموقف يتماسك أيضاً إزاء كل مناطق الضعف في الثقافة المهزومة. وذلك يقتضي كمية من الكبرياء.. الكبرياء الحقيقي.. الكبرياء الذي يختلف عن تصغير الخد للناس والزراية بهم أو الحدة في معاملتهم. كبرياء حاصله الاحترام الشديد للذات والرغبة العميقة في فرز كل محصول العقل والقلب وإعادة ترتيبه كل مدة. وكما قلت الأمر في الأدب أكثر سهولة لأن الكاتب سيجد في ضمير المتلقين شوقاً دفينا ينبض. أما ما يعنيه بشكل حاسم فهو اللغة. إن آداتنا لازالت أداتنا القديمة. بينما في الصناعة مثلاً إندثرت أدواتنا نهائياً وضاعت أساليبنا ومهاراتنا. أما اللغة فلاتزال وهي قادرة بسرعة مذهلة علي وصل الفجوة بين الماضي والحاضر وبشكل شديد الفعالية.

لذلك فأنا أطرح هذا الفرض ولا أقصد به أن نقرأ كتب السير والتواريخ ثم ننقل فصولاً منها مع بعض التعديلات هنا وهناك ولا أقصد أن نتبني أسلوبها أو مواقفها أو حكاياتها. إنما أقصد أن أحيا حياتي الآن وأن أعزل عنها كل مؤثر أجنبي فإن كان ذلك صعباً استعنت بخبرة الآباء.. هل تفهمني.. ربما نتكلم عن ذلك مرة أخري بشكل مفصل. لكن الموقف من تراثنا الثقافي هو الوعي

به ثم ممارسة حياتي الآن بكل ما فيها وذلك فرق واسع بيني وبين الإسلاميين الذين يريدون فرض تقاليد قرية صغيرة اسمها مكة علي القاهرة أو فرض مُثل مدينة قرون وسطي اسمها بغداد علي القاهرة. تلك أشياء ينبغي أن أعرفها وأحج إليها ثم أعيش يومي هذا في القاهرة مع زوجتي هذه وأولادي هؤلاء.

الآن أنظر في الذي اعترضت عليه في قصتي ومنه حديث الصبي كمال مع زبيدة عن المدرسة. وقبل ذلك أتناول المبدأ الذي يقف وراء رأيك. هذا المبدأ يقول إن الشخصية ينبغي في العمل الفني أن تتكلم وتتصرف بشكل يمكن توقعه منها، أو بشكل واقع في حدود إمكانياتها. وهذه أفكار الواقعيين الأوروبيين الذين اتسع نفوذهم بعد انتشار الأفكار الاجتماعية بعد الثورة الصناعية في أوروبا، ورأيهم أن الأدب يجب أن يقدم صورة للواقع حيث تؤدي القراءة إلي الوعي بالعالم المحيط لا الخداع منه. وأنا مختلف مع الواقعيين وأشد اختلافاً مع الواقعيين الاشتراكيين الذين يزيدون بأنه ينبغي أن يكون الأدب صورة للواقع في حركته المتقدمة إلي الأمام. وتفعيل اختلافي مع النظريتين كالآتي:

إنني وقد مارست الكتابة هذا العمر الطويل نشأ لدي بالضرورة موقف من الفن. وقد كتبت فعلا كتاباتي هذا الموضوع، أنتظر نشره حتي أجمع خبرات أكثر وحتي يكون لاسمي ثقل يجعل الناس تسمعني باهتمام أكثر. وما أقوله لك الآن أفكار من هذا الكتاب.

أختلف مع الواقعيين لأنه لا يمكن خلق صورة للواقع. إن الملاحظ لا يري الواقع بل عقيدته عنه. والكاميرا تختلف صورتها باختلاف الزاوية والأدب ليست صورة الواقع ولا تشبيه به، بل هو جدل معه. هذا اختصار ممل لكنني أتصور أنك تفهمني وإذا كان الأمر كذلك فلماذا ينبغي مثلاً أن تنطق الشخصية بما يتوقع منها فقط، أولاً أقول لك إنني رأيت مواقف تكلم فيها الناس كلاماً معجزاً وأنا علي استعداد، بل إنني أحوش نفسي بقوة عن أن أحكي لك عشرات الحكايات من هذا النوع. كما أن ذلك ممكن علمياً حيث أثبت علماء اللغة أن المفردات التي يستعملها الإنسان تمثل جزء قليل من المفردات التي يعرفها وكثير من معرفة الإنسان بالحياة يضغطها خوفه من الكبار أو من السلطة أو غير ذلك. لذلك أتصور أنه يسعني أن أجعل الشخصية تقول ما تشاء

في إطار العمل الفني. في إطار العمل الفني باعتبار ذلك هو الشرط الوحيد لذلك أنا لا أري باسا أن يتكلم طفل كما تكلم كمال. والعرب عملوا لذلك حيلة ظريفة،. يوجد (فلان يقول)، ويوجد أيضاً (لسان حال فلان يقول) وأنا متحمس جداً لهذه الصياغة وأعتبرها نظرية صائبة في الفن.

من الموقف السابق يكون مفهوماً أنني لا أجد غضاضة في أن أجعل أحد الشخصيات ينخرط في الخطابية أو أن يكون أسلوب الحكي خطابياً، بل وخطابياً جداً، بل ولمدة طويلة جداً، أقول هذا للمرة الثالثة! في إطار العمل الفني وعليه استخدم الخطابية والغنائية والفكاهة وغير ذلك لملأ الكلمات بطاقة تعوزها في هذا الموضع بالتحديد.

لكنني أجد اعتراضك علي هذا الموضع صائباً، ليس لأنه خطابي. توجد مواضع أخري في القصة أكثر خطابة.. بل لأنه يكسر بشدة جو القصة الذي هو بعيد عن (الغرف) في لون محلي لبلد واحد. فإذا جاء ذكر المماليك وغير ذلك فأنت بشدة توجد في مصر وتنزل من جو القصة، أو من مستوي إلي مستوي آخر أشد خصوصية، لذلك وجد القلق لديك ولدي أدوار الخراط ازاء هذا الموضع وقد اقتنعت به وغيرته وأرسلت التغيير إلي ادوار ليضمه إلي القصة ويعدم الجزء الباقي وفي التغيير لم يكن همي أن أرفع الخطابية بقدر ما كان همي أن أوصر مناخ القصة برفع مَثل لا ينطبق إلا علي جزء من تجربة التاريخ العربي والثقافة العربية.

الخلاصة أن واقعية الشخصية وتجنب الخطابية من ثمرات النقد الواقعي الذي دخل مصر علي التقليد الماركسي.. هذه نظريات نقدية لا ينبغي أن تؤخذ مأخذ المسلمات بل أن يعاد النظر فيها بهدف صوغ نظرية نقدية مصرية جديدة أكثر توافقاً مع واقعنا الثقافي وطموحاتنا الفنية.

لكن خطابك يشجعني علي أن أطلب منك أن تعيد قراءة قصتي (سطور من دفتر الأحوال) إن انطباعك عنها في تصوري مستعجل جداً. إن الشبه كبير جداً بين القصة وبين رجوع الشيخ من حيث النظرة الشاملة لموضوع هو حصر حيث تراها في كل تفصيلة صغيرة وتراها في العمل كله.

كذلك فإن قصة - طرف من خبر الأخرة - فيها نفس السمة ولست أدري إن كنت قرأتها أم لا، لكن هذه هي أعمالي الثلاثة الأخيرة وكم أتمني أن

تراهم في هذا الضوء وأن أسمع رأيك في هذه الرحلة من كتابتي إنني أعرف أنك أحببت (أيام الإنسان السبعة) و(قدر الغرف) و(رجوع الشيخ) و(الأخت لأب). إن ذلك يعطني كثيراً من الثقة بنفسي وأتساءل، هل أنا أصبحت فعلاً حقيقاً بأن أحمل لقب كاتب مصري؟ كم أتمني أن أكون مثلك وكم أحس في أعماقي بعدم القدرة علي أن أكون.

سلامي لك وفي انتظار أخبارك.

عبدالحكيم

ساءني أنك لم تحضر صباح يوم سفري كما وعدتني.. تحيرت جداً.. ساءلت نفسي هل كان ما فعلت خطأ؟ إنني علي أي حال كنت سليم القصد.. وأنا لا أستطيع أن أعيد الأشياء إلي ما كانت عليه.. لذلك كلفت أخي عبدالمنعم المرور عليك.. وإتمام نوع من الحل الوسط.

برلين الغربية صباح ١٩٨٤/١١/١٦
أخي محمود عبدالوهاب

ستبقي علاقتنا حرة وصافية من أي كدر طالما ملكنا هذا الاخلاص لمصر ولثقافتها القديمة الجليلة وللكلمة التي طهرت ورفعت ولأنفسنا وللناس من حولنا.. يا أخي إنني مشتاق جداً لأني أري كتابيك.. القصص.. والنقد.. وأعد نفسي بمتعة فنية وعقلية عميقة. وأعدك بأن أقول عن الكابين مفصلاً القول تفصيلاً. وسنتي أن أري في إنشائك حال من أحوالك، أو صورة من صور وجودك لا أبحث فيها عن الدنيا، بل أبحث في الإنشاء عن المنشئ. فما بحثك في الصبي كمال عن صبي من عمره ومكانته وعجزه. إنه أنا الذي كتب، إنه أنا الملئ بالشوق للقول عن هذه الدنيا، ولا أدع أحداً يقول عني، لا الصبي كمال ولا المرأة زبيدة ولا غيرها ولا غيره من شخوص الفن. الفن فني والقصة قصتي وأنا الموجوع بالبكاء، فما إثقالك لطلاقتي بنظريات النقد ومعايير الفن. لا يختلط كتابي بكتاب غيره ولا أسلوبي ولا كلماتي، أضعها علي لسان من أردت. فالأمر عندي ليس تصوير الواقع القائم، ولا خلق شبيهه ولا مسخه بل الحوار معه، العراك معه، عجنه وإعادة تشكيله، تفتيته وإعادة تركيبه، أو إبقائه علي حاله عجينة وفتاتاً. وأنا في كل الأحوال الأعلي. وفي ذلك فإن قامتي مازالت بعد قصيرة، فإن كاتب ألف ليلة المجهول جعل الناس تطير ويصيرون إلي قردة وخنازير، وجعلهم يقولون العجب ويعيشون الحقب ويأتون الخوارق.. كل ذلك في جهد رائع للحوار مع عصر الرشيد. عجنه وصنع كعكة منه. تحطيمه وصنع لعبة من أجزائه. تأكل الكعكة فإذا العصر في بطنك تمسك اللعبة فإذا بك وقد جربت مسرة قادمة من ذلك الوقت السحيق. محمود إنني أريد آفاقاً أخري وكان يجب لذلك أن أتعلمه ألا أخاف من النقاد. إن لهم دور غير سعيد في تاريخ الأدب المصري الحديث. وقليل هم الذين لم يخافوا النقد. وجيل السيتينيات خطيئته أنه أخرج القارئ من حسابه. وأضرب لذلك يحيي الطاهر مثلاً باهراً. إنك إن كنت قرأت قصة جبل الشاي الأخضر ولم تكتشف أنها حديث موجه للمثقفين فقط فلابد أن تعيد قراءتها. وإذا قارنتها «بالليل الرحم» ستجد أن هذه تحد رهيب لكل المواصفات التي

انتهي إليها نقادنا ومفكرونا. بقي أن أعبر لك عن لهفتي لقراءة مقالك عن المهدي. كل يوم أنظر في بريدي ولا أجدها. وأتعجب. كنت أتصور أن مقالك عن الأخت لاب صدر فعلاً، وكنت أتصور أن عدد الرواية سيصدر في ديسمبر ٨٤. إنني أرسلت لهم الفصل الأول من رواية اسمها(عن كفر سيدي سليم) والفصل اسمه (تجلي السر) ١٨٠٠٠ كلمة وأستعد من الآن لشتائمك لأنه لا علاقة ولا توازن من المتكلم وعبارته عند شخوص الفصل. ما أخبار الدنيا؟ هل رد شفيق فريد علي مقالتي؟ هل جاءت البيان الكويتية إلي القاهرة؟ وماذا قال الناس عن مقالتي عن ألفريد فرج. ألا تعرف متي يصدر العدد عن الأدب المصري في مجلة الكرمل؟ أكتب لي عن دنياكم فإنني هنا مشتاق لها ومحروم منها وحيّ عني كل الأصدقاء والأحبة. عبدالحكيم

سأتصرف في أمر عبدالمنعم والموضوع كله تصرفا مرضياً.

برلين الغربية الخميس ١٩٨٤/١٢/٦

عزيزي الأستاذ محمود عبدالوهاب

أجد صعوبة في الإجابة علي خطابك الحافل، المتنوع المواد.. لكنني سأتغلب علي حيرتي بأن أجري علي السطور قراءة وإجابة في ذات الوقت. أما عن مقالي عن ألفريد فرج الذي منع صديقي العزيز سامي خشبة نشره في «إبداع» فقد نشرته مجلة «البيان الكويتية». وسوف أحزن لو قلت لي أنك لم تقرأه، أرجوك أفعل وقل لي رأيك فيه. أما عن ماهر شفيق فريد فقد افاده الذين نصحوه بالصمت والامتناع عن الرد وإلا فإنني كنت عازماً علي أن أذيقه العذاب.. وهذا عزم لم أتراجع عنه، بل أنظره إلي حين. وقد سرني أن يكتب المخزنجي ويا ليتني أعرف ما قاله وما قالته الدكتورة فاطمة موسي وقد أسعدني ظهور مقالك عن «الأخت لأب» في إبداع أهنئك وأهنئ نفسي. أرسلت فصلاً من روايتي الجديدة لسليمان فياض لكنه يجده كبيراً جداً «٥١ صفحة» حتي يستحيل نشره. أم عن مقالك عن «المهدي» فإنني أشكرك عليه من قلبي، وعلي اهتمامك بما أكتب. إن ذلك يخجلني وأحس أنني لا أستحقه. وأتمني أن أعرف لماذا ترفض الأهالي نشر المقال؟ سرني ظهور «الأشواق والأسي» وأرعبني أنهم يسمونني الكاتب الكبير وأخشي أن يبعثر اللقب الذي له في نفوسنا توقير بأن يوزع علي من هب ودب حتي تضحك الناس علينا وتضيع مهابة الكتابة. أما كلامك عن المجموعة فأعتقد أنه نواة مقالة نادرة أصبح شكل المقالة يسيطر علي طريقتك في التفكير وهذا خصب وطيب. وصحيح ما تقوله من أن المجموعة ظهرت متأخرة عشرة سنوات بل ربما خمسة عشرة سنة، لكن أسألك هل أصبحت القصة قديمة بحيث لا تقرأ؟ إنني قلق لمعرفة استقبال الناس لها. وقد علمت من سليمان فياض أنك عملت ندوة عني في مقر التجمع.. فرحت بذلك جداً أيها الصديق العزيز وأشكرك من كل قلبي.. هل تحكي لي عن ذلك أرجوك من الذي حضر.. والناس.. وماذا قيل.. كيف يفهم الناس غيابي وغربتي وأشياء أخري كثيرة. إنني بخير وأحاول أن أكرس وقتي لدراستي ولا أفكر في أي شيء متعلق بالكتابة حتي أخلص وأعود لمصر فقد تعبت من الغربة. كيف أنت؟ هل تكتب لي بسرعة؟

عبد الحكيم

برلين الغربية في ٨٥/١/٥
أخي الأستاذ محمود عبدالوهاب

تأثرت جداً بالملاحظة في آخر خطابك عن إحساسك بأنني مرهق وأنك تفتقد توهجي وانطلاقي.. أنني مريض منذ ثلاثة أسابيع بالتهاب رئوي حاد ونزيف في أوعية الرئة الدموية تزيده سوءاً حالة ضيق صمام القلب القديمة عندي مما يؤدي إلي تدفق الدم من فمي وأنفي. كان عليّ أن أتناول عدداً هائلاً من الأقراص سببت إنحطاط وظائف أجهزة الجسد وحالة من الكآبة والكسل وفقدان الرغبة. في ذلك حل عيد ميلادي الخمسين ٨٥/١/١ -مولود ٣٥/١/١- احتفلنا به وحدنا لقد أحاطتني زوجتي وطفلي بعطف شديد وأسعدوني بهدايا كثيرة ومائدة حافلة مساء ٨٤/١٢/٣١ وسهرنا معاً حتي الصباح وأنا جالس معهم متدثر بالبطاطين أسعل وأبصق الدم. لكنني كنت فعلاً سعيداً. من عمري هذا أنظر إلي الأيام التي مضت. إن ما أنجزته ككاتب وكإنسان قليل جداً. لكنني راضي. فقد جهدت جهدي وما كان لبشر أن يتجاوز ما وهبه الله من إمكانيات العقل والجسد.. كل ما كنت أتمناه هو أن يكون ثمة نظام اجتماعي وسياسي في بلدنا يتيح للفرد أكبر توظيف ممكن لكفاءته وقدراته. لا أريد لإنسان أن يقفز علي ظله، لكنني أكره أن يكون ثمة ما يعوقه علي أن يحقق ذاته. ومن عمري هذا أنظر إلي الأيام القادمة. لدي عمل كثير جداً ينبغي إنجازه. أتسال هل ستتاح لي فرصة إتمام مشروع حياتي؟ إنني سأحاول جهدي، فإذا لم أنجح فإنها أسئلة مطروحة علي ضمير الثقافة المصرية، وهي واجدة إجابتها يوماً ما، فقط يكون التسويف وإضافة الوقت خسارة فادحة لا يحيط البصر بمساحستها إذا مد نظره إلي المستقبل من موقعه في الوقت الحاضر. الشيء المؤكد أنني لست نجماً من نجوم الكتابة المصرية. فقلة عدد رواد ندوتك يرجع إلي هذه الحقيقة ليس إلي عدم الإعلان ولا إلي وجود ندوة أخري في دار نقابة الصحفيين. أنني كاتب موجود في زاوية مبهمة من ضمير القارئ المصري. وأنا راض بهذا الوضع أنه يمنحني القدرة علي أن أهمس باضطرار وبنغمتي الخاصة جداً حتي أخلق وسط المعزوفة الكبري لحناً متميزاً، هو جزء من المعزوفة الكبري، وهو أيضاً

نقيضها ودوره هو تلق أحسن لها وحكم أكثر صحة عليها. هكذا يمكنك أن تحدس تقييمي للمناقشة التي دارت في ندوتك وسوف أفرح بالاطلاع عليها. كانت هذه الندوة سبباً في أن تقرأ سطور من دفتر الأحوال مرة أخري أنني لسعيد أنك في القراءة الثانية استمتعت بالعمل أكثر، بل كان سبباً دفعك إلي النظر في كثير من قضايا الإنشاء، وأن ترفض المقارنة بين جزءيه في عمل فني ونظيرها في الواقع. وأنا أستحسن ذلك في إطار شامل حاصله أنه لو لم تكن الدنيا ما كان الإنشاء، ذلك الذي هو ناس وغرف وكلام وزعيق وبكاء وعاطفات ونوازع معلنة وكامنة وغير ذلك مما هو الدنيا بلا نزاع. وإذا كنت ذلك أفزع منه. فإن أمالي ليست الدنيا ولا صورتها ولا شبهها. إنني نحلة قرص العسل، ليس عسلها الزهرة ولا صورتها ولا شبهها، بل هو جوهر جديد في خصائصه ومزاياه. نعم. لكنني أتأمل فإذا المثل الذي حزت لا يقوي علي الثبات للنقد ولا هو الصورة النهائية التي ينبغي أن تبقي عليها العلاقة بين الواقع والقول عن الواقع. لكن لماذا يتحتم أن تكون ثمة صياغة لتلك العلاقة؟ الحق أن المطلوب هو طرح كل صياغة من هذا النوع للمناقشة الحادة الملحة. هكذا في كل مرة، حتي نري ونعيد النظر من جديد في دأب متصل لا يتلكأ في محطات الوصول إلي نتائج من أي نوع. «سطور من دفتر الأحوال» تطرح قصوراً ما للعلاقة بين الدنيا والإنشاء، بين الحاصل والكاية، بين الواقع والقول عن الواقع، أو بلغة النقاد، بين الواقع والأدب. أنت تري ثمة تداخلاً بين وظيفة المؤسسة العربية تتداخل مع وظيفة السلطة القاهرة حتي يتحول الخوف إلي حس بالقداسة والرهبة. ذلك حكم يحمله العمل إلي قارئه. أنت وضعت يدك عليه في القصة وأنا استحسن ذلك ولا أرده عليك.. فقط أتخوف من أن أستخراج حكمة من عمل ما، شيء مؤداه تعطيل وظيفة أجزاء كثيرة من هذا العمل. لعلك أدركت هذا فكتبت مستطرداً عن رغبتك في الكشف عن الأسرار الجمالية والفكرية للقصة. السكة لذلك في رأيي هي مسألة العلاقة محل كلامنا وتمحيصها، وأريد هنا أن أكاشفك ببعض الحقائق الجغرافية والتاريخية في العمل، ثم أن أشير إلي بعض الهموم الفكرية التي تقصف بالقلب والعقل في كل كلمة وسطر. ثمة طمس مقصود للمواقع والسكك ولحدود المكان وتضاريسه في العمل لعلها تهدف إلي تجريده من ارتباط يعطل قدرته

علي إطلاق القول وتعميمه. لكن جهداً مركزاً يستطيع أن يستشف أن القصة تدور أحداثها في قريتين إحداها صغيرة «الكفر» والأخري كبيرة فيها النقطة وسرايا الباشا. والعلم بشيء من تاريخ حياتي يؤكد أن القريتين لا يمكن إلا أن يكونا البندرة التي تأتي في أعمال كثيرة لي باسم الكفر والقرشية التي تأتي دائماً تحت اسم «القرية الكبيرة» بذلك لا تكون السرايا إلا للمنشاوي باشا ولا تكون النقطة إلا نقطة شرطة القرشية ببنائها وأشجار ذقن الباشا أمامها. وإذا قلت كل ذلك فإنني أخاف. فإن ما في القصة ليس البندرة ولا القرشية ولا صورتها ولا شبههما. إن العمل خلق آخر له دولابه وقوانين حركته. والقصة تقول إن الشمس والنهر في مصر صنعا الأرض والناس والمهن والنظام الاجتماعي. ثم تؤرخ لبداية الصلة بين مصر وأوروبا وكيف أدى ذلك إلي أن تزيد أداة القهر دقة وإحكاماً ورهافة. ثم تحكي القصة عن تاريخ المنطقة. عن المنشاوي باشا الذي كان كاتباً لدي إبراهيم باشا بن محمد علي الذي كان يملك القرشية والبندرة تمكن الكاتب من تكوين ثروة خاصة بالسياط والعبيد. لكنه لعب دوراً وطنياً أيام إسماعيل وناصر عرابي، وأوي عبدالله النديم دون أن يعرفه وهذا وعظه بأن يكفر عن ماضيه ببناء المساجد والمشافي. هذا هو القدر من التاريخ في القصة. ما أكاد أحكيه حتي استغربه فالقصة ليست هذا التاريخ ولا صورته ولا شبهه إنما هي حكاية قائمة بذاتها لها لغتها وإشاراتها وحكمتها. والقصة تحمل كثيراً من الهموم الفكرية عن حياتنا قدمتها في صور عديدة لا يربطها نسق واضح: سلاّخ الحمير، الزوجة المحبطة الضابط نصف المجنون، الطفل البائس الذي يتحول إلي شيخ كفر، صانع السكاكين في الجمالية وغير ذلك كثير مما يقول إن هذه الحياة دموية وقذرة ومتربة ونصف حية ونصف ميتة ونصف مجنونة، هل هذه هي حياتنا. لا، بالقطع لا

تلك هي الحياة في داخل القصة بكل نواحيها ليست صورة ولا شبه حياتنا علي ظهر هذه الدنيا. القصة تناقش قضية السلطة. في ذلك تقدم ناسا يصنعون حكاية ملخصها خلق مناسبة تستدعي تدخل السلطة فيكون التدخل بشعاً ودموياً. لكن أين تتجسد السلطة. لا يمكن أن نقول إنها تتجسد في الضابط إنه مجنون تحكم سلوكياته خيالاته المضطربة. كذلك لا يمكن القول إن السلطة تتجسد في الرقيب المكلف بالعذاب، إنه لم يجلس علي الكرسي. ولا

يصلح شيخ الكفر لتجسيد للسلطة وهو في آخر الأمر يقف فاقد الحيلة خائفاً. لكن السلطة تأتي وهي تهوي كالسيف تقطع وتبتر، فما القضية إذن. القصة تتأمل الناس واحداً واحداً وتجد في كل واحد بلا استثناء التسلط والخضوع، يستولي الخضوع لمن والتسلط علي ماذا. بذلك تشير القصة إلي السلطة. السلطة هي نحن، هي تديننا، تفلسفنا، تصوفنا، شذوذنا، قسوتنا، حناننا، رغبتنا في الهدوء والدعة والنظام، السلطة هي انحطاطنا وتساميناً، السلطة هي هلوسة الضابط العاجز جنسياً وعصفه بالمتخاصمين، هي شوق زوجة الضابط للحب والاحتضان ومطاردة الزوج لاستحضار رجولته وامتلاكها ملك الرقيق. السلطة هي آلام طفولة شيخ الكيف ورغبته في حماية ناسه. السلطة هي أخلاقية الرقيب المحافظة وعشقه الأبدي للنظام. وهكذا وهكذا. والجميع يجمعهم سرادق الطرب. يسمعون الغناء، الذي ظَلم والذي ظُلم الكل موجوع والكل مشتاق. وإذن، فهل السلطة تبرر صفة النهر أو الشمس أو التاريخ أو الجغرافيا؟ وإذن فهل الحال أبيد وهل سدت سبل الخلاص؟ لاشك أن القصة لا تحض علي أي فعل من أي نوع ولا تحبذ انتقاماً أياً كان ولا تقدم تصوراً بديلاً ولا تصف كيف يكون التغيير. ذلك هو أيضاً الأمر في كل ما كتبت حتي الآن تقريباً. وعليه فإنني أقل الناس في مصر استحقاقاً للقب كاتب الثورة. بل الأمر أنني كاتب محافظ هذه حقيقة عرضتها عن نفسي منذ مدة، ألفتها وتعلمت أن أعيش بها ولها. والمحافظة عندي نقيض الثورة التي هرم وإعادة البناء. كل ما كتبته من الآن يرفض هذه الفكرية وعجبها. والحافظة كذلك تناقض بشدة فلسفة ترك الأشياء لما هي عليه، ذلك هو الجمود والرجعية، فما الحافظة إذن. تلك عندي ناتجة من حقيقة أنني أكتب. الكتابة هي محاولة السيطرة العقلية علي الواقع المحيط. وكلما تقدمت معرفتنا الحقيقية بمجتمعنا كلما إزدادت قدرتنا علي تمييز الايقاع الخاطئ في دولاب حركته، تحديد العنصر الخطأ في تكوينه. فأنت لا تفرض علي المجتمع تصوراً أجنبياً عليه، بل تقترب من المجتمع وتفهمه وتحاول أن تعينه علي أن يكون ذاته. أنت إذن تعترف بالحقائق القائمة، بالناس والطاقات وتكتشف قانون حركتها الأساسي بإزاحة كل محاولة لتزييفه أو تعويقه. في ذلك ستدرك أن كل مجتمع له قانونه الأساسي وأن هذا القانون هو خير دائما وأن السبيل هو(المحافظة) عليه لا

فرض قانون آخر عليه مهما كان القانون الغريب حافلاً بفرص الإفادة. هل ما قلته حتي الآن صحيح؟ ليس المهم هو كون كلامي صحيحاً أو خاطئاً، إنه صياغة للعلاقة بين الكتابة والواقع كما تقدمها قصة (سطور من دفتر الأحوال) وكما تقدمها كتابتي بشكل عام هذه الصياغة لا ينبغي أن تقبل كما هي، الحق أن المطلوب طرحها للمناقشة الجادة الملحة حتي نري ونعيد النظر من جديد في دأب لا يتلكأ في محطات الوصول إلي نتائج من أي نوع. ولا ينبغي أن نتصور للحظة واحدة أن الأمر بذلك مقصود لذاته، وعليه فهو مجرد من الحكمة، لا. العلاقة بين الإنشاء والواقع تختلف من عمل إلي عمل من أعمال الكاتب الواحد وتختلف من كاتب إلي كاتب وتختلف باختلاف اتجاهات المجموعات المختلفة من الكتاب ومدارسهم ومذاهبهم وباختلاف الأوطان التي ينتمون إليها والعصور التاريخية التي أنجبتهم وملأتهم بروحها. العلاقة التي نحن بصددها إذن تأخذ مائة ألف صياغة وصياغة علي الناقد في كل مرة أن يصفها وصفاً محددا واضحاً. هذا الوصف لا يخلق به أن يكون محايداً أو إحصائياً أو ناظراً للعلاقة من الخارج، إنما هو عمل شديد الحصافة والحساسية يهدف إلي التساؤل عن مدي «الصدق» في العمل الفني. هذا المعني الشديد الخصوصية المتميز تماماً عن الصدق بالمعني الأخلاقي أو التاريخي أو الاجتماعي، هذا المعني هو الذي يبحث عنه الناقد في العمل الفني، كيف تحقق وكيف تألق، أو هو تلكأ وتلعثم أو كان أن تحول إلي كذب علي حقيقة الأشياء. السؤال الطبيعي الآن هو الذي يريد أن يستجلي حقيقة ذلك - الصدق - أهو متحقق في حكاية ألف ليلة عن الأمير الذي يحوله السحر إلي قرد أم في شخصية كمال عبدالجواد في ثلاثية كابتنا العظيم نجيب محفوظ أم فيهما معاً؟ تلك قضية أخري خليقة بأن نتحاور حولها. فالكلام معك متعة عقلية أقبل عليها منشرحاً راغباً. إلا أن يحول بيني وبينها وهن صحتي وحالات الكآبة التي هى قسمة الذين تغربوا عن أوطانهم وعاشوا حقيقة أن تكون أصواتهم بلا صدي تغيب في صمت مجهول. تلك واحدة الثانية أن حفاوتك الكريمة المخلصة بأعمالي تخجلني إلي أقصي حد. إنها في الحق شيء لم أعتاده. الذي اعتدته إما أن يكون رفضاً فجاً أو مديحاً أحسه دائراً حول العمل عاجزاً عن اقتحام سره وفض طلاسمه وحل ألغازه.

وإذ يخجلني اهتمامك بي يتعقد لساني فلا أدري في الحقيقة ماذا ينبغي أن أقول فيحصل أن أعلق تعليقاً قد يكون سخيفاً مثل تعليقي علي مقالك عن (الأخت لأب)، أو أن أصمت وأكتب لك خطاباً مليئاً بالعجز عن القول. لكن كلمتك في آخر خطابك الذي في يدي، وأنك تفتقد توهجي وتأملي في روحي المتجددة هذه الكلمات حركت ربغتي في الكلام فكتبت متمنياً ألا أكون أثقلت عليك. تحياتي لك ولزوجتك وابنتك أرجو لأسرتك الصغيرة السعادة والهناء. هل تسمح لي أن أرجو أن ترسل لي بالبريد نسختين علي الأقل من الأشواق والأسي ونسختين علي الأقل من مجلة المسرح. هذه الأشياء تحصل عليها من أخي عبدالمنعم ورقم تليفونه ٣٠٤٢١٩ وأشكرك من الآن علي ما سوف تبذله من جهد وما سوف تتكلفه من نفقة.

عبد الحكيم

برلين الغربية مساء الأحد ١٩٨٥/٢/٤
أخي وعزيزي محمود عبدالوهاب

أشكرك مخلصاً علي ما تجشمته في إرسال النسخ من (الأشواق والأسي) لي. أرجوك لا تتعب نفسك بحثاً عن مجلة المسرح فقد وصلتني فعلاً. أما خطابك الرقيق لي فقد أسعدني حقاً. كما أنني استمتعت بقراءة مقالك. إنك بالخطاب والمقال وضعت أمامي مادة فكرية شديدة الثراء والتنوع ينبغي علي حتي أحيط بها وأحاورك حولها أن أشمر عن ساعد الجد وأعمل وأكدح طويلاً. ولأنني أشفق من ضخامة الموضوع فسوف أقتصر علي نقطتين أولاهما تعليق مقتضب علي الفكرة الأساسية في مقالك. تلك جديدة وتثير إعجابي بلا تحفظ. ولم أكن تبنيتها تماماً حين كتبت لي في خطاب سابق تقول لي إنك تعتزم الكتابة عن رواياتي صارفاً النظر عن الترتيب الزمني لظهور الأعمال ناظراً لها مجتمعة معتبراً وحدة فيها لها منطق غير منطق تتابع الظهور. لم أستطع تبين فكرتك جيداً حين جاءت في خطابك لكنني حين قرأت المقال تجسد لي قصدك تماماً. ككل الأفكار المهمة فإن فكرتك شديدة البساطة، تنطلق من أنه لا يوجد مبرر واحد لاعتبار التسلسل الزمني معياراً لترتيب أعمال أي منشئ، إلا إذا كان ذلك خضوعاً معصوب العينين لمنطق الخط الكتابي وأفقية وإمتداد تسلسل المسائل الحسابية علماً بأن العقل وإمكانياته المتفرقة التي تسمي الروح أو الوجدان أو العواطف والميول والأمزجة والاتجاهات أو التذكر أو التوقع أو الحدس. العقل بإمكانياته المختلفة هذه لا ينشط بطريقة أفقية في تتاليات تشبه الخط الكتابي أو المسائل الحسابية، بل هو يصنع عمائر مركبة شديدة التداخل يحكم ترابط أجزائها منطق شديد الإحكام وشديد الحيوية بمعني بعده المطلق عن الجمود والثبات. وعلي الكاتب أن يفسر تلك العمائر العقلية (التي يشيدها العقل بإمكانياته المتعددة) في أنساق الخط الكتابي، حتي يكون التلقي فتنطلق العوالم من القسر التي فرض عليها لتحيا في عقل المتلقي حياة أخري شديدة الخصوصية وشديدة الشبه بالمتلقي. فالنقد إذن عليه أن يخترق كل أنواع القسر ليصل عالم الكاتب في حيويته وترابطاته الحقيقية المتحررة من قسر التسلسل الأفقي للخط الكتابي والتتالي الزمني. إلي ذلك

فإن العمل يخرج إلي الحياة نتيجة مثير يدفع الكاتب إلي الكتابة هذا المثير يخضع إلي حد كبير لعامل الصدفة الذي يقدم ويؤخر مكونات عالم الكاتب في تكونها وتخلقها إلي عمائر مصنوعة من كل إمكانيات العقل المختلفة. فإذا صارت أعمال الكاتب محيطة كلية أو جزئياً بعالمه فجدير بالناقد أن يكتشف المنطق الحقيقي الشديد الإحكام والشديد الحيوية في نفس الوقت والذي يربط أجزاء عالم الكاتب إلي بعضها. لكن هناك صعوبات فادحة في إتباع هذا المنهج.. أولها أن الأفكار الشائعة قد يكون لها علي الكاتب تأثير يحرف أو يشوه أو يعطل تخلق عالمه الحقيقي.. وأن أهم أعمال الكاتب قد تأتي في وقت مبكر قبل أن تنضج إمكانياته الحرفية والفنية أو قد تأتي متأخرة بعد أن تكون حيويته قد قلت.. كذلك فإن نادراً ما يصل فنان إلي إنجاز كل مشروعات حياته بحيث إنه يكون من غير العملي الكلام عن عالم فنان، بينما هذا العالم لم يخرج منه للوجود إلا جزء ضئيل جداً. هذه الصعوبات يستطيع حلها ناقد تسلح بمثل منهجك الذي يحاول تلمس عالم الكاتب في كليته وحيويته متحرراً من أي ترتيب أو تسلسل أفقي. لذلك فإنني أهنئك علي هذه الفكرة وأتمني أن يكون ذلك منهجك في مقبل حياتك وأن يكون ميزتك وشارتك. النقطة الثانية في حديثي إليك تتعلق بالثورية والمحافظة، صدقت فيما ذهبت إليه من أنني أحاول دفع صفة عن نفسي تؤدي إلي حشري في زمرة قد لا أكون راضياً تماماً عن مواقفها في عمومها أو في تفاصيلها. لكن الأمر له أبعاد أخري قد يفاجئك أنها أبعاد لغوية. فالحق أنني لا أفهم بالتحديد ما هو المعني الحقيقي للمشتقات الكثيرة من الفعل ثار، تلك التي تملأ الأفواه في عصرنا علي قياس وعلي غير قياس، دالة علي شيء محدداً وعلي شيء غامض مبهم مستغلق. سبق هذا وقدم له عكوفنا علي تاريخ الأمم الأوروبية ندرسه ونستغرق فيه حتي نستظهره. في ذلك نسينا تاريخنا، العوامل المحركة فيه ومناهج تحركها، ظواهره في نشوءها واستوائها ووفورها. من هذا تحتم أن تمتلئ رؤسنا بمعان غريبة ليست دالة أبداً أو ليست دالة تماماً علي شيء عندنا. والأمر أمر كلمات أو مصطلحات نستخدمها كما هي مثل برجوازي وكولاك وبروليتاري وغيره. تسعى لتعرف علي ما يدل على هذا بالتحديد فلا تصل إلي شيء، أو تصل إلي كل شيء، فالنحاس باشا برجوازي كذلك

أحمد عبود وعبدالناصر وصديق لك رفض أن يقرضك خمسة قروش لتشرب شاياً وتأكل فولاً. إلي ذلك ألفاظ نعربها مثل ملكية وإقطاع، ونحن لم يكن عندنا في العالم العربي نظام ملكى أبداً بالمعني الأوروبي الدقيق للكلمة ولم يكن عندنا اقطاع ولم يكن عندنا في وقت من الأوقات ثورة بمعني الثورة الفرنسية أو الروسية البلشفية. إزاء كل هذا ينشأ لدي الجمهور المتكلم نوع من تميع الوعي بواقعه وبتاريخه، يتجسد ذلك في تلميذ صغير يلقن أن:(ثورة ٢٣ يوليو قضت علي الاقطاع) ثم يتأمل حوله فلا يري هذا المعني متجسداً في شيء علي الإطلاق. هذه الحقيقة تعدو علي كل شيء تتسرب إلي الكتب العلمية وإلي الإنشاء الأدبي وحتي إلي الأحاديث الدارجة بين الناس في كل أمور حياتهم. أجد ذلك متمثلاً في حكاية مؤسفة حاصلها إنشغالنا منذ فترة بما سُمي «الحداثة» وقد حاولت أن أشكك في الأمر في كتابي علي الدكتور ماهر شفيق فريد. ولم تكن هذه هي المرة الأولي فنحن نخرج من الواقعية إلي الواقعية الاشتراكية إلي الفن للفن إلي اللامعقول أو العبث إلي غيره وغيره من أسماء لا تصيب معني من معان حياتنا. هذا يحزنني ويدفعني إلي معارضة قد لا يكون لها معني، لكنها تعني بالنسبة لي الكثير. إنني لست ثورياً أولاً وأساساً لأنني لا أعرف ماذا يعني هذا وأنا أرفض أن تفكر أوروبا وتتكلم وتتباهي بتاريخها وأنا أتكلم بعدها كببغاء.. فلنحاول أن نرجع إلي كتبنا ونري ماذا تدل عليه الكلمات في تطورها في الأوقات ثم لنحاول أن نتكلم لغتنا لعله بعد وقت طال أو قصر تكون لغتنا نتاج حياتنا. أخيراً أشكرك مرة أخري علي خطابك الرقيق.. إن مراسلتنا تملأني بالحياة وإنني لأرجو أن تبقي لي صديقاً وأخاً.. صحتي الآن جيدة إلا أنني نحلت حتي أنك لا تعرفني إن رأيتني.. وأنا منشغل بالدراسة فإنني أريد أن أنجز شيئاً أي شيء قبل أن أعود.. فإنني حقاً أريد أن أعود. قل لي رأيك في فصل الرواية؟ وأهتم اهتماماً كبيراً بالكاتب العظيم بهاء طاهر أتعرف؟ إنني اشتريت عدة نجارة كاملة وعندي رغبة جارفة في أن أصنع بيدي أشياء من مادة الخشب.

عبدالحكيم

برلين الغربية مساء ١٩٨٥/٣/١٨
الأخ الصديق محمود عبدالوهاب

صباح الخير.. هذه التحية الرقيقة قرأتها في رقعة منك وصلتني مع مقال المصور بقلم الدكتور علي الراعي عن الأخت لاب والسطور.. كان الوقت صبحياً، وأنا كنت في غاية الاحتياج لصباح الخير مصرية عذبة خالصة.. بعد ستكون أصابيح كثيرة وتحيات لكنها لن تكون كهذه، حلوة واصلة. لست مريضا، ولا أعرف لذلك سبباً واضحاً، لكنني مرهق متكسر، وعليه فإن شراء عدة النجارة ليس دليلاً علي احتشاد عضلي.. إنني أبعد ما أكون عن ذلك، وأشتاق لو أنني جربت فرحة جارفة أو مغامرة خارقة تخرجني من جب الكآبة الذي تمكث في قاعة روحي.. لو أنه أتيح لي أن أقضي عشرة أيام في الأقصر، وعبرت النيل كل يوم إلي وادي الملوك، ثم عبرته رجوعاً إلي بهو الأعمدة.. ثم ختمت جولتي اليومية بمعبد حتشبسوت.. ربما.. ربما.. ربما كان في ذلك برء ما في روحي من صدأ وما في عظامي من كلس. اتصلت ببهاء طاهر في جنيف وحدثته عن خطابك لي فإذا ببهاء يعرفك حق المعرفة، وإذا به يقدرك ويقدر كتابتك تقديراً عالياً، ويعرف عن مقال لك عن - بالأمس حلمت بك - لم أسمع به أنا ولم أعرفه. وفي حديثنا حكي لي بهاء عن انطباعاته عن رحلته الأخيرة للقاهرة. إنها في الجملة محزنة مفادها أننا - أنا وهو وأمثالنا - يطلق علينا في مصر لقب - الوافدين - رفضاً ونبذاً وحطاً من قدرنا. فسبحان الله. خالط فرحي بحديثي معه حزني لما أخبرني، لكن لا مهرب. الآن أريد أن أشير عليك بأن تولي محمد البساطي شديد عنايتك. إنه كاتب حقيق بالاسم. فماذا فعلت فأعد قراءة أصلان مرة أخري إنك بذلك (حسب عقيدتي) تكون قد أحطت بالحملة الحقيقية لما يسمي بجيل الستينيات. وما عداهم ظواهر متكرره لا تملك الخواص التي تنسبها إلي هذه الجماعة وتفصلها من غيرها. ثمة كاتب آخر شديد الأهمية والخطورة هو محمد الصادق روميش وقصته (الليل الرحم) واحدة من أهم الأعمال في الأدب المصري.. لكن الرجل يعاني أزمة تجعله يتوقف منذ مدة طويلة.. لكنني في داخلي لا أشك لحظة في قدرته علي العودة إلي الكتابة.. فقط

كيف.. وأنا أرشحك يا محمود لهذه المهمة.. هل يمكنك أن تكتب عنه كتابة تجعله يعود يكتب مرة أخري.. لا أعني أن تمدحه وتكيل له الإطراء أقصد أن تجد السبيل إلي عوامل توقفه وتحاصرها وتجتثها إنني واثق أنك بمقدرتك أن تنجز هذا.. فإذا فعلت فإن في ذلك خدمة جليلة لثقافتنا وأدبنا.. وشيء يبقي بينك وبين نفسك تعتز به إلي آخر الدهر. أما عن أنك لم تقرأ (تجلي السر) فإنني بذلك حزين! وإن كان لذلك فإنني أرجوك أن تعدل عن إحجامك وأن تقرأ هذا الفصل! وأتشفع إليك بحقيقة أن الفصل يوشك أن يكون عملاً مستقلاً بذاته يمكن تلقيه وحده منفصلاً عما بعده وقبله من كتابة. تلك رواية أحملها معي وفي قلبي ومنذ ما يقرب من خمسة عشر عاماً. وأذكر أنني قرأت لإبراهيم منصور منها في القاهرة ونحن جالسين علي الأرض في الغرفة التي تعرفها في مسكني في القاهرة. وفي ذلك اليوم كانت زجاجة الروم وصحن الفول النابت. ويومها أعجب إبراهيم ما قرأته له. ومن يومها وأنا أحمل الرواية معي وفي قلبي أكتب فيها كلما وجدت الوقت والمزاج وأتركها إلي غيرها كثيراً جداً. لكن الأمر فيها الآن قد استقر والمسألة استقصاء كفر ريفي صغير وعلاقاته بالقري المجاورة له في محاولة لتأمل الواقع الجغرافي للمنطقة وفي محاولة لتعمق الإنسان الريفي والإنسان بشكل وبكل ما أستطيع الوصول إليه من أبعاد وأعماق. والفصل الأول هو الدليل إلي العمل كله.. وأنا محتاج لرأيك حتي يكون عوناً لي علي الاستمرار.. أرجوك لا تتأخر به عليّ.

لقد وصلني عدد مجلة المسرح.. وصلتني الكرمل وعدد كاف من «الأشواق والأسي» و «المصور» وفيه مقال علي الراعي.. أنني لا ينقصني شيء.. أشكرك وأرجو ألا تتعب نفسك. مقال علي الراعي يشي بأن الرجل فوجئ بى، وأنه لم يكن يعرف عني شيئاً علي الإطلاق.. أليس هذا عجيباً وأنا أكتب منذ عشرين عاماً؟ لكن المقال جيد جداً وإن كان غير محبط.. ربما السر كامن في أن وقت الرجل القليل.. والعمل الفني يطمح في الاستيلاء ولو لمدة قصيرة علي عقل المتلقي وقلبه بلا بقية. أما عن الكرمل.. فليس انطباعي عنها حسناً.. أحسستها ركام من إنتاج شديد التوسط ليس فيه نماذج باهرة سوي من بهاء والبساطي وغيرهم عدد شديد القلة.. أما التنظير فشديد السطحية وفاقد البسالة.. فهل لك رأي آخر..؟ إنك لم تحدثنى عن هذا العدد؟ ولم تحدثنى

عن رأي الناس في رجوع الشيخ.. هل سمعت نقداً لها يهمني أن أسمعه؟ إن فؤاد حجازي كتب لي مقترحاً حذف المقطعين الأول والأخير من القصة.. فهل ثمة آراء أخري شبيهة؟ وإبداع تعد عدداً من الشعر.. فهل تشارك فيه.. إنني قدمت قراءة لديوان محمد صالح.. أرجو أن تنشر. أوحشتموني جداً.. كل الناس.. أتساءل متي ينتهي منفاى؟

عبدالحكيم

برلين صباح ١٩٨٥/٤/٦
عزيزي محمود

قرأت مقالتك - عن الشخصية الفنية في الأدب - وكعادتي مع كل ما تكتبه قرأت باهتمام وتفحص شديد وأكثر من مرة. وكعادتى مع كل ما تكتبه فإنني سعدت وظفرت بمتعة عقلية عميقة. وأنا موافق ومتحمس لتصورك وتفسيرك، وأستطيع أن أضع توقيعي تحته. إلا أنني أريد أن أختلف مع بضعة مقولات في الموضوع خلافاً الأصل فيه راجع إلي عدم إقتناعي بالمقولات الأساسية في الفكر الغربي الحديث. ولما كنت أشفق أن يطول هذا الخطاب أكثر مما ينبغي لخطاب فإنني سأكون شديد الإيجاز، بادئاً بفكرة: التقدم. الفكر الغربي يتخذ أساساً له مقوله حاصلها أن العالم يتقدم باستمرار، وأنه - أي العالم - لو توقف لحظة عن التقدم فإنه فوراً يبدأ في التخلف. والعالم في هذا المفهوم يشمل الإنسان وأدواته وأجهزته وسكنه وعلمه ومجتمعه وتاريخه ولغته وكل ذلك وغيره. هذه المقولة لم تؤمن بها الثقافات السابقة علي الثقافة الغربية. المصريون القدماء والبابليون كانوا يعتبرون العالم معطٌ، أي كامل بذاته يعكس كمال المعطي وواجب الإنسان إزاء العالم محاولة فهمه ومحبته. الاغريق الذين وصلت فلسفتهم في آواخر عهودها إلي وحدة النقيض وبعض الأفكار الذرية، إلا أن ذلك كان محاولة لفهم سر العالم الذي هو كذا منذ البدء وإلي النهاية. العرب المسلمون رأو في العالم كمال الإله الخالق. فالعالم كامل وقديم وعلي العبد أن يري الله في العالم ويري العالم في الله. الفكر الغربي الحديث يبدأ من الإنسان. والإنسان حالتان، ما هو عليه فعلاً وما يطمح أن يصل إليه، الواقع والهدف، الحاضر والمستقبل وما إلي ذلك من صياغات تصف حالتين وتجعل التقدم هو الصلة بينهما. وفكرة التقدم بدأت من الفكرة الذرية عند اليونان وفكرتهم عن النقيض ونقيضه التي تجمعهما وحدة واحدة. ثم أخذ الفلاسفة الماديون في عصر النهضة هذه الأفكار وطوروها حتي وصلت إلي هيجل فوضع منها نظرية كاملة لتفسير التاريخ ثم جعل منهما ماركس نظرية لفهم العالم تسيطر علي الفكر الغربي كله الآن اشتراكي ورأسمالي. وأنا أرفض فكرة الغرب عن التقدم كلية. وسكتي إلي ذلك تبدأ من كل التلازم

غير المنطقي بين تطور العلم، تطور أدوات الإنسان وإمكانياته.. وبين تطور الإنسان نفسه. وأنا أعود إلي الفكرة الشرقية التي مدارها أن الإنسان كامل وأن طريقه ليس استكمال نقصه بل معرفة نفسه وسكته إلي ذلك معرفة العالم حوله. فكرة التقدم الغربية تري أن العالم ناقص وأنه لابد من استكمال نقصه في عملية لا تنتهي أبداً. واستكمال النقص يكون بالتغيير، أي بالهدم والبناء. ومعناه أيضاً النظر إلي الأمس كشيء أقل من الغد والنظر إلي المعرفة كسبيل إلي القدرة. وأنا أعود إلي الزمن صرف النظر عن وجهيه أمس وغد، وأعود إلي المعرفة كسكة إلي الفهم لا إلي الاقتدار. إنني أعود إلي منابعي الشرقية وأري العلم سكة إلي المثل العليا لا إلي كسب الحرب الذرية. بذلك أتعرض لبعض نصوصي في مقالتك: «فتبدو في المجتمعات البدائية مثل غشاء رقيق يكاد يشف عن الوجه الحيواني، وتكتسب في المجتمعات المتحضرة قناعاً سميكاً من آداب السلوك والشعائر والعبادات». إن تقسيم المجتمعات إلي بدائية ومتحضرة بدأ بهيجل وقدم أساساً متيناً للنشاط الاستعماري ولازال يقدم أساساً للنهب الإمبريالي تحت اسم القروض وبرامج المساعدة والتنمية والتنشيط وغير ذلك من أسماء. ثم إن وضع الحيوان في أدني سلالم التطور خطأ في فهم علم الحياة. كل حياة لها نبلها الخاص بها. نبل الأسد غير نبل الثعلب غير نبل النحلة غير نبل الإنسان. ومن نفس المنطلق أختلف مع المواضع التالية في المقالة: «يختار الأدباء لتجسيد دراما الصراع الاجتماعي بين قوي التخلف وقوي التقدم لحظة تبشير الطلائع بقيم جديدة»، «ومن سفح الهرم الإنساني ذو القشرة الإنسانية وحتي قمته حيث الإنسان ذو القشرة الحيوانية» وبشكل عام أعود إلي رأي القديم عن اللغة وإلي خلاف لي معك لم نحسمه تماماً وهو أنني أريد من اللغة في الشعر والقصة والنقد، أريد من اللغة في الإنشاء بشكل عام مثلها مثل الكيمياء والرياضة، أن تكون شديدة التحديد وأن يعرف القارئ ماذا يريد كاتبه أن يقول له تماماً. من هذا المنطلق أعترض علي بعض مواضع في المقال مثالها:- إن صراع الكاتب مع شخصياته هو صراع اللاهوت والناسوت في قلب مسيح.... - قضية بفرديته علي مذبح الحياة الدائمة لرؤيته لحقائق الكون والقلب معاً.. وهكذا. وشكراً لك عليه من قلبي. هذا عن المقال، أما عن «مصرية» فإنها شديدة التواضع هذه المرة.

صعّب عليّ عبدالعزيز.. لذلك أحب لو أنه لا مانع عنده أن ينشر في العدد القادم قصتي - طرف من خبر الآخرة - وهي موجودة عند إدوار الخراط يمكنه أن يأخذها منه.. أقصد يأخذ منها صورة. وختاماً.. ألا زلت مصر علي عدم قراءة «تجلي السر»؟ طيب يا سيدي.. هنعمل إيه.. تبقي دائماً الصديق العزيز ويبقي لك دائماً المودة والحب.

عبدالحكيم

برلين ١٩٨٤/٤/١١
أخي محمود

هزني خطابك الذي تحدثت فيه عن موضوع الوافدين.. المسألة في تصوري ليست شتمه تزجر قائلها فيسكت فينتهي أمرها وأمره.. لا.. المسألة هي نوع من التسامح الطيب يعجزنا عن أن نقول للفرد العاطل من كل موهبة رأينا فيه بصراحة.. يترتب علي هذا خجلنا من أن نقدر ذوي المواهب الخلاقين المبدعين في حياتنا الثقافية.. هذا الأمر من جانبيه يخلق حالة من الغموض وذوبان الحدود يختلط فيها الحابل بالنابل ويقول فيها من يخلق به أن يسكت، فإذا قال حَمُق وأضر وشتم لعجز عقله عن احتمال مشقة الكلام الطيب. فإذا أنا حزنت لشتيمة فليس لأنها نالت مني، بل لأن ثمة أرض هضبة في مصر تقل العناية بها فينبت فيها الشوك والقتاد وهي قادرة علي أن تثمر وتنور وتزهر وتتفيأ غني في ظلالها. لهذا حزنت ولهذا كتبت لك لأنني ألمس فيك قوة روحية عظيمة ترشحك لأن تأخذ علي نفسك مشقة أن تقول الحق وسط هذا الصخب من الاختلاط والضجيج. أما عن البساطي فلابد أن تقرأه وأن تكتب عنه بقوة.. إنني أحس بالرعب من قلة الضوء علي كاتب عظيم مثل البساطي.. أحس بالرعب الحقيقي.. إن كاتب تافة حوله طبل وزمر هو خطر علي وجودي، حتي علي وجودي المادي.. أتفهمني يا أخي الصديق؟ إنني حزنت أشد الحزن من سقوط اسم بهاء طاهر سهواً من مقالة دكتور علي الراعي عن الرواية في المصور.. إننا نملك عدداً قليلاً من الكتاب كلهم في حالة مالية وهمية متدهورة وإذا لم نحرص عليهم ونقدم لهم كل الإمكانيات فتصور الخسائر الفادحة التي تحل بلغتنا ووجداننا المصري. إن روميش يصوم الآن مثل الجمل المُوَلَّد.. هل تعرف عن صيام الجمال يا محمود..؟ اسأل روميش عن ذلك.. أتعرف ماذا نعمل للجمل إذا صام؟ نجلس إلي جواره بحزننا.. بخفق قلوبنا.. بدفوعنا نمرضه ونطعمه.. حتي يكسر صومه ويعود إلي الحياة. إننا سوف نصحح مجموعة روميش بأنفسنا وسوف نصدرها نحن، سوف نقعد حول روميش بحزننا وخفق قلوبنا ودموعنا حتي يكسر صيامه ويعود.. وحين يكتب أول قصة سوف نجتفل ونشرب الخمر إلي

البكاء.. إلي الصباح.. ثم نخرج إلي الهرم نحتفل بطلوع الشمس.. نحن أبناء الشمس المصريون. أرقب خطابك ورأيك في « تجلي السر».. ورأيك أيضاً في مقالتي عن ديوان محمد صالح. ولقد سمعت أن مقالتك نزلت في أدب ونقد عن بعض من أعمالي.. فهل هذا صحيح؟ وهل ترسلها لي؟ وهل صدر كتابك؟ هل ترسل لي منه نسخة؟ أعدك بأن أكتب عنه.. لو أنك تري أنني أستطيع أن أقوم بمهمة كهذه.. جري العرف علي أن توكل للنقاد.. عرف لا أوافق عليه.. لكن موافقتي وحدها لا تكفي..؟

تحياتي لك يا أخي الحبيب.

برلين الغربية صباح ٨٥/٤/٢٤
أخي الأستاذ محمود عبدالوهاب

لقد فطنت منذ البدء إلي حقيقة أن المقال الذي قرأته في (مصرية) يمكن أن يكون في سباق فصول الكتاب الأخري أكثر قدرة علي القول والإيحاء، لكنني خشيت إن أرجأت الكلام عنه حتي أقرأ كل الموضوع أن تظن بي الكسل عن الانشغال بالموضوع وإبداء رأي فيه. وقد كنت لهذا السبب حذرا فلم ينصب نقدي لفكرة التقدم علي تصور لها في مقالك، بل علي صورتها في الفكر الأوروبي الغربي. وأنا لا أرفض التقدم كمبدأ، لكن أقف مرتاباً متشككاً أمام التصور الغربي له وأجد أن هذا التصور غريب علي الفكر الشرقي كما تجسد في ديانات مصر القديمة وفي المسيحية والإسلام. وبالتحديد الإنجازات المادية، إنها أدت بالعالم إلي حالة من الفقر الروحي المروع. أنظر إلي صورة العالم قبل ألف أو ألفين من السنين، كان ثمة حضارات في أمريكا الشمالية والجنوبية وفي الصين والهند وأفريقيا السوداء ومصر وبابل واليونان، كان العالم متنوعاً وثرياً وحافلاً بالقدرات الفكرية والروحية.. لقد صفت الثقافة الأوروبية كل الثقافات الأخري وفرضت علي العالم زياً موحداً وطرازاً للعمارة وأسلوباً واحداً للبحث العلمي ومنهجاً واحداً لتصور العالم. إنك لم تعد تستطيع أن تسافر لأن المسافة بين المدن ألغيت بجعل المدن شديدة التشابه. إن أمجد انتصار للعرب أنه فى وسعهم أن يبقوا علي لغتهم وعلي دينهم. لكن ليس معني طرح التصور الغربي لفكرة التقدم علي بساط البحث أن نغرق في عواطف دينية وتمجيد ديني لفترات سابقة، بل يجب أنه تخضع لأسلوب النقد العلمي وذلك ليس بالأسلوب الأوروبي الذي يجرد من كل الأبعاد غير المحسوسة لها. أيا ما كان الأمر فإنني مشتاق لرؤية كتابك وأعدك بقراءته متفحصاً وأن أقول لك رأيي فيه مخلصاً. أما عن قراءتي لديوان محمد صالح فقد إندفعت إليه بحب شديد لشعره. وإذا قلت شعر محمد صالح فأنا أقصد ذلك وأكره تلك اللحظات التي لا يكون فيها نفسه بل يترك موهبته عرضه لأن تدع عليها المؤثرات القبيحة بصماتها. ربما هذا هو تراوحي بين العنف عليه والعنف له. أما ملاحظاتك السلبية علي مقالى فإن الأولي منها

تحزنني غاية الحزن لأنها تدل علي أنني عجزت عن توصيل فكرتي للقارئ هذه الفكرة حاصلها أنه لا توجد امرأة يسعها أن تجسد وطناً وبذلك أري أن الرمزية نوع من العجز عن الكتابة. الملاحظة الثانية تكشف لى عجزي مرة أخري عن الوصول للناس حيث أري أن ثمة قضايا مثل - العمل ورأس المال - لا تصلح هكذا للإنشاء الفني. وبعد فهل ثمة إمكانية نظرية لفصل العمل عن رأس المال..؟ أليس ذلك خطأ منهجي في الماركسية تشهد عليه التطبيقات الاشتراكية الآن حيث لا تختلف ديناميكية العلاقة بين العمل ورأس المال - أو التنظيم أو الإدارة - في مصنع تملكه الدولة في روسيا عن ذات العلاقة في أمريكا. وبعد فأي عامل في الدنيا أتيح له أن يملك طين الخلق. أنظر محلات براءات الاختراع في أمريكا واليابان ثم في الاتحاد السوفيتي وألمانيا الديمقراطية. إن ما يشقيني هو الذي أشاعه الماركسيون في مصر من أن الأدب حماس للفقراء.. ذلك خطأ.. الأدب حماس للحياة.. لها أو عليها.. للحياة لا لمواقف نظرية حزبية تريد السيطرة علي الحياة وتقييدها بتنظيم الناس وتحريكهم.. الأدب يريد تغيير الحياة بتغيير وجدان الناس حتي يستطيعون الحركة بأنفسهم ومن داخلهم. أخيراً فإنني تجاوزت القصيدة لأبحث عن موضوعات شاملة في الديوان وذلك من حقي وأظنك أقدمت عليه في النظرة العامة لرواياتي في المقالة التي أرسلتها إليّ - هل نشرت في أدب ونقد؟ هل ترسلها لي في المجلة؟ وأثناء كتابتي لخطابي هذا ورد لي خطابك التالي وفيه كلام عن (تجلى السر) أشكرك جداً علي اهتمامك القراءة وعلي تفهمك وتقديرك.. وقد تأثرت جداً بقولك إنها عواطف تحتوي الحيوانات والأشجار والبيوت. أقول لك إنني أحسست أنني الحمارة التي -تدب يملأ جلدها الأجرب كبرياء الموت حتي ما تفزع ولا تضطرب ولا تتلهوج ولا تتلهف، بل تتهاوي وتترنح في خطوات مرتجفة متخاذلة فيها معني الترك، فيها أنفة من يغادر وتأبيه...- وإن ذلك ما قلته لك إن النحلة والثعلب والإنسان.. لكل نظام حياته بنبالته وكبرياؤه. وتقول لي إنك كنت تتمني أن تري مجتمع النساء وقد تحرر من ضغط الممنوع والمحظور.. وأقول لك إن هذا غير ممكن لأن المنع لا يكفنا عن فعل الشيء بل يجعلنا عاجزين عن إتيانه.. لكن النساء لم يتحدثن بما تحدث به الرجال كانت لهن رؤية مختلفة.. فإذا ما قارنت السطور بعد

كلمة - يتهامسون في حلقة الرجال - وقارنتها إلي السطور بعد كلمة - يتهامسن في حلقة النساء - عرفت الفرق. فإذا كان الفريقان متفقان علي أن فاطمة تعشق محمود بن طراوة فإن ذلك في الرأى الرجالي لأن فاطمة امرأة جميلة ناعمة. لكن النساء يفسرن ذلك بأن المرأة قلب محروم تواق والولد في عينيه اليتم وفي روحه العذاب.. وباستمرار القراءة تستنبط الفروق وتجد أن رؤية النساء تختلف جوهرياً عن رؤية الرجال وإن اتحد الموضوع وتشابهت الحكايات والأحداث والكلمات. أخي محمود.. ختاماً أشكر لك كتابتك الحارة المتدفقة التي تعينني علي غربتي هنا. وأريد أن أنهي إليك أننا قررنا أن نعود نهائياً هذا الصيف إلي مصر. إن البعد عن الوطن لم يعد يجدني، بل هو يأكل من كياني ويضنيني حتي لم يعد بوسعي أن أستمر. في هذا الصدد ثمة كلام كثير ينبغي أن يقال.. سنرجئ ذلك كله إلي الصيف ونبقي رسائلنا لما هو أهم من قضايا الأدب والفكر والثقافة. لكنني فرحان بعودتي وأعرف أنك أيضاً من الذين سيفرحون. فقط أرجوك أن ترسل لي أدب ونقد لأطلع علي مقالك فيها عني.. وأريد لو تكرمت بإفادتي عن رأي عبدالعزيز جمال الدين في نشر «طرف من خبر الآخرة» في «مصرية» وكما قلت لك القصة موجودة عند إدوار الخراط. أريد أن أثقل عليك وأرجو لك ترسل لما إلي جانب أدب ونقد قصة بهاء طاهر في عدد إبداع الأخير كذلك مجموعة قصصه «بالأمس حلمت بك» بذلك تكون عندي أعماله كاملة. أرجو أن تفكر إذا كان يلزمك شيء من أوروبا أحضره للأهل سلامي لك وتحياتي وحبي.

عبدالحكيم

برلين الغربية في ٨٥/٥/٣١
أخي الأستاذ محمود عبدالوهاب

أعيش في هذه الأيام وقتاً عجيباً، تتناقص فيه الأيام الباقية لي في برلين بسرعة سير عقارب الساعة. أجمع أشيائي لأملأ بها صناديق الورق، أقلب صفحات الكتب وأتأمل القصاصات وأفكر حتي التعب. كان وقتاً طويلاً هنا في برلين، مرحلة تؤذن الآن بنهايتها لتبدأ مرحلة أخري وهأنذا أطوي «الخيشة» وأجمع أشيائي وأمشي.. ومن بعدي يأتي المبيضون يعفون علي آثاري، وأنا في هذا الممر الصغير قدام غرفة مكتبي كم غشيت متفكراً وكم قفزت ورقصت من الانفعال وحدي وقد نام الليالي وكتبت سطور من دفتر الأحوال وغير ذلك. أتذكر البدو الرحّل الذين كانوا ينزلون بجرننا. كان أبي يؤثرهم بمودته، ربما كان فيهم شيء يستعصي عليّ فهمه، ذلك التحرر الشديد من الارتباط بالمكان، هل أنا بدوي؟ أم أنا أجرب ذلك الإحساس في محاولة لاستقصاء سره؟ أنظر للقاهرة من مكاني هذا، أشتاق لها وأحبها حب العليم بها في تلك قسمتنا ونصيبنا، وسنظل علي ذلك حتي آخر ما تطول السن وحتي آخر ما تستطيعه اليد. لم أعد متحمساً لظهور قصتي طرف من خبر الآخرة في مصرية، لا أدري لماذا؟ أشكرك من كل قلبي علي إرسال أدب ونقد. كذلك علي إرسال مجموعة بهاء طاهر بالأمس حلمت بك. إن أمر مع هذه المجموعة عجيب، إنني كنت تلهفت عليها تلهفاً شديداً حتي أصبحت رغبتي في قراءتها حلماً، مقصداً مقيماً، وإذا وصلتني فقد قرأتها علي التو.. ولدهشتي وجدت في داخلي مقاومة شديدة لها.. ربما ذلك انعكاس طبيعي لتلهفي الشديد قبل وصول المجموعة وربما هو حبي المرضي للكتابة الجيدة الذي يجعلني مثالياً يصعب إرضاؤه، علي أي حال شيء من واقعية الأربعينيات وأوائل الخمسينيات في المجموعة أزعجني قليلاً، لكنني سأتركها زمناً ثم أعود لها مرة أخري متجرداً من مشاعري الحادة. أياً كان الأمر فإنني ملهوف علي قراءة مقالك عن قصص بهاء طاهر. إنني متحمس جداً لأن تسحب مجموعتك القصصية من رءوف سعد وتعطيها لفصول. ليس هذا كلام ضد رءوف، إنه يحاول بإخلاص في ظروف صعبة. لكن نشر في دور صغيرة هو نوع من

مصادرة الكتاب، مثل ذلك روايتي قدر العزف والمهدي ومحاولة للخروج إن هذه كتب أعتبرها قد صودرت، فما معني أن ينشر كتاب فيوزع منه مئة نسخة ثم يقبع الباقي في الرفوف. أما عن كتاباتك النقدية فسأذهب معك به إلي دار المستقبل وسوف نري ماذا يكون.. لكن لا يهمك أي شيء، فقط أكتب وأكتب دون أن تلتفت وراءك.

عبد الحكيم

الملاحق

-١-

أصحاب الرسائل

إدوار الخراط (١٩٢٦): روائي مصري، له مساهمات فى الشعر والنقد والفن التشكيلي، كما قام بترجمة العديد من الأعمال النقدية والإبداعية. ولد في الإسكندرية في مارس١٩٢٦ لأب من أخميم في صعيد مصر. من أهم أعماله: «رامة والتنين»، «الزمن الآخر»، «ترابها زعفران»، «صخور السماء»، «يا بنات الإسكندرية» وغيرها. لا يذكر الخراط متى بدأت علاقته بعبد الحكيم قاسم، كما لا يذكر عدد الرسائل التي تبادلاها ولكنه يتذكر أنه قد زاره أكثر من مرة فى برلين أثناء عمله فى منظمة التضامن الأفروأسيوي. يرى الخراط أنّ الحدة والصراحة المطلقة كانا أبرز ما ميّز قاسم، فلم يكن شخصية مهادنة أو مسالمة بالعكس كان شخصية مقتحمة لا يتردد في الإفصاح عمّا يراه.

يشير الخراط إلى خلاف بينهما أثناء إحدى الندوات فى أتيلية القاهرة، كان الخراط يتحدث عن «الحساسية الجديدة» وردّ عليه قاسم قائلاً "نحن نتحدث عن الكتابة لا عن البطيخ".. وهى جملة أغضبت الخراط، ولكن تمّت المصالحة بينهما فى دقائق لإدراك الخراط أنّ خصومات قاسم لم تكن إلا نفثات من روح مبدعة صافية حتى آخر لحظة. يري الخراط أن "القرية المصرية لم تُكتب أبداً فى فن القصص كما كتبها عبد الحكيم قاسم، هو كاتبها الصناع، ودرويشها الموله بعشقها، المعجونة روحه بطينها، الموزع قلبه على ناسها، المعلّق هواه بأهوائها.. يعرف الفقر والألم والمرض والموت فى القرية، ويعرف كيف يصوغها لأنه يعرف ويصوغ أيضاً غناها الفاحش وشبق نشوتها وحبها للحياة وإيمانها الأولي العميق، هو يرصد دقائقها وخفاياها بعين المحب العارف وبيد الاقتدار".

بطرس الحلاق (١٩٤٤): ناقد سوري يقوم بتدريس الأدب العربي الحديث فى جامعة السوربون باريس (٣) ويدير مركز البحوث فيها، كما يشرف على تحرير مطبوعة «تاريخ الأدب العربي الحديث» بالفرنسية، ويرأس

جمعية EURAMAL التى تضم الأخصائيين فى الأدب العربي الحديث فى الجامعات الأوروبية. بدأت علاقة قاسم والحلاق قبل أن يلتقيا شخصياً، كان بطرس قد إختار رواية «محاولة للخروج» للتدريس لطلبته فى جامعة باريس "كنت قد أخذت بعالمه الروائى المتميّز وبأسلوبه الشخصى الذى يخرج عن التقليد دون أن يلهث وراء الأساليب الأدبية الحديثة التى كانت بغية الروائيين آنذاك، مع فصاحة فى القول سيالة دون تشنج ولا تفاصح. والحقيقة أنّ هذه الفصاحة تجمعه عندى مع فصاحة صديق آخر هو إدوار الخراط على بعد ما بينهما فى الثقافة والنظرة إلى العالم" حسبما قال بطرس الحلاق فى حوار لى معه. فى مدينة فاس المغربية ألتقى قاسم وحلاق لأول مرة، بمؤتمر فاس للرواية العربية ١٩٧٩، وبدأت رحلة طويلة من الصداقة والنقاش الأدبي.يقول حلاق: "وبالرغم من بعد الرؤية فى المنهج النقدي وفى الحكم على كثير من الأعمال، بقيت مشدودا إلى عالمه وتعمقت صداقتنا علي مر الأيام". وفى رحلة الصداقة تم تبادل الزيارات بينهما في باريس وبرلين، بل إن الحلاق جاء إلى مصر بعد عودة قاسم وقضى معه أياماً فى الدلتا ..وكان اللقاء الأخير حين داهم المرض قاسم. وفى هذه الرحلة بدأت المراسلات بينهما، كما يقول الحلاق:"أرسل لى عددا من أعماله المخطوطة قبل صدورها، وكما أنّ هناك رسائل أخرى موجزة تبادلناها على فترات طويلة".

الرسالتان المتبادلتان هنا بين قاسم والحلاق تكشفان عن عمق الصداقة بينهما، وعن اختلاف ارائهما فيما يخص «الأدب» فى الوقت ذاته. الحلاق يصف ذلك: "لست من المولعين باقتباس آخر التقليعات الروائية الغربية، وهو ما يبدو واضحاً فى دراستى عن صنع الله إبراهيم «الدائرة وتخلخلها فى نجمة أغسطس»، إذ أننى أدعو إلى التلاقح الثقافي وأؤمن بوحدة الأدب العربي الحديث ليس فقط من موقف سياسي، بل أيضاً من موقف علمي.. وانطلاقاً من هذا لست فى واد المفاضلة بين النتاج المصري (كما يبدو من إشارة عبد الحكيم قاسم إلى موقفى من «زينب» والنتاج اللبنانى، ومنه «الأجنحة المتكسّرة» لجبران". يؤكد الحلاق: "كان همّى أن أخرج من وهم الواقعية التى أخذها نقدنا الحديث عن المستشرق هاميلتون جيب وبنى عليه كل نظرته إلى روايتنا. وقد أفردت أطروحة دكتوراة الدولة حول هذا الموضوع، تتناول

جبران والمنفلوطى، لأحاول التأسيس لنظرة أخرى، فى كل ذلك تحدثت مع عبد الحكيم دون أن أستطيع أن أقنعه تماماً". ورغم هذا الخلاف إلا أن اهتمام الحلاق لم يفتر بإبداع قاسم «تأمّلت على مدى ثلاث سنوات قصته الرائعة: «رجوع الشيخ» ودرستها لطلابى فى الجامعة قبل أن أنشر عنها دراستى «قراءة فى سفر الجسد» فى مجلة «ألف» الصادرة عن الجامعة الأمريكية، ومن يقرأ هذه الدراسة يدرك مدى تقديرى لهذا العمل الذى لا أتقاعس عن وصفه بالفريد، بل أراه من أجمل ما كتب فى الموقف من الجسد فى سياق التراث العربى». ولكن كثير من كتابات عبد الحكيم الأخيرة لم تعجب الحلاق، لم تعد ترضيه "لما فيها من تراجع إلى مواقف تراثية قومجية، ولكنها لا تلغي بأى شكل من الأشكال إنجازاته الضخمة فى مجال الرواية ولا حكم على فترات الوهن".

حسنى *عبد الفضيل*: هو الصديق الأقرب لعبد الحكيم، تعرف إليه فى الإسكندرية، فى العام الأول للدراسة،، يعتبر قاسم أن علاقتهما كانت علاقة صداقة من طراز نادر. فقد تصادقا منذ اللقاء الأول بينهما فى جامعة الإسكندرية، كان عبد الفضيل يدرس الهندسة، وقاسم الحقوق، وفى حين كان قاسم يكتب الشعر كان عبد الفضيل يكتب القصة التى توقف عنها نهائياً بعد أن كتب عدداً من القصص التى استقبلها النقاد استقبالاً حسناً منها: «سحابة صيف»، «مشاهد من أغسطس»، «القيام والقعود»، و «الخيط والثقل».. وقد نشرت له مجلة الهلال فى عددها الخاص عن القصة القصيرة عام ١٩٦٩ عدداً من قصصه، بجوار أسماء تنشر للمرة الأولى مثل محمد مستجاب، وآخرين متمرسين مثل الطيب صالح وزكريا تامر و أبو المعاطى أبو النجا. وقد جمع هذه القصص فى مجموعة «تسلق الجدار الأملس» وصدرت عام ١٩٨٦ عن هيئة الكتاب. ويحكى قاسم أنه كتب قصة، واشترك بها فى مسابقة نادى القصة، ولكن صديقه حسنى عبد الفضيل هو الذى فاز بالجائزة. وسافر للقاهرة لتسلّمها وعاد- كما يحكى قاسم - ليرينى خمسة جنيهات ويحكى لى عن النادى وعن أن محمود العالم صافحه. ويحكى عن أشياء

كثيرة رائعة وأنا أنظر غير فاهم شيئاً على الإطلاق. قال لى حسنى: "تعال يا حكم" ونزلا إلى السوق وتحوّلت النقود إلى كمية هائلة من الطعام والشراب وكان مساء جميلاً مع كل أصدقائنا.

ويرى عبد الحكيم قاسم فى مذكراته غير المنشورة أن تعرفه إلى حسني أسهم كثيراً في تغيير شخصيته إلى الأفضل:"كنت أقف أمام حسنى أهبل ملبوخاً مندهشاً وهو ينظر إلىّ بعينيه الضيّقتين المفعمتين ذكاء وابتسامته العجيبة. هكذا عشنا أيام الإسكندرية بكلّ عمق، هو يدرس الهندسة وأنا أدرس الحقوق، هو يرى الأشياء من حوله بنفاذ ويعبّر عما رآه بسرعة وبدقة، وأنا أقف أمام الأشياء مبهوراً مفغور الفم عاجزاً عن القول". كان حسنى يقرأ الجرائد بدقة حتى الإعلانات الصغيرة ويمتلك ذاكرة قوية للأسماء وللأماكن وللأشخاص وللأحداث. يوضّح قاسم: " فإذا كنت أنا ألقى بنفسى فى حضن العالم وأنا مغمض العينين غير مدرك تماماً لما حولى، فقد كان حسنى على العكس يقف بإزاء العالم يرتّبه بدقة، وإذا كنت أنا أقيس الأشياء على مثال غائب غامض فإنّ حسنى يراها ويتحسّسها ويبحث عن إمكانيات أفضل فيها. وكان حسنى يملك كبرياءً ليس لى، فهو إذا اكتأب بقى وحيداً أو بقى بين أصدقائه صامتاً يعرف الواحد كآبته من ملامح وجهه أو من طريقته فى الكلام. أما أنا فإننى إذا تأزّمت أسرعت أبحث عن الأصدقاء وأظل أحكى وأثرثر وأزعق بكربتى حتى أتخفف من حملى. وهكذا فقد كنت أنا وحسنى نتعارك كثيرا وبضراوة، أنا أصرخ وهو يتكلم بوضوح وقوة وتصميم حتى أمضى عنه ناوياً ألا أعود، لكننى أعود أو يأتينى هو. لا أتصوّر أن فى الدنيا صديقين بينهما هذه الكمية من العراك ومن الصداقة ما بينى وبين حسنى. أخرج معه لأوصله حتى إذا وصلنا بيته رجع ليوصلنى وهكذا كل مرة حتى نوشك على التعب". توقف قاسم عن كتابة الشعر، وتوقف حسني عن الكتابة نهائياً من أجل الهندسة والسياسة التى قادتهما إلى المعتقل فى الستينيات.

سامى خشبة (١٩٣٩- ٢٠٠٨): وُلد في محافظة الغربية فى أكتوبر ١٩٣٩ وهو ابن المترجم الراحل دريني خشبة أحد الذين ترجموا

الإلياذة والأوديسة، كما ترجم أعمالا عن الروسية لمكسيم جوركي وأنطون تشيكوف وليو تولستوي. وتعرّض خشبة للسجن ضمن أعضاء جماعات اليسار الذين تم اعتقالهم في مطلع عام ١٩٥٩ وبعد خروجه من المعتقل عمل في صحيفة «الجمهورية» ثم «الأهرام» التي أصبح نائباً لرئيس تحريرها وفي الفترة الأخيرة كان يكتب فيها مقالاً أسبوعياً. كما رأس تحرير مجلة «الثقافة الجديدة». يعدّ خشبة أحد نقاد المسرح في العالم العربي، وقد تراوح إنجازه بين الترجمة والنقد، حيث ترجم أكثر من عمل ينتمي إلى مسرح العبث. ومن أهم أعماله: «شخصيات من أدب المقاومة»، «تحديث مصر»، «حوار الثقافات»، «نقد الثقافة...تجديد الثقافة». بدأت معرفته بعبد الحكيم قاسم في عام ١٩٥٧ عن طريق شوقى خميس الذى كان قاسم يتردد عليه فى القاهرة كثيراً من الإسكندرية حيث كان يدرس. وقد نشر له أول قصة كتبها فى حياته وهى الصفّارة فى مجلة الآداب البيروتية التى كان يعمل خشبة مراسلاً لها. وقد تزاملا فى زنزانة واحدة فى سجن مصر لمدة عام أثناء اعتقالهما فى الفترة من ديسمبر ١٩٦٠ وحتى مايو ١٩٦٤، وكان قاسم كما يقول خشبة منضمّاً إلى الحزب الشيوعى المصرى قبل أن يتركه وينتقل إلى تنظيم «حدتو». عواطف قاسم كانت مع الماركسيين- كما يقول خشبة – بشكل شخصى أكثر مما هو سياسى حيث كان أكثرهم من أصدقائه، ويتعاطف مع الفقراء ويؤمن بالعدالة الاجتماعية، وهو ما ظلّ مؤمناً به إيماناً حقيقياً حتى رحيله. رحل خشبة فى يونيو ٢٠٠٨.

سعيد الكفراوى (١٩٣٩): قاص مصري ولد في قرية كفر حجازي -محافظة الغربية- أصدر أربع عشرة مجموعة قصصية، وكتاباً نثرياً في محبة الناس، ورواية لا تزال حبيسة الأدراج، وحكايات لا تنتهي عن الحب والسجن والأصدقاء. من مجموعاته «بيت للعابرين»، «مدينة الموت الجميل». قاسم بالنسبة للكفراوي هو"سيد كتّاب الستينيات"، بدأت علاقتهما فى أواخر الستينيات عندما زار قاسم المحلة فى مؤتمر الزقازيق الأدبي، ومن يومها بدأت علاقة لم تنته، حتى عندما غادر الكفروای إلى السعودية، وقاسم إلى

ألمانيا استمرت بينهما المراسلات. يقول الكفراوى:"حضرنا معا حلقة مقهى ريش فى عزّ مجدها، وأمسيات «الأتيليه» وندواته، وقبو دار الأدباء العتيد، اختلفنا، وتغاضبنا لكننا لم نكره، أنشط ذاكرتى الآن وأراه قادماً بصحته يطوّح يديه الطويلتين فأوقظ ملكاتي وأستعد، ويبدأ الاشتباك. أسمعه يصرخ فىّ: " اسمع.. الكتابة مثل الصلاة علينا أن ندخل عليها متوضئين". زارا سوياً الإسكندرية التى كان يعشقها قاسم وأمضى فيها زمن صباه وبهجة أيامه، طافا سوياً فى المدينة: " سارا فى كل الأماكن التي يعرفها، وكأنه يودعها، يشير للأماكن التى عرفها وألفها «هنا انتظرت بنتا أحبّها»، وهناك جلست فى المقهى الذى كان يجلس عليه كفافيس"، وهناك على الكورنيش بدأت تتخلق «أيام الإنسان السبعة»، وكانت هنا خمارة مهولة يلتقى فيها الناس، مكانها الآن سوبر ماركت، ووقف أمام بيت من طراز أواخر القرن التاسع عشر وقال مشيراً بعصاه: «رأيت امرأة تنزل من عيادة أحد الأطباء صارخة، وعندما سألتها: مالك؟ صرخت فى وجهى: ابنى مات الآن وكان فى عمرك كده. ساعتها حزنت وبكيت». ثم يقف ويزعق صارخاً «يا خرابي» كلمته الأثيرة التي لم تفارق قاموسه بعد مرضه».

يضيف الكفراوي: "كان قاسم محباً للبشر، وخاصه جيله من الكتاب بالرغم مما بدر منه تجاه محبيه وأولهم أنا، وبالرغم من هذا لم أجد شخصاً واحداً يكرهه، أو يتمنّى زواله، وكان كذلك محباً للحياة وعاشقاً لها، يودّ لو قطرها فى كأس وشربها دفعة واحدة، وبعد مرضه انكسر خاطره وسقطت رأسه على عقفة عصاه".

عبد المنعم قاسم (١٩٤١- ٢٠٠٤): هو الشقيق الأصغر لعبد الحكيم، ولد في سبتمبر ١٩٤١، وتخرج فى الكلية الفنية العسكرية، كان قريباً من أخيه، حتى أن عبد الحكيم كان يقول له دائماً «أخي الأكبر» رغم أنه يصغره بست سنوات. سافر إلى روسيا لاستكمال دراسته هناك وبقى عامين ونصف العام، وقد تبادلا الرسائل من هناك. وعندما عاد من روسيا كان أول سؤال ألقاه عليه عبد الحكيم: احك لي ما الذي رأيت.. فصمت وتردد طويلاً قبل أن يجيب:

"إن الاتحاد السوفيتي بلد عظيم، لكن يؤسفنى أن أقول لك إنه ليس البلد الحلم كما تتصور. هناك الكثير من المحسوبية والرشوة والفساد والسوق السوداء والانتهازية، وهناك اضطهاد لأى نوع من المعارضة حتى لو كانت مخلصة وهناك إحساس غامض لدى الشعوب غير الروسية يعتبر الروس بشكل أو بآخر مستعمرين".. علّق عبد الحكيم على ما قاله شقيقه:"كنت قد سمعت بهذا من قبل ورفضته كنوع من الدعاية المعادية. الآن والقائل عبد المنعم فإنني أصدق". رحل عبد المنعم قاسم في ٢٠٠٤.

محمد روميش (١٩٣١-١٩٩٢): أديب مصرى من جيل الستينيات ولد فى تلبانة بالمنصورة عام ١٩٣١. بدأ روميش الكتابة فى أواخر الخمسينيات، وأصدر فى عام ١٩٧٣ على نفقته الخاصة «الليل الرحم» أول مجموعاته القصصية. ورغم توزيعها المحدود إلا أنها اعتُبرت إنجازاً أدبياً واستطاعت أن تصل إلى جمهور واسع عندما أعادت دار الهلال نشرها عام ١٩٨٦ بما تم حذفه من طبعتها الأولى. كما صدر له بعد رحيله مجموعته القصصية الثانية «الشمس فى برج المحاق». ورغم قلة أعماله القصصية إلا أنّ عدداً كبيراً من النقاد يعتبرونه من الكتاب الذين أحدثوا تحولاً جمالياً فى القصة القصيرة على مستوى المعنى والمبنى والتشكيل الجمالى، وخاصة فى فهم جوهر تكوين شخصية الفلاح المصرى. ولهذا تعدّ كتاباته امتداداً متميّزاً ليحيى حقى وعبد الرحمن الشرقاوى ويوسف إدريس. يناقش قاسم فى رسالة إلى روميش أحد التناقضات المهمة التى حرّكت جيل الستينيات للكتابة وأيضاً التى دفعتهم للتوقف عنها، وهى العلاقة بجمال عبد الناصر الذى يوصف دائماً بأنه الديكتاتور العادل أو الأب الذى ينبغى الثورة عليه. قاسم وروميش كلاهما عانى من تلك الإشكالية ولكن الأول استمر فى الكتابة وتوقف الثانى. ويرى البعض أن الشهور الأربعة التى قضاها روميش فى سجن طرة هزت وجدانه وأثّرت فيه مما جعله يتوقف عن الكتابة فقد ألقى القبض عليه فى ما سمى بـ «حملة يناير ١٩٧٥».. وهى الحملة التى شملت عدداً من الكتّاب والصحفيين والشعراء من بينهم إبراهيم منصور، صلاح عيسى، أحمد فؤاد نجم،عز الدين نجيب،

عبد الرحمن أبوعوف، محمد كامل القليوبى، زين العابدين فؤاد وآخرين. وقد أعقبت الحملة تمرداً عمالياً قام به عمال منطقة حلوان الصناعية كإجراء وقائى حتى لا يتم استغلال هذا التمرد. وكان من أبرز الاتهامات التى وجّهت إلى المقبوض عليهم كما يذكر صلاح عيسى: «أنهم يدعون إلى تشكيل اتحاد ديمقراطى مستقل للكتاب المصريين وأنهم يناهضون وزارة الثقافة». وقد عمل روميش مديراً للشئون القانونية لأحد البنوك المصرية، قبل أن يترك مصر إلى الكويت حيث عمل هناك أيضاً فى أحد البنوك. توفى روميش فى أغسطس ١٩٩٢ بعد شهور قليلة من رحيل عبد الحكيم قاسم. والمفارقة أنهما أصيبا بالمرض فى توقيت متزامن. ويحكى إبراهيم أصلان فى كتابه «خلوة الغلبان» أن روميش ظل مداوماً على زيارة يحيى حقى حتى أصيب بذلك المرض الذى بدا مبهماً أول الأمر. وكان قد رافق الروائى عبد الحكيم قاسم إلى بلدته حيث رشح الأخير نفسه فجأة عن حزب التجمع لانتخابات مجلس الشعب، وراح يخطب فى القرى والنجوع ويخوض نقاشات مختلفة مع «الجماعات» وغيرها، أصيب عبد الحكيم بتلك الأزمة التى أودت بحياته فيما بعد بينما كان روميش يرقد فى الحجرة المجاورة له. وهو ظل معه حتى استقر فى مستشفى طنطا. ويضيف أصلان:" منذ ذلك الوقت راح روميش يشكو من أعراض مبهمة، وأنا أداعبه وأردّ سبب ذلك إلى المحنة التى عاشها إلى جوار عبد الحكيم أثناء الأزمة، وأطالبه بأن يستخدم «طاسة الخضة»، ثم اتضح أنها مشكلة خطيرة فى الدم وأن الأمر متوقف على مدى استجابته للعلاج. روميش لم يكن مقتنعاً. كان يرى أن المشكلة الأساسية سببها أنّ واحداً من الأطباء لم يسمع، حتى الآن، موضوع مرضه جيداً".

محمد صالح (١٩٤٢- ٢٠٠٩): شاعر مصرى، من أبرز شعراء قصيدة النثر المعاصرين، ولد فى منية شنتنا عياشى إحدى قرى مدينة المحلة الكبرى فى إبريل ١٩٤٢ ورحل فى نوفمبر ٢٠٠٩. من أهم أعماله «الوطن الحمر»، «خط الزوال»، «صيد الفراشات»، «حياة عادية»، «مثل غربان سود». كانت بداية معرفته بعد الحكيم قاسم عندما قرأ له قصة «حكايات جول حادث

صغير» وتصوّر أن كاتب هذه القصة شخص كبير فى السن لما فى القصة من خبرات كبيرة بالواقع الإنساني، ثم كان اللقاء الأول بينهما فى المؤتمر الأول للأدباء الذي عقد فى المحلة عام ١٩٦٩، ليكتشف أنه أمام كاتب شاب، منفتح جداً، شديد الجدّية والمودة. عندما انتقل محمد صالح للعمل بالقاهرة تعددت اللقاءات بينهما، ثم توثقت صلاتهما أكثر عندما تزوج صالح بسامية قاسم شقيقة عبد الحكيم. وإن كان كما يقول صالح "علاقتنا كأصدقاء ظلّت هي الأساس". يبدو محمد صالح هو الأقرب إلى عبد الحكيم خاصة وأن توقيت رسائله له كان فى أشدّ لحظات إحساس قاسم بالوحدة، الرسالتان المنشورتان مثلاً أرسلهما بينما يحتفل الجميع برأس السنة. كشفت الرسائل لصالح مدى فهم قاسم للأشخاص الذين ربطته بهم علاقات. كما يرى أيضاً أن الوجود الحي للكاتب يكون أحياناً عقبة، فقد "عرفت قاسم أكثر واقتربت منه أكثر بعد الرحيل". الاختلافات الشخصية التى يرصدها صالح بينهما أو مساحات الصمت فى رسائله:"كان عبد الحكيم حكاء بينما أنا شخص صموت، هو شخص صريح فى التعبير عن نفسه وأنا لست كذلك، وقد كان يدهشني مثلاً أنه كان يتبادل الحكى مع أخيه عبد المنعم لساعات متواصلة بلا توقف. وهذا الاختلاف يعود إلى طبيعة كل شخصية فقد كان فارق العمر بينى وبين أقرب أشقائى نحو عشر سنوات، ولم تكن هناك مساحة حوار أو علاقة صداقة تجمعني بهم، كانوا بالنسبة لى آباء". لا يتذكر محمد صالح أنه اختلف مع قاسم حول علاقتهما أو لكونهما فى صله نسب: "مرة واحدة اختلفنا بسبب مشادة لى مع إبراهيم منصور.. ولكن حتى الخلافات الزوجية العادية التى كانت تحدث بينى وبين شقيقته كان يقف دائما فى صفى".

محمود الوردانى (١٩٥٠): قاص وروائي مصري، ولد فى القاهرة فى إبريل ١٩٥٠، من أهم أعماله الروائية: «نوبة رجوع»، «رائحة البرتقال»، «طعم الحريق»، «الروض العاطر»، «أوان القطاف»، «موسيقى المول». ومن مجموعاته القصصية: «السير فى الحديقة ليلاً»، «النجوم العالية»،و «فى الظل والشمس». لم تبدأ علاقة عبد الحكيم قاسم مع الوردانى إلا بعد عودته من

ألمانيا، وكان بينهما ود بدأ من إعجاب قاسم بقصة قصيرة نشرها الوردانى فى مجلة «اليسار العربى»، وكتب قاسم مقالاً عن القصة وأرسله للمجلة نفسها ولكنهم لم ينشروه، كانت العلاقة بينهما قائمة على مراسلات شفاهية ثم تطوّرت إلى خطابات متبادلة. ربما يكون عدد هذه الخطابات خمسة (عثر الوردانى على أربعة منها). وبعد عودة قاسم من ألمانيا بدأت العلاقة الشخصية بينهما:"بعد عودته التقينا لنستأنف علاقةً.. شعرنا معاً أنها بدأت منذ سنين. تحدثنا فى كل شىء وتبادلنا الزيارات، ورأيت ابنيه الجميلين وزوجته الراحلة التى ما أزال أحمل لها مشاعر احترام ومحبة فهي ذات معدن نادر". رسائل قاسم للوردانى من أواخر ما كتب قاسم قبل عودته إلى القاهرة، وهى العودة التي وزّع فيها كثيراً من عداواته على كثير من أبناء جيله وأصدقائه بما فيهم الوردانى نفسه: "كثيراً ما تشاجرنا-عبد الحكيم وأنا- وما نلبث أن نتصالح عندما نتقابل مرة أخرى، بل إنه داهم ندوة في الأتيليه لمناقشة مجموعة قصصية لى وراح يصيح مهاجماً فيما يشبه الغارة العسكرية، لكننا كنا نعود للتصالح ويصحب كل منا الآخر لأى مكان نجلس معا لنستأنف شجاراتنا!"

محمود عبد الوهاب (١٩٤٢): ناقد وقاص مصري وُلد فى القاهرة وأصدر مجموعة قصصية واحدة هى «حكايات من عصر الفرسان»، كما صدر له أربعة كتب نقدية و «قراءات وإبداعات معاصرة»، « قراءات ومبدعون مصريون»، «عن الفن والأدب»، و «فنون روائية» مقالات نقدية.

بدأت علاقته بعبد الحكيم قاسم عندما كتب عنه عام ١٩٨٣فى مجلة «الثقافة الجديدة» دراسة نقدية بعنوان «بؤس الأيام السبعة» تتناول روايته «قدر الغرف المقبضة» ..فى إحدى إجازاته من برلين سعى قاسم للتعرف إليه، وفيما بعد توالت دراسات عبد الوهاب النقدية عن أعمال قاسم فنشر فى نوفمبر ١٩٨٤ بمجلة إبداع دراسة عن رواية «الأخت لأب» كما نشر فى مايو ١٩٨٦ دراسة عن «طرف من خبر الآخرة» في مجلة «إبداع». ويري عبد الوهاب أن قاسم كان يعاني من الغربة الشديدة ويشعر بظلم شديد بسبب تغريبته.. بعد إحدى الندوات سأله قاسم: ما رأيك فى الندوة؟ أجاب عبد

الوهاب: جمهورها قليل. فقال قاسم: "هكذا مصر تنسي ولادها اللى مش قدّام عنيها". ويري عبد الوهاب أن أبرز ما ميز قاسم "اعتزازه بنفسه كاتباً.. كان يكتب بجدية وإخلاص نادرين".

ناجى نجيب (١٩٣١- ١٩٨٧): ناقد أدبى مصرى، ولد عام ١٩٣١ فى مدينة المنيا بصعيد مصر، ودرس الأدب الإنجليزي فى جامعة عين شمس عام ١٩٦٠ . سافر عام ١٩٦١ إلى ألمانيا فى منحة لدراسة الألمانية فى ميونخ، وبداية من عام ١٩٧٠ بدأ فى إعطاء محاضرات فى معهد الدراسات الشرقية ببرلين. يرجع إليه الفضل فى تعريف القارئ الألمانى بكثير من الأعمال الإبداعية العربية حيث ترجم إلى الألمانية عدداً كبيراً من الأعمال العربية من أهمها: مأساة الحلاج لصلاح عبد الصبور،قنديل أم هاشم ليحيى حقى، ثرثرة فوق النيل لنجيب محفوظ، على جناح التبريزى لأفريد فرج، أهل الكهف لتوفيق الحكيم ورجال حول الشمس لغسان كنفانى. وله عدد من المؤلفات النقدية من بينها: «الأحزان: فصول في التاريخ النفسي والوجداني والاجتماعي للفئات المتوسطة العربية»، «توفيق الحكيم وأسطورة الحضارة»، « الحلم والحياة فى صحبة يوسف إدريس»، «يحيى حقى وجيل الحنين الحضارى» . وكثيراً ما ينسب إليه عبد الحكيم قاسم الفضل فى دعوته لزيارة ألمانيا ثم الإقامة فيها. توفى فى مايو ١٩٨٧.

-٢-

كرونولوجيا... سطور وتواريخ

١٩٣٥

ولد عبد الحكيم قاسم فى بيت جده لأمه الذى كان يعمل أمينا لشونة بنك التسليف الزراعي المصري فى قرية ميت القرشي دقهلية، فى الأول من شهر يناير حسب الأوراق الرسمية وإن كان يعتقد أنه ولد قبل هذا التاريخ بعدة أسابيع.. وقد سأل أمه إن كانت تتذكر يوم ميلاده بالتحديد فقالت إنها ليلة شتوية كانت فى ٢٦ رجب، أى فى الخامس من نوفمبر ١٩٣٤، ولكن عامل التليفون فى قرية والده البندرة مركز السنطة بمحافظة الغربية أرجأ قيد الاسم إلى أول العام:"حتى يكون تجنيدى مع مواليد هذا العام وليس مع مواليد العام الذى قبله" كما يقول عبد الحكيم . عامل التليفون اسمه الشيخ موسي الصبري كان:"رجلا أريبا واسع العالم بأسرار دواوين الحكومة وفن الأوراق والإجراءات والتواريخ، وكانت عقيدته أن الواحد إذا لم يعرف هذه الأسرار ضاع فى تفاصيلها وإذا لم يغلبها غلبته وربما أصابه خسران مبين".

١٩٤٣

التحق بمدرسة الأقباط الابتدائية بميت غمر، حيث سكن فى بيت جده لأمه وكان يعود لأسرته فى الإجازات الصيفية.

١٩٤٨

تخرج من المدرسة الإبتدائية

١٩٤٩

درس فى مدرسة الناصر الثانوية بطنطا.

١٩٥٤

هجر قريته للإقامة فى القاهرة بعد إصابته بالملاريا وتردّى أحواله الدراسية. وفى القاهرة سكن فى غرفة على سطح إحدى عمارات شبرا، كما عمل فى محل حلواني وفى مكتب أحد المحامين.

١٩٥٥

التحق بكلية الحقوق جامعة الإسكندرية.

١٩٥٦

تطوّع فى الحرس الوطني دفاعا عن مدينة الإسكندرية بعد وقوع العدوان الثلاثى.

١٩٥٧

كتب أول قصة له بعنوان «العصا الصغيرة» واشترك بها في مسابقة نادي القصة ولكنها لم تفز.

١٩٥٩

- بدأت رحلة والده مع المرض الذى استمر ثلاث سنوات ليرحل بعدها ولم يكن عبد الحكيم قد أنهى دراسته للحقوق، وبعد الرحيل اضطربت أحواله المادية واضطر أن يترك الجامعة والتحق فى عمل كتابى فى هيئة البريد بميدان العتبة فى القاهرة.. وفى تلك الفترة كان يتردد على ندوة حسين القباني التى تقام صباح كل جمعة فى كازينو قصر النيل فى منيل الروضة وهناك قرأ قصصه القصيرة.

- فى ٢٦ ديسمبر هذا العام ألقى القبض عليه وقُدّم للمحاكمة بتهمة الانتماء للحزب الشيوعى المصري وحُكم عليه بخمس سنوات سجنا من مجلس عسكري عال، قضاها فى سجن الواحات. وفى السجن بدأ التخطيط لكتابة روايته «أيام الإنسان السبعة».

١٩٦٤

أُفرج عنه من السجن فى ١٤ مايو، وعمل بعد تخرجه فى مكتبة ركسان أرملة شهدى عطية الشافعى.

١٩٦٥

نشرت له مجلة الآداب البيروتية أول قصصه القصيرة «الصندوق».

١٩٦٦

حصل على ليسانس الحقوق من جامعة الإسكندرية. عمل فى الهيئة العامة للتأمين والمعاشات حتى رحيله إلى ألمانيا.

١٩٦٩

صدرت روايته الأولى «أيام الإنسان السبعة» عن دار الكاتب العربي للطباعة.

١٩٧٤

تلقى دعوة من الأكاديمية الإنجيلية ومعهد الدراسات الإسلامية ببرلين الغربية للمشاركة فى ندوة أدبيّة فسافر إلى برلين فى يناير.

١٩٧٧

فى سبتمبر انتهى من كتابه روايته «المهدى».

١٩٧٨

صدرت روايته «محاولة للخروج».

١٩٨٢

صدرت روايته « قدر الغرف المقبضة» فى مطبوعات القاهرة. كما صدرت له عن دار التنوير فى بيروت روايتاه «المهدي» و«طرف من خبر الآخرة» تحت عنوان «روايتان».

١٩٨٣

صدر له عن دار التنوير فى بيروت «الأخت لأب» و«سطور من دفتر الأحوال».

١٩٨٤

صدرت مجموعته القصصية «الأشواق والأسي» وضمت تسع قصص هى: قريتي، الصندوق، ليلة شتوية، السفر، الخوف القديم، غسق، الصفارة، الخوف، فى ذلك اليوم.

١٩٨٥

عاد من ألمانيا للاستقرار النهائى فى مصر.

١٩٨٦

صدرت مجموعة «الهجرة إلى غير المألوف» عن دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع وقد ضمت خمس قصص هى على التوالى: الصوت، عطية أبو العنين داود، طبلة السحور، رجوع الشيخ، المهدى، و العام ذاته أصدر أيضا روايته «طرف من خبر الآخرة» فى سلسلة «مختارات فصول»، وفى العام ذاته أيضا أصدر مجموعة «الظنون والرؤى» عن دار المستقبل العربي وضمت سبع قصص هى على التوالي: القضية، تحت السقوف الساخنة، عن البنات، شجرة الحب، الموت والحياة، حكايات حول حادث صغير، البيع والشراء.

١٩٨٧

قرر خوض انتخابات مجلس الشعب على قائمة حزب التجمّع، ولكنه خسر الانتخابات، وعقب خسارته مباشرة أصيب بنزيف حاد فى المخ دخل على أثره مستشفى المعادي حيث قضى أربعة أشهر قبل أن يخرج مصابا بشلل فى يده اليمنى أعاقه عن الكتابة بنفسه، وظل يملي زوجته ما يريد حتى رحيله. فى العام ذاته، صدرت روايته «محاولة للخروج» فى هيئة الكتاب.

١٩٨٨

صدرت طبعة ثانية من روايته «أيام الإنسان السبعة» فى سلسلة مختارات فصول عن هيئة الكتاب.

١٩٨٩

تُرجمت «أيام الإنسان السبعة» إلى الإنجليزية وقام بالترجمة جوزيف بيل وصدرت عن هيئة الكتاب.

١٩٩٠

- صدر له فى كتاب الهلال حكايات للأطفال بعنوان «الصغيران وأفراخ اليمامة»، كما صدرت مجموعته القصصية «ديوان الملحقات» فى سلسلة «مختارات فصول».

- فى ١٣ نوفمبر رحل بعد رحلة طويلة من المرض .

١٩٩١

صدر بعد رحيله كتابه «الديوان الأخير» عن دار «شرقيات» الذى ضم ١٧ قصة قصيرة، وعدة فصول من روايته التى لم تكتمل «كفر سيدى سليم»، والمسرحية الوحيدة التى كتبها لإذاعة البرنامج الثاني عام ١٩٨٨ «ليل وفانوس ورجال».

٢٠٠٥

صدرت طبعة ثالثة من روايته «أيام الإنسان السبعة» عن دار الشروق.

شكر

إلى الأصدقاء: محمد بدوي، إيمان مرسال، وائل عشرى، إيهاب بسيسو، محمد جمعة، خالد البري، وائل عبد الفتاح، حسن عبد الموجود، عبد الحكم سليمان، منتصر القفاش، وإلى رشا عبد الوهاب..على ملاحظاتهم وتشجيعهم .. وتصويباتهم الضرورية. وشكر لأصحاب الرسائل الذين تحمسوا للفكرة وأمدونى بما لديهم من رسائل .. وإلى إيزيس قاسم شكر خاص على صبرها ومساعداتها غير المحدودة.

المحتويات

• المقدمة:

الكتابة بلا مكياج ٥

• الرسائل:

١. إلى ناجى نجيب ٣١
٢. إلى عبد المنعم قاسم ٤٧
٣. إلى محمد صالح ٦٩
٤. إلى محمد روميش ٨١
٥. إلى حسنى عبد الفضيل ١١١
٦. إلى بطرس الحلاق ١٢٩
٧. إلى إدوار الخراط ١٤٥
٨. إلى محمود الوردانى ١٥٧
٩. إلى سامى خشبة ١٨٧
١٠. إلى سعيد الكفراوى ١٩٥
١١. إلى محمود عبد الوهاب ٢٠١

• الملاحق:

١. أصحاب الرسائل ٢٣٦
٢. كرونولوجيا.. سطور وتواريخ ٢٤٧

مختارات ميريت

هذا الكتاب

ليست هذه الرسائل سيرة للكاتب الراحل عبد الحكيم قاسم، بقدر ما هي «سيرة» جيل بأكمله، جيل الأحلام المسروقة، إذ تعكس الرسائل الجو الأدبي الذي نشأ وتكون فيه جيل الستينات، واللحظات الصعبة التي عاشها أثناء حكم عبد الناصر، ثم حكم السادات وخاصة بعد كامب ديفيد، مرورا بغزو بيروت، وحرب الخليج الأولى. ... كل هذا يجعل منْ هذه الرسائل توثيقًا سياسيًا واجتماعيًا لهذا الجيل وليس فقط لصاحبها.

أمر ثان يضيف أهمية لهذه الرسائل، كونها جنسًا أدبيًا وفنيا لم يول العناية الكافية في الثقافة العربية، رغم انتشاره في الثقافة الغربية، إذ لا يتم الالتفات دائما إلى ما يتركه الأدباء العرب من أوراق بعد رحيلهم، رغم أهميتها في إلقاء الضوء على الكثير من الجوانب المختفية تحت أقنعة الكاتب. هذه الرسائل تسرب لنا الكثير من الضوء حول آراء قاسم في الفن، الدين، السياسة، المرأة وغيرها من التصورات حول الحياة والموت، ويبث فيها الكثير من آرائه، وهي أقرب لأن تكون كتابة بلا مكياج، خاصة وقد اشتهر صاحب «أيام الإنسان السبعة» بعنفه وصدقه الجارح في أوقات كثيرة!

تصميم الغلاف: أحمد اللباد

ميريت